كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء

ومختصر كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء

تأليف :
الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

تحقيق وتقديم :
آدم عبد الحميد صبره

المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة

كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء
إلى شروط صحبة الأمراء
ومختصر كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء
إلى شروط صحبة الأمراء

تأليف:
الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

تحقيق وتقديم:
آدم عبد الحميد صبره

(١ب) كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء

تأليف سيدنا ومولانا القطب العارف بربه تعالى الشيخ الكامل الراسخ القدم سيدي الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

نفعنا الله تعالى به وبعلومه[١] والمسلمين أجمعين آمين.

[وكتاب آخر][٢]

(٢أ) بسم الله الرحمن الرحيم [وبه نستعين]،[٣]

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له[٤] الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله إلى جميع المكلفين، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين أبد الآبدين ودهر الداهرين، اللهم[٥] آمين.

وبعد فهذا كتاب نفيس في بيان شروط[٦] صحبة الفقير للأمير وعكسه وبيان أدب كل منهما مع الآخر، وضعته لإخواننا المغفلين من الفقهاء والفقراء والأمراء، لا أعلم أحداً سبقني إلى وضع مثله من المتقدمين والمتأخرين، اقتبست ذلك كله من شعاع نور الشريعة المطهرة ومن شعاع نور كلام العلماء العاملين رضي الله عنهم أجمعين. وكان سبب رقمه[٧] في هذه الطروس رجاء النفع به بعد موتي. فإن كتاب الإنسان نائب عنه في نصح إخوانه في حياته وبعد مماته من حيث نصرة[٨] الشريعة وحصول الثواب المترتب على ذلك، فهذا هو قصدي بتأليفه الآن والله أعلم.[٩] واعلم يا أخي أني خصصت وضع هذا الكتاب بالمغفلين من إخواننا دون الحذاق لأن الحاذق لا يقدم على فعل شيء إلا بعد النظر إلى حسن عاقبته عليه في الدنيا والآخرة بخلاف الساذج[١٠] المغفل من الفقهاء والفقراء، فإنه ربما بادر[١١] إلى فعل الأمور (٢ب) من غير نظر إلى عاقبتها، كما هو مشاهد.

١ «وبعلومه» ساقط من د.

٢ «وكتاب آخر» موجود في أ ومكتوب بخط غير خط الناسخ.

٣ «وبه نستعين» زيادة من ب والجملة ساقطة من د.

٤ «لا شريك له» ساقط من د.

٥ «اللهم» ساقط من ب.

٦ «شروط» ساقط من ب.

٧ «رقمتي» في ب.

٨ «نصرته» في ب.

٩ «والله اعلم» ساقط من ب ج د.

١٠ أ: السادج، ب: السادح.

١١ أ: بارد.

وسمعت سيدي علياً[١٢] الخواص رحمه الله[١٣] يقول: ينبغي لمن ألف كتاباً في تحذير من وقوع شيء أن يبدأ[١٤] بتحذير الفقهاء والفقراء لأن هاتين الطائفتين هم القدوة للناس في كل زمان، فإن انعوجوا انعوج أتباعهم من الناس ورائهم، وإن استقاموا استقام الناس ورائهم غالباً. وسمعته يقول: يجب على كل من جعله الله قدوة للناس من الفقهاء والفقراء أن يكون زاهداً في الدنيا ورعاً في أمور دينه عفيفاً على محارم الله وعن المزاحمة على صحبة أحد أبناء الدنيا كالأمراء والأغنياء، خوفاً أن يتبعه المغفلون في ذلك فيُكتب من الأئمة المضلين.

وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يحذر أصحابه من الاقتداء به في كل فعل لم يعرفوا له دليلاً ويقول[١٥] لهم: إياكم أن تقتدوا بي من غير إطلاعكم على ما يشهد لي بالاستقامة، فإني رجل قد خلصت[١٦] في أمر ديني، انتهى.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إنما غاير الناس في الاسم بين الفقهاء والصوفية بحكم الاصطلاح، وإلا فالتحقيق أن كل صوفي فقيه وبالعكس. إذ حقيقة الصوفي أنه عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير ولا يقدر أحد يرقى به عن هذا الحد أبداً. أما ما يقع على يد الصوفية من الكرامات والخوارق فإنما هو نتيجة العمل بالكتاب والسنة على وجه الإخلاص، فكل فقيه عمل بعلمه كذلك فهو الصوفي (٣أ) حقاً. وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه: إذا لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي، انتهى.

فعلم أنني ما وضعت هذه الرسالة للحذاق من الفقهاء والفقراء لاستغنائهم عن مثله، وإنما وضعتها للمغفلين منهم فقط لأنهم هم الذين لا ينظرون إلى عواقب الأمور، ويتزاحمون على صحبة الأمراء والتقرب منهم لأجل حصول شيء من دنياهم، ولو على وجه الصدقة عليهم. ولا يخفى ما في ذلك من الذل وفتح باب الازدراء لهم مع كونهم من حملة القرآن والعلم وقدوة للناس في أمر دينهم، وإلا فالتحقيق أن إخلاص الصحبة لله مأمور به في[١٧] حق جميع الناس لبعضهم بعضاً لا يختص بأحد دون أحد. ثم لا يخفى عليك يا أخي أن من حذق المؤلف أن لا يحذر من شيء إلا بعد سلامته هو من الوقوع فيه خوفاً أن ينظر الناس إلى فعله ويقولون: كيف يحذرنا فلان من شيء هو واقع فيه[١٨]؟ وهذا وإن لم يكن حجة صحيحة فالأولى تركه. وقد قالوا: من شرط الداعي إلى حضرة الله أن يكون محفوظاً من المخالفات بحكم التبع لمورثه ﷺ، فكما كان مورثه معصوماً من الزيغ والزلل كذلك يكون هو محفوظاً منهما، والأقل نفعه بالنظر لمن كان محفوظاً. ولذلك كنت لا أحذر الناس في كتابي هذا وغيره عن شيء [إلا بعد][١٩] أن تمكنت في مقام الحذر منه حسب طاقتي مصلحة لنفسي ولإخواني. (٣ب) فأسأل الله تعالى من فضله أن يمن على جميع الإخوان بالعمل بما علموا والحذر مما حذرتهم به في هذا الكتاب، ليكون أحدهم عالماً عاملاً فقيهاً صوفياً ورعاً زاهداً عفيفاً عن أموال كل من صحبه ناصحاً

١٢ أ: علي.
زيادة من ب: تعالى.
أ: يبدي.
ب ج: يقولون.
ج د: خلطت.
١٧ «في» ساقط من ب.
١٨ ب: واقيم به.
ب: حتى عن شيء لا يفعل.

له غير غاش ليستبرئ لدينه وعرضه، كما جرى عليه العلماء العاملون الذين أدركناهم أوائل القرن العاشر بمصر وقراها. فكان أحدهم لا يذوق لأميره طعاماً ولا شراباً ولا يقبل له هدية، ومع ذلك فكان يفرح لفرحه ويحزن لحزنه وفاء بحق صحبته عكس حال غالب الناس اليوم، فإن أحدهم ربما أكل من طعام أميره ولبس من لباسه مدة سنين، ثم لما وقع أميره في شدة ذهب كأنه لم يعرفه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من لم يخلص الصحبة لله تعالى مع من يصحبه من الأمراء وغيرهم أورثه ذلك الذل والهوان وكان عليه التبعة في كل من استغابه ووقع في عرضه من الأقران وغيرهم، فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا صحب أحداً بغير إخلاص، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وادخلوا إلى العمل بما في هذا الكتاب بإحكامكم[٢٠] الزهد في الدنيا والعفة عن أموال الناس وعدم الطمع في ما بأيديهم من شهوات الدنيا، وإلا وقع أحدكم في الذل والهوان ولم يستطع أن يرد نفسه عن الطمع في شيء، كما يقع للذباب إذا شم رائحة العسل واللبن، والله (٤أ) حسبي وحسبكم ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. واعلموا أيها الإخوان أنني إنما صرحت من أول الكتاب إلى آخره[٢١] بقولي ومما من الله علي به كذا وكذا إعلاماً لكم بأن باب الفتح على العباد بالمقامات الشريفة مفتوح إلى يوم القيامة. [ثم][٢٢] إذا علمتم ذلك فأقول وبالله التوفيق:

فمما من الله تعالى به علي من الإخلاص في صحبة الأمراء وعفتي عن أطعمتهم ومشاربهم وملابسهم وغير ذلك من سائر ما ينتفع به من أمور الدنيا حسب طاقتي، وذكر الفقير[٢٣] جملة[٢٤] صالحة من أدب الفقير معهم وآدابهم[٢٥] معه قياماً منه ومنهم بحق الصحبة حسب طاقته،[٢٦] كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، مع مبالغتي بحمد الله تعالى في نصحهم وعدم غشهم وعدم دخولي تحت حكمهم في الأغراض النفسانية، كإظهار العصبية معهم على أعدائهم ومساعدتهم على تولية الوظائف التي لا خلاص لهم فيها، ونحو ذلك من حين يدخلون في صحبتي إلى أن يفارقوني بموت أو غيره، فلله الحمد على ذلك. ولنشرع[٢٧] في مقصود الكتاب فنقول وبالله التوفيق:

مما من الله تعالى به علي شدة كراهتي ليتردد أحد من الأمراء إلي ولو غير مكروب، وكراهة تعرفي إليه بإظهار علم أو صلاح خوفاً أن يجره[٢٨] ذلك إلى شدة اعتقاده في فتلحقني الآفات. وإن وقع (٤ب) أني أحسست باعتقاده في كمال[٢٩] العلم والصلاح توجهت [إلى الله عز وجل في دفعه عني ونسيانه لاسمي حتى لا يكاد يذكرني ولا

[٢٠] ب: احكام.
[٢١] ب: لآخره.
[٢٢] زيادة من د.
[٢٣] «الفقير» ساقط من ب ج.
[٢٤] ج: حملة.
[٢٥] ج: أدب.
[٢٦] ب: الطاقة.
[٢٧] ب ج: والنشرع.
[٢٨] د: يجره.
[٢٩] د: وجود علم أو صلاح.

أمر على خاطره. وقد فعلت مثل ذلك مع كثير من أمراء السناجق والدفاتر كالأمير جانم الحمزاوي[٣٠] ومصطفى باشا زبيد وحسن الدفتردار وغيرهم حين غلب على ظني أنهم عزموا على زيارتي فصرف الله قلوبهم عني.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تمكنوا أحد من الأمراء يزوركم، فإن جميع ما معكم من الأعمال الصالحة وثوابها ربما لا يكافيه على مشيه إليكم مرة واحدة، كما أنكم لا يصح لكم أن تكافيوه على تلك المرة بمشيكم إليه سبعين مرة. واسألوا الله أن يستر عنه صلاحكم وعلمكم وينفره عنكم، ولو بأن يقيض لكم عدواً ويجرحكم عنده ويذكر له نقائصكم بطريق شرعي. ثم تسامحونه في ذلك وتسألون له المسامحة من الله تعالى من حيث الجزء البشري الذي يتشفى من عرض أخيه لحظ نفس آخذاً بالاحتياط لأنفسكم، فإن صحبة الأمراء مختنقة[٣١] بالآفات في الدنيا والآخرة. ولو تأمل أحدكم نفسه بعين البصيرة لوجد أعماله كلها رياء ونفاقاً لا يصلح لقبول الحق شيئاً منها. وإذا علمتم من أمير شدة اعتقاده فيكم فاحلفوا له بالله أنكم لستم بصالحين عملاً بغلبة ظنكم بأنفسكم، انتهى. وسمعته يقول: إذا جاءكم أمير يطلب منكم الصحبة فقولوا له: نحن في غنية عن الحاجة إليك، وليس لنا قدرة على القيام بحق صحبتك ولا على المشاركة في الشدائد والمصائب التي ربما تطرأ لك في الدنيا والآخرة، ولو أننا علمنا من أنفسنا القدرة على ذلك لصحبناك. وهذا أمر لا يقدر على النطق به إلا من أحكم مقام الزهد في الدنيا وشهواتها وخاف من كل شيء يشغله عن الله عز وجل ولو][٣٢] لحظة[٣٣] من عمره. وقد رأيت شخصاً من إخواني قد اشتهر بالعلم والصلاح يتردد إلى بعض دفاتر مصر فقلت له: ما سبب ترددك إليه؟ فقال: بلغني أنه يحب العلماء والصالحين من أقراني. فقلت له: ولأي شيء تظن[٣٤] بنفسك أنك من أقران العلماء والصالحين وتطالبه بمحبتك؟ فما درى ما يقول. فأسر إليه ولدي عبد الرحمن حفظه الله في أذنه وقال له: قل لوالدي: إنما ترددت إليه لكونه يحب العلماء والصالحين بقطع النظر عن كوني أنا منهم. فاستدرك ذلك وقالها لي. فقلت له: ليست هذه مرتبتك، وإنما هي مرتبة من أحكم الزهد في الدنيا وأحب كثرة اعتقاد الأمير لأقرانه وقدمهم على نفسه بحيث لو عزله ولي الأمر من جميع وظائفه وأعطاها لهم لفرح وانشرح صدره لذلك، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تمكنوا أحداً من الأمراء يمشي إليكم إلا بنية صالحة بأن لا يكون عليكم ولا عليه تبعة تلحقكما في دينكما. وكان رضي الله عنه يقول: والله إني لأغار على الأمير الذي يعتقد في أن يجالس مثلي، فربما سرق طبعه[٣٥] الحسن من طباعي السيئة.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: كل فقير رأى نفسه أهلاً لأن يتردد أحد إليه من آحاد الناس فضلاً عن الأمراء والأكابر (٥أ) فهو غاش لنفسه، فإن بعض الأمراء ربما كان أكثر تواضعاً منه فكان

[٣٠] ب: الأمير الحمزاوي.
[٣١] أ: مخنقة.
[٣٢] ما بين المعقوفتين في هامش أ وساقط من د.
[٣٣] أ: لحظه.
[٣٤] ب: نظرت.
[٣٥] ب: صبعه.

أرقى بذلك درجة، انتهى. وقد أرسل إلي أمير من السناجق مرة يقول لي: لو لا أني[٣٦] أخاف أن أنجس حضرتك إذا حضرت أو أسيء الأدب معك إذا أرسلت لك السلام بلسان عصيت الله به لكنت فعلت ذلك، انتهى. فأي فقير تراه ينطق بمثل ذلك يا أخي من إخوانكم! فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحتاطوا لأنفسكم ولمن يصحبكم من الأمراء وغيرهم ولا تغشوا نفوسكم ومن صحبكم، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أن لا أصحب أحداً من الأمراء إلا إن[٣٧] غلب على ظني دخوله تحت طاعتي بطيبة نفس واختيار بحيث يرى خروجه عن طاعتي من جملة المعاصي التي يجب عليه التوبة منها فوراً. وذلك لا يمكن[٣٨] من ترقيته[٣٩] في الأدب إلى ما هو أعلى مما هو فيه. [فإن الأمير في صحبة الفقير بمنزلة المريد لا يفعل إلا ما يأمره به شيخه، فلو قال له: اعزل نفسك من الإمارة أو اخرج عن جميع مالك للفقراء فتوقف في ذلك، فقد خرج عن صحبة الفقير ووجب عليه التوبة واستئناف الصحبة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل أمير لا ينشرح صدره][٤٠] ويفرح قلبه بالخروج عن جميع وظائفه وجميع ماله وتطليق نسائه وإعتاق رقيقه وإيقاف دوره وبساتينه إذا أمره شيخه بذلك، فلا يصلح للفقير أن يصحبه لقلة اعتقاده فيه. فإنه لو كان معتقداً فيه لرأى أن جميع ما خرج عنه من الدنيا[٤١] أحقر من حصاة من الأرض بالنسبة لما يريد شيخه أن[٤٢] يرقيه له من المقامات التي فيها عز الدارين، كمجالسة الله عز وجل[٤٣] والتفرغ لعبادته وعدم إعراضه عن شيء من مرضاته، انتهى. (٥ب) فعلم مما قررناه أني لا أوافق الأمير الذي صحبته على طلب دخولي تحت مراده كأن يريد مني أن أكون متعصباً معه على عدوه أو أدعوا عليه كما يفعل ذلك من يصحب الأمراء لغير الله، وإنما أشرط عليه قبل صحبتي له أني لا أدخل تحت حكمه ومراده في شيء مما يوافق هوى نفسه. وإذا طلب مني أني أساعده على رد[٤٤] كيد عدوه عنه، توجهت إلى الله عز وجل وسألته بأنبيائه وأصفيائه أن يجعل ذلك العدو من عباده الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فإن الله تعالى إذا استجاب مني ذلك في حق عدوه جعله من صدور المقربين[٤٥] ولم يستعمله في شيء يؤذي أحداً من المسلمين فضلاً عن ذلك الأمير بغير حق، وهي سياسة حسنة استنبطتها من قوله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٤٦]. وقد عملت بهذا الخلق مراراً مع الأمراء

[٣٦] ب: لو لا أخاف اني ان.
[٣٧] أ: ان غير موجود.
[٣٨] أ: تمكن.
[٣٩] أ: ترقية.
[٤٠] ما بين المعقوفتين ساقط من أ د.
[٤١] ب: جميع ما اخرج من الدنيا عنه.
[٤٢] «أن» ساقط من ب.
[٤٣] ب: تعالى.
[٤٤] ج: صرف.
[٤٥] ب: ولم يجعله.
[٤٦] فصلت، ٣٤.

الذين يصحبوني ولهم أعداء، فلا أدعو على العدو بشيء يؤذيه[٤٧] في دينه أو جسده أو ماله أو أهله أبداً لأن ذلك خروج عن مقام العدل. فإن كلا من الأميرين عبد لله عز وجل وأخ لنا في الإسلام فيجب علينا محبتهما إكراماً لمن هما عبداه. وإن كان ولا بد من[٤٨] الحكم[٤٩] بينهما [سألنا الله عز وجل أن يحكم بينهما][٥٠] بما لا يضر أحد الفريقين، بل يرضى[٥١] كلا منهما بما حكم الله به عليه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تدخلوا في حملة[٥٢] أمير يريد وظيفة (٦أ) في يد أحد ممن يستحقها فإن ذلك خروج عن العدل إلى حظ النفوس، وإن ساق عليكم أكابر العلماء أو[٥٣] غيرهم فازدادوا منه نفرة، واجعلوا مساعدتكم له أن تسألوا الله عز وجل أن يعسر عليه طريق الوصول إلى تلك[٥٤] الوظيفة رحمة به وبصاحب الوظيفة. ثم إن خرج عن إشارتكم وسعى عليها بغرض[٥٥] من الدنيا، ثم أخذها وظفر به صاحب تلك الوظيفة وسعى في عزله وعقوبته مجازاة له فإياكم أن تحملوا حملته، بل اتركوه تحت مشيئة الله عز وجل. فإن عاقبه[٥٦] كان ذلك من بعض[٥٧] ما يستحق، وإن عفا عنه فهو غفور رحيم، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أدخل في صحبة أمير يريد مني قضاء حوائجه عند الله بسرعة إلا إن كان يرجحني على جميع أقراني، عرفاً[٥٨] من العلماء والصالحين الذين في بلدتي أو إقليمي. وذلك لأن مدار سرعة قضاء الحوائج وبطئها على شدة اعتقاد صاحب الحاجة في الفقير[٥٩] لا على علو[٦٠] مقام الفقير، فمن ادعى شدة اعتقاده في فقير، ثم خذل وانتصر عدوه عليه وآذاه كل الأذى، فهو غير صادق في دعواه. إذ لو كان صادقاً لحماه الله تعالى من كيد الأعداء والحاسدين ولم يقدر أحد منهم على أن يسوؤه بشيء. فإن الأمير في حجر تربية الفقير كولد اللبوة في حضنها، فكل من أراد أن يأخذه من حضنها (٦ب) افترسته ونهشته.

وحُكي عن أبي يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه أنه أتى إلى بئر ليشرب منها فلم يجد حبلاً ولا دلواً فوقف متحيراً. فجاءت بنات أطفال بغير حبل فهمهمن في السر بكلام سراً فصعد الماء لهن حتى ملأن جرارهن. فتعجب

[٤٧] زيادة من ب: به.
[٤٨] «من» ساقط من ب.
[٤٩] زيادة من ب: له.
ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
أ: يرضي.
ج: جملة.
[٥٣] ب: و.
أ: ذلك.
[٥٥] ب: عرض، ج: عوض.
ج: عاقبته.
[٥٧] «من بعض» ساقط من ب.
د: تخوفاً.
[٥٩] أ: الفقر.
[٦٠] «علو» ساقط من أ.

أبو يزيد من ذلك فقال لهن: ماذا قلتم للبئر؟ فقلن: قلنا لها: يا بئر زيدي ببركة أبي يزيد. فقال لهن: أنا أبو يزيد ولم يصعد لي ماء البئر؟ فقالت له بنية فيهن: طاعة البئر لنا إنما هي بصدق اعتقادنا فيك الصلاح، وأنت لا يصح لك أن تعتقد في نفسك أنك صالح، انتهى. فعلم أن طلب الفقير ترجيحه على أقرانه من صاحب الحاجة ليس[٦١] من طريق حظ النفس بما[٦٢] زاد على الجزء البشري، وإنما هو وسيلة لسرعة قضاء الحاجة. فاعلموا ذلك أيها الأمراء[٦٣] ولا تطلبوا من فقير قضاء حوائجكم،[٦٤] إلا إن اعتقدتموه كل الاعتقاد اللائق بمقامه الظاهر، وإن لم يكن هو في نفس الأمر كذلك فإن لم تعتقدوه،[٦٥] وإلا كلفتموه شططاً وخاب سعيكم، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا بعد أن أشرط عليه أنه لا يكلفني الأكل من طعامه ولا لقبول شيء من هداياه مدة صحبتي له. فإن أجابني إلى ذلك بانشراح نفس صحبته، وإلا أعرضت عنه. ثم إن أجابني إلى ذلك وأرسل إلي هدية من نقد أو طعام أو كسوة أو طيب أو دابة ونحو ذلك، أعلمته بخروجي عن صحبته، ثم رجعت[٦٦] على نفسي بلوم وقلت لها: لو أنك كنت صادقة (٧أ) في كراهيتك[٦٧] قبول هدايا الأمراء[٦٨] لكنت دفعتيه بقلبك وأنسيتيه[٦٩] إرسال شيء من هداياه إليكِ في المواسم وغيرها، فاستغفري الله من عدم صدقكِ في كراهة قبول هداياه. وهذا خلق غريب قل من عمل به من الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة كراهتي لاعتقاد أحد من الأمراء في إلا لمصلحة شرعية، بل أحب ما إلي شدة انكاره علي وبعده عني بما زاد على الجزء البشري. فقل أمير يصحب فقيراً لله خالصاً أو عكسه، فإن غالب الفقراء ربما يصحب [أحدهم الأمير لينال شيئاً من دنياه كما أن الأمير ربما يصحب][٧٠] الفقير ليتحمل حملته في الشدائد في نظير ما يرسله إليه من الهدايا. وقد قالوا: من أكل الخفارة وجب عليه رد الغارة، بخلاف من لم يأكل من الخفارة، فإنه إن شاء رد الغارة وإن شاء سلم الأمر لله تعالى فيها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله[٧١] يقول: من علامة تعظيم الأمير للفقير أن يُجله عن إرسال شيء إليه من أمور الدنيا، فإن إرسال مثل ذلك إليه علامة على احتقاره له وإدخاله في جملة النصابين والشحاذين الذين لا يعبأ الله بهم. وسمعته يقول: كلما أكثر الأمير الهدايا للفقير كلما دل [ذلك][٧٢] على قلة اعتقاده فيه وعلى أنه يجب

[٦١] «ليس» ساقط من ب ج.
[٦٢] ب: لما.
[٦٣] د: الإخوان.
[٦٤] د: حوائج.
[٦٥] ب: كذلك.
[٦٦] ب: وجهت، ج: وجعلت.
[٦٧] د: كراهتك.
[٦٨] ب ج: الأمير.
[٦٩] ب د: أنسيته، ج: انشيته.
[٧٠] ما بين المعقوفتين ساقط من ب.
[٧١] «رحمه الله» ساقط من ب.
[٧٢] «ذلك» ساقط من أ د.

الدنيا. ولو أنه[٧٣] علم منه أنه يكره الدنيا ويحصل له بها الغم لما أرسلها إليه، انتهى. وسمعته يقول: [كان ذلك قبول الفقير هدية الأمير أو الأكل من طعامه أول ما يرجع (٧ب) ضررهما على][٧٤] الأمير بعدم استجابة دعاء الفقير له. فإن طعام الأمراء الغالب فيه الشبهة بالنظر لمقام الفقير، وربما يكون حلال الأمير من جملة الحرام أو الشبهات عند الفقير بالنظر لمقامه، كما سيأتي بيان ذلك في القسم الثاني من مسائل الورع.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على الأمير إذا صحب الفقير أن لا يرجح أحداً من الأشياخ الموجودين في عصره عليه[٧٥]، ومن علامة ذلك أن [لا يهدي إليه هدية][٧٦] ولا يطعمه شيئاً من طعامه ولا يلبسه شيئاً من لباسه ليلا يتلف قلبه ويمنع إجابة دعائه. بل لو كان من مذهب الفقير قبول هدايا الأمراء[٧٧] والأكل من طعامهم وطلب ذلك من الأمير،[٧٨] وجب على الأمير منعه مصلحة لنفسه ولدين شيخه. وسمعته يقول: المدار في سرعة قضاء الحوائج على ترجيح اعتقاد صاحبها في الفقير [لا على الفقير.][٧٩] فلو أن صاحب الحاجة قل اعتقاده في القطب الغوث على قضاء حاجته لم يقدر القطب على قضاء حاجته، ولو أنه عظم اعتقاده في آحاد الناس لقضى الله تعالى حاجته وجعله أهلاً لذلك. فإن الله تعالى[٨٠] أقسم في بعض الكتب الإلهية بعزته وجلاله أن لا يطلب أحد من عبيده حاجة من محل إلا وكان الحق تعالى حاضراً في ذلك المحل، فقضى حاجته غيرة على أن يخذل ذلك العبد. ويؤيد كون الحق تعالى موجوداً عند كل مقصد [بقوله تعالى في السراب][٨١] ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ﴾[٨٢] وهذا (٨أ) سر غامض قل من يتفطن له، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى علي أني إذا وجدت الأمير حدث له قلة اعتقاد في أرشدته إلى الانتقال من صحبتي إلى صحبة أحد من أقراني. وإن رأيته قليل الاعتقاد فيه حسنت اعتقاده فيه [حسب][٨٣] الطاقة وقلت له: اختر لنفسك إما أن ترجح اعتقادك في عليه لأقضي[٨٤] لك حاجتك بسرعة، وإما أن ترجح اعتقادك فيه علي ليقضي لك حاجتك، وإما أنك لا تطلب مني ولا منه قضاء حاجة. فإن قضائها دائر مع ترجيح اعتقادك في شخص[٨٥] ما من الصالحين، فرجح اعتقادك في شخص منهم ثم اطلب منه قضاء حاجتك، وإلا خاب سعيك. ومما يقع لي أن أعز أصحابي ربما أتاني بقلة اعتقاد يطلب مني قضاء حاجته، فلا أقدر على قضائها لا عند الله ولا عند

[٧٣] «أنه» ساقط من ب.
[٧٤] ما بين المعقوفتين ساقط من ب، «كان ذلك» ساقط من ج.
[٧٥] زيادة من ب: بشرى إليه هدية وما عليه، ج: في عصره يهديه إليه هدية ولا عليه.
[٧٦] ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
[٧٧] أ: الأمير.
[٧٨] أ ب: الفقير.
[٧٩] ما بين المعقوفتين ساقط من أ.
[٨٠] «تعالى» ساقط من ب.
[٨١] ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
[٨٢] النور، ٣٩.
[٨٣] ساقط من أ د.
[٨٤] ب: لأجل أن اقضي.
[٨٥] زيادة من أ د: ثم.

الخلق، وربما أتاني من لا أعرفه بشدة اعتقاد فأقضي حاجته بإذن الله في أسرع ما يكون، وربما أعطي المعتقد الذي عجز الأطباء عن مداواته قشة من الأرض وأقول له: تبخر بها، فيفعل ذلك فيشفى. وجاءني مرة شخص وبه استسقاء شديد حتى صارت بطنه تمس لحيته. فقلت له: هذا أمر لا تشفى منه إلا على يدي من تعتقده أشد الاعتقاد، بحيث لو وضع أهل مصر مثلاً في كفة ووضع هو في كفة لرجح عليهم عندك. فقال: أنت عندي كذلك. فأعطيته (٨ب) قشة يتبخر بها عند النوم ففعل ذلك وأتاني بكرة النهار ليس به داء. فعلمت بذلك شدة اعتقاده في، وإن لم أكن كذلك في نفس الأمر. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني إذا صحبت أميراً عالماً بالشريعة وطلب مني قبول هديته، لا أردها إلا بوجه شرعي لا تزكية للنفس فيه. كأن أقول له: إني أخاف أن يكون قبولي لمثل ذلك فيه بيع للدين بالدنيا، لاسيما فقد أخذ أشياخي علي العهد أني لا آكل من طعام من يعتقد في الصلاح. [وقد غلب على ظني أنك تعتقد في الصلاح][٨٦] فضع ذلك عندك حتى يتغير اعتقادك في وتصير تراني من النصابين الكذابين، وأنا آخذه إن شاء الله تعالى إن احتجت إلى مثله. فإن الأمير يستحي أن يقول [لي]:[٨٧] قد صرت الآن عندي كذاباً نصاباً. وما دام يعتقد في الصلاح لا أقبل منه شيئاً ليلا أنقض عهد أشياخي، وسيأتي بسط ذلك [في القسم الثاني من الكتاب][٨٨] كما أنه سيأتي فيه أيضا أني إن كنت صالحاً في نفس الأمر كما ظنه في هذا الأمير فقد بعت صلاحي بعرض من الدنيا، وأني إن كنت غير صالح فقد أكلت حراماً بالتلبيس على الناس.

ومن وصية شيخي رضي الله عنه: إياك أن تأكل طعام أحد من المعتقدين فيك الصلاح، وإنما الأدب أن تأكل من طعام من يحبك محبة الوالدة لولدها. فإنها تطعمه أحسن الطعام وتشفق عليه أشد الشفقة، ولو كان من أكابر (٩أ) الفسقة، وتقول إذا وقع في معصية: إن ذلك من إبليس لا منه، وتقول: خزاك الله يا إبليس عمل على عقل ابني وأوقعه[٨٩] في كذا وكذا، وليس له عادة بذلك فلا تكاد تزدريه بما وقع فيه. وهكذا المحبون إذا أطعموك يفعلون ذلك معك محبة فيك لا لأجل دينك، بحيث لو أنهم رأوك مرتكباً شيئاً من المعاصي لا تنقص عندهم بذلك [شيئاً].[٩٠] فمثل هؤلاء لك الأكل من طعامهم لأنهم لم يطعموك لأجل صلاحك، ولكن هذا النوع من الناس لا تكاد تجد أحداً منه إلا في النادر. وخرج[٩١] بقولنا أول المبحث:[٩٢] عالماً بالشريعة، ما لو كان جاهلاً فإن لنا رده، ولو لم نبين له وجهاً شرعياً في رده. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أتوجه إلى الله في مساعدة الأمير الذي صاحبني على عدوه إلا بعد اجتماعي بعدوه واستفهام القضية منه، فربما يكون أميري ظالماً عليه فيوقعني في صورة التعصب على خصمه بغير حق.

[٨٦] ما بين المعقوفتين ساقط من أ د.
[٨٧] ساقط من أ.
[٨٨] ما بين المعقوفتين زيادة من د.
[٨٩] أ: واقعه.
[٩٠] «شيئا» زيادة من ب.
[٩١] ب ج: يخرج.
[٩٢] د: البحث.

وذلك كأن يسعى أميري على ولاية هي في يد ذلك العدو بحق يريد هو أخذها بغير حق، ثم إذا ظفر الله ذلك العدو به ونصره عليه، فلا ينبغي لي أن أساعده لأنه ظالم في صورة مظلوم. وكثيراً ما أقول لأميري ذُق مرارة الضرر الذي أدخلته على عدوك قبل ذلك، فيا طول ما قهرته وكدرت عليه معيشته بسبب أخذك وظيفته (٩ب) أو سعيك فيها بغير حق، فخذ جزاء عملك ولا تطلب مساعدتي لك في رد ما يفعله معك عدوك من العقوبة وتوقعني في رائحة الظلم والحيف، وفي توجهي إلى الله تعالى[٩٣] في تحويل قلبه عنك من البغضاء إلى المحبة، فإن ذلك من أعسر الأمور. وقد قالوا: تحويل الجبل بتوجه الفقير أهون عليه من تحويل قلب أمير، وذلك لأن الجبل لا عقل له ولا رؤية في الأمور بخلاف الأمير، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله [تعالى][٩٤] به علي أني أظهر الصداقة لعدو أميري بقصد حصول المصلحة له، وذلك لأنه إذا ظهر له تعصبي مع أميري عليه وكراهتي له ولو بحق خرج عن طاعتي وأتعب قلبي وقلب أميري، وهو أمر يخفى على كثير من الأمراء. وربما ظن أميري أنني إنما أحببت عدوه كراهة فيه هو، والحال أنني أحببته ليميل إلي فأكفه عن الأذى الذي يقع فيه غالب الأعداء مع بعضهم، لأن الفقراء ينزهون عن المثي بين أصحابهم بالغرض الفاسد لشدة زهدهم في الدنيا وشهواتهم بخلاف الراغبين في الدنيا، فإن أحدهم ربما يكون دائراً مع غرض من أحسن إليه بشيء من الدنيا شاء أم أبى. فليحذر الأمير الذي يصحب فقيراً من أن يظن في الفقير الذي أحب عدوه أنه أحبه لغرض نفساني، فإن ذلك علامة على نقضه عهده معه. وهذا باب خبرته كل الخُبر مع بني بغداد (١٠أ) وبني عمر وغيرهم من أمراء[٩٥] الصناجق،[٩٦] حتى ربما ظن أحدهم بي المثي بالغرض مع عدوه قياساً على غالب الفقراء الراغبين في الدنيا، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أحداً من الأمراء إلا بعد أن أعاهده بعهد الله أني لا أذوق له طعاماً ولا أقبل له هدية، وأنه متى أرسل لي هدية من طعام أو غيره نقضت صحبته، ولم يبق بيني وبينه ود ولا إخاء، كما مر قريباً. وقد قال الفضيل بن عياض: ما مد فقير يده إلى طعام أمير وقبل منه هدية إلا أذهب[٩٧] الله هيبته وحرمته من قلبه، ولم يبق عنده داعية لقبول نصحه ولا شفاعته في أحد من المظلومين. وأجمع الأشياخ على أن من مقام[٩٨] الشيخ أن يكون يطعم المريد ويكسوه دون[٩٩] العكس. وقالوا: الأمير في حجر تربية الفقير كالمريد والزوجة. فمن رضي بأن يكون مريده أو زوجته تعوله،[١٠٠] فقد خرج عن مقام الرجولية والمشيخة وخرج مريده عن النفع به لحصول الإذلال الذي[١٠١] صار له عليه بإحسانه إليه، انتهى.

[٩٣] «تعالى» ساقط من ج.
[٩٤] «تعالى» ساقط من أ.
[٩٥] أ: أمر.
[٩٦] ب ج: السناجق.
[٩٧] أ ب ج: ذهب.
[٩٨] «من» ساقط من أ د، وفي هامش ب: أي دون العكس.
[٩٩] ب: من غير.
[١٠٠] د: يعوله.
[١٠١] ب زيادة: هو.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول للأمير الذي يصحبه:[١٠٢] إن كنت تريد دوام صحبتي لك فلا تفتقدني في شيء من المواسم، ولا تجعل لي اسماً عندك في دفتر الصدقات والهبات والهدايا أبداً، لاسيما إن كنت تريد مني قبول الدعاء لك[١٠٣] في حوائجك. فقد قالوا: (١٠ب) طعام الأمراء معجون بدماء الفقراء، وذلك لتسخيرهم لهم في حرثهم وحصادهم وتحميلهم خراج الأرض التي يزرعونها غالباً والأكل من مثل ذلك مما يرد به دعاء الفقير. وسمعته يقول: إياكم أن تقبلوا هدية من أمير من جوخ أو شاش أو صوف أو سمن أو عسل أو أرز أو سكر أو دجاج أو أوز أو غنم، فإن الغالب في ذلك أنه يأتيه من العمال من مشايخ البلاد والكشاف، ومعلوم أن هدايا العمال لأمرائهم غلول كما ثبت في الصحيح، ولا يليق بالشيخ أن يقبل[١٠٤] شيئاً من ذلك الغلول الذي أهداه له الأمير، بل يفسق بأخذه ويخرج عن طريق القوم. فليتنبه الفقير الذي يصحب الأمير لمثل ذلك، ويرد كلما أعطاه له الأمير ولو جاء بغير سؤال.[١٠٥]

وسمعت سيدي علياً الخواص [رحمه الله][١٠٦] يقول: كل فقير إن ادعى أنه صحب أميراً لله عز وجل ثم أهدى ذلك الأمير إليه شيئاً من الدنيا، فهو دليل على عدم صدقه. إذ لو كان صادقاً لمحا من قلب الأمير معرفة اسمه عند تفرقته ضحية أو حلوى أو غيرهما من سائر الهدايا. فإن من شرط الصحبة لله أن يحب[١٠٧] كل أحد من الصاحبين أخاه لله من غير واسطة هدية أو إحسان، بل كلما فقدت الهدية والإحسان كلما ازداد الفقير في الأمير محبة، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً غلب على (١١أ) ظني أنه يريد مني مساعدتي على تولية وظيفة من الوظائف إلا إن كانت لا تعبة فيها عليه في الدنيا والآخرة. وربما أقول له: يا أخي ليس في شعرة واحدة تساعدك على هذه الولاية، بل أنا من أشد المعارضين لك فيها محبة فيك وشفقة عليك، فإن شئت فادخل على هذا الشرط، وإن شئت فاذهب إلى غيري، كل ذلك عملاً بقوله ﷺ: الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وأنا أعلم وأتحقق أن مساعدتي لأميري في تولية وظيفة لا خلاص له فيها غش لنفسي وله وللمسلمين، وأنه إن رضي عني بذلك في الدنيا، فسوف يسخط علي بذلك في الآخرة. وقد قالوا: كل فقير لا يشاهد أحوال الآخرة ومحاسباتها وموازناتها من هذه الدار، فما يفسده في صحبته أكثر مما يصلحه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إذا رأيتم أميراً أو غيره يريد صحبتكم لتساعدوه على ولاية حسبة أو قضاء أو نظر على وقف أو مشيخة على عرب أو عمالة، فاطردوه عنكم أشد الطرد، لأنه يريد منكم

[١٠٢] ب: صحبه.
[١٠٣] د: قبولك.
[١٠٤] زيادة من ب: هدية من الأمير ولا.
[١٠٥] بداية الجزء الساقط من د.
[١٠٦] زيادة من ب ج.
[١٠٧] أ: يحث.

أن تكونوا شركاء له في خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إن حصل لكم ويكفي أحدكم ما تحمله على ظهره من الأوزار المتعلقة به وبالخلائق، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة تحذيري لأميري أن يذكر (١١ب) عدوه بسوء عند أحد من الأكابر ولاسيما عند نائب جديد يدخل البلد وهو جاهل بأحوال الناس، فإن تجريح[١٠٨] ذلك الشخص عنده ربما انتقش في قلبه فعسرت إزالته بعد ذلك. ثم أن الله عز وجل ربما قيض لأميري عدواً يجرحه عند نائب جديد كذلك بحكم العدل، فلا يلومن من يجرح عدوه عند الأمراء وغيرهم إلا نفسه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله[١٠٩] يقول: يجب على فقير صحب أميراً أن يحذره من ذكر عدوه بسوء غاية الحذر، فإن كل شيء فعله مع عدوه جازاه الله بمثله قلة وكثرة حسناً وقبحاً، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أحضر وليمة الأمير الذي صحبته فضلاً عن أكلي منها، لأني إن أكلت من طعامه دخلت في زمرة الأئمة المضلين لأتباع الناس لي في ذلك، وإن لم أكل كدرت عليه وعلى بعض الحاضرين[١١٠] وقتهم. فإنهم ناظرون إلى فعلي وربما تركوا الأكل اقتداء بي، فصفروا وجه الأمير وأخجلوه وينسبوه إلى أكل الحرام، [وقالوا: لو كان ذلك حلالاً لأكل منه شيخه. فلا يفي حضوري لجبر خاطره. فلما وقع مني من لوث الناس به ونسبته إلى أكل الحرام][١١١] وأن تلك الوليمة كلها مجمعة من أموال رعيته، إما بسيف الحياء وإما خوفاً منه وإما لعدم النية الصالحة في ذلك، كما هو الغالب على ولائم الأمراء (١٢أ) وأطعمتهم التي يعملونها في ختان أولادهم أو تزويجهم أو نذورهم أو عزائهم أو طعام جمعهم أو تمام شهرهم،[١١٢] فإنها لا تكاد تسلم مما قلناه، فسد الباب بعدم حضور الفقير وليمة أميره أولى بطريقه الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

مما من الله تعالى به علي تسليك أميري وترقيه في المقامات إلى أن يصير يرى اللوح المحفوظ ويعرف ما قدر الله تعالى عليه وما لم يقدره، وذلك حتى لا يلحقه كبير هم ولا غم ولا خوف إذا قال له أحد من المجاذيب: أعطني ديناراً مثلاً ولم يعطه خلاف ما عليه غالب الأمراء. فربما أعطى أحدهم المجذوب شيئاً خوفاً أن يعطبه أو ينزل [عليه][١١٣] بلاء إذا منعه. وذلك معدود من جملة المعاملات[١١٤] لغير الله، فلا يكاد يثاب على ذلك. فالسعيد من الأمراء من صبر على تربية شيخه[١١٥] له حتى صار يعرف ما قدره الله عليه من الأمور المبرمة وغيرها من غير خوف من المجاذيب إذا منعهم ما طلبوا من الدنيا.

١٠٨ أ: ترجيح.
١٠٩ زيادة من ب: تعالى.
ب: الناظرين.
ما بين المعقوفتين زيادة من ب ج.
ب ج: شهرتهم.
«عليه» زيادة من ب ج.
ب: جميعه معاملة.
ب ج: تربيته.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من شهد الأمور كلها من الله لم يخف من سطوة أحد، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وأعطوا المجاذيب وغيرهم من مال الله تعالى ما طلبوا من غير خوف منهم ولا طلب ثواب على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً تفرست فيه كثرة مدحه لي في المجالس إذا خالطني وعرف مقامي في الزهد والورع، إلا إن كانت (١٢ب) نيته في ذلك صالحة وكان يحوطني كلما يمدحني بالآيات والأذكار خوفاً علي من حصول العجب بنفسي، ولو خطوراً بالبال. وإن لم يكن كذلك لا أصحبه، بل أطرده عن صحبتي بالقلب والقالب. بخلاف من كتم أحوالي عن الناس أو أظهرها بنية صالحة مع تحويطه لي،[١١٦] فإني لا أطرده عن صحبتي، ولكن أحذره من مدحه كل الحذر لاحتمال أن يمدحني ويقدمني على بعض الأقران عصبية وحمية جاهلية.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يصحب أميراً إلا إن رآه كاتماً لأسراره خائفاً على نقص[١١٧] دينه. وسمعته يقول: إياك أن تصحب من لقولك يسمع ولفضلك ينشر إلا وأنت على حذر، فإنه يصيبك في قلبك ويربي لك جاهاً في قلوب الخلائق لغير أغراض صحيحة. ولا تصحب إلا من يعرف فضلك ويكتمه عن أصدقائك وأعدائك، ويظهره لمحبيك ومن يقتدي بك فقط. أما الأصدقاء فربما حرك عندهم داعية الحسد لك كما هو الغالب في أصدقاء الزمان، وأما الأعداء فربما عملوا لك المكايد وسعوا في إهلاكك، بخلاف المحب الصادق، فإنك معه في أمان من التغير عليك غالباً، انتهى. وسمعته يقول: [كل فقير وجد لذة عند سماعه مدح أميره له في المجالس فصحبته لغير الله]،[١١٨] وكل فقير وجد مرارة وألماً من مدح أميره له [في المجالس فهو علامة على إخلاصه في الصحبة له].[١١٩] وهي ميزان تطيش في[١٢٠] الذر، فلا يسامح الفقير في اللذة إلا بقدر ما فيه من الجزء البشري (١٣أ) الذي هو كشعرة من جلد ثور، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني[١٢١] أوصي كل من صحبني من الأمراء أن لا يواجهني بشيء خرج عنه للفقراء لآخذه منه وأفرقه عليهم، لما في ذلك من الازدراء بمقام الفقراء من حيث ما يخطر ببال الأمير غالباً من شهود فضله بذلك على الشيخ وجماعته، زيادة على ما يحصل لي من الغم وقبض [الخاطر][١٢٢] إذا رأيت شيئاً يجلب شهوات الدنيا لي ولجماعتي. وأقول له: إن كنت خرجت عن شيء للفقراء فأعطه للنقيب ولا تعلمني بذلك، فإن المعاملة حقيقة إنما هي مع الله لا معي.

وسمعت سيدي أبا السعود الجارحي رحمه الله تعالى[١٢٣] يقول: إذا أتاكم أحد من الأمراء بشيء من الدنيا لتفرقوه على جماعتكم، فإياكم أن تظهروا له انشراح القلب بذلك فتورثوا أنفسكم الذل وتورثوه العز. ثم إن

ب: به.
ج: بعض.
١١٨ ما بين المعقوفتين ساقط من ب.
ما بين المعقوفتين ساقط من أ.
ج: على.
١٢١ «أني» ساقط من ب.
زيادة من ب ج.
ساقط من ج.

وقع أنكم قبلتم ذلك للفقراء، فإياكم أن تقبلوه وأنتم تعلمون أن في البلد من[١٢٤] هو أحوج إلى ذلك منكم، فتكونوا سبباً في نقص أجره، بل أرشدوه إلى من هو أحوج منكم لترجحوا ميزانه في الآخرة بذلك. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا بعد أن غلب على ظني أني قد أحكمت مقام الزهد في الدنيا بحيث صرت أنقبض لدخولها علي، وأحب كل عدو عارضني في وصولها إلي حتى يصير من أعز أصدقائي، كما (١٣ب) أنشرح كلما ضيق الله عليه في عيشتي وأفرح بذلك، اقتداء بالأنبياء والأولياء في ذلك. فإن لم يغلب على ظني إكمالي مقام الزهد في الدنيا قبل صحبة ذلك الأمير، لم أصحبه مصلحة لديني ولذلك الأمير. فإن من لازم الراغب في الدنيا وشهواتها مداهنة الأمير في دينه واستحيائه من نصحه، إما للدنيا التي وصلت إليه منه، وإما لرجائها منه في المستقبل، بخلاف الزاهد في الدنيا، فإنه لا يقع منه مداهنة لذلك الأمير ولا استحياء من نصحه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من لم يحكم مقام الزهد في الدنيا، فمن لازمه محبة قبول الإحسان والبر من أميره الذي يصحبه، وذلك مُذهب لحرمته. وقبيح على الشيخ أن يكون عيلة على الأمير، فإنه يصير في عين الأمير كغلمانه الذين يخدمونه باللقمة والخلقة، فإن الأمير لا يكاد يقبلهم في شفاعة في مظلوم لهوانهم في قلبه. وفي المثل السائر: هان عليك من احتاج إليك. وسمعته يقول: من طلب أن يعرف مقامه في العز والذل، فلينظر نفسه إذا أعطاه أمير مائة دينار مثلاً وقبلها أو ردها، فإنه يجد نفسه بعد الرد في غاية العز وبعد القبول في غاية الذل بين يدي ذلك الأمير، حتى لو أراد الأمير أن يحتقره بعد الرد أو يعظمه بعد الأخذ، لا يقدر. وقد عرض علي بعض الباشاة[١٢٥] بمصر خمسمائة دينار فرددتها (١٤أ) عليه، فأحسست في قلبي أنه صار يرفع مقامي على مقامه لكوني زهدت فيما رغب هو فيه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لشيخ يدعي الصدق في الطريق أن يكون أحد من الأمراء والولاة أزهد منه في الدنيا. فقلت له: كيف ذلك؟ فقال: يقبل منهم نقداً أو طعاماً أو ثياباً أو نحو ذلك إذا عرضوا[١٢٦] [ذلك][١٢٧] عليه، فإنهم ما عرضوه عليه إلا بعد أن زهدوا فيه. ولو أن أحدهم لم يزهد في ذلك، لما قدر أحد من الفقراء[١٢٨] على استخلاصه من أيديهم بحيلة من الحيل بشيء زهد فيه الولاة الذين ينسبونه إلى الظلم والجور ونقص المقام، كيف يليق بمن يدعي الولاية والصلاح أن يأخذ منه شيئاً ويكون الولاة أزهد منه في الدنيا؟ هذا شيء من أعجب العجاب، فتأملوا في ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ب ج: شيء بدل من.
ب: الباشاة.
١٢٦ أ: أعرضوا.
زيادة من ج.
زيادة من ب ج: كل من أحبه أكثر فهو أحق بكثرة له من غيره وهو جهل بأحوال الفقراء فالفقير الصادق لا يقبل شيئا من هدايا الأمير فضلا عن تلك إذا قالوا له من الهدية وأكثروا منها لأقرانه والحمد لله رب العالمين ومما من الله تعالى علي.

مما من الله تعالى به علي كثرة محبة أميري إذا فرق دراهم أو دنانير أو غير ذلك وأعطاني دون عشر[١٢٩] ما أعطاه لأقراني،[١٣٠] لحملي له على أنه ما قلل لي في الهدية إلا لحمله به علي صدق المحبة له وكثرة زهدي في الدنيا، عكس[١٣١] ما ظنه من[١٣٢] أقراني. ومن كان كذلك فاللائق بشيخه كثرة محبته له. وهكذا تعكيس ما عليه الولاة الآن مع مشايخهم، فربما ظن الشيخ أن إكثار الأمير الهدية له إنما هي لتعظيم مقامه عنده، ويظن الأمير[١٣٣] [أن كل من أحبه أكثر فهو أحق بكثرة الهدية (١٤ب) له من غيره وجهل أحوال الفقراء. فإن الفقير الصادق لا يقبل شيئاً من هدايا[١٣٤] الأمراء فضلاً عن تكدره إذا قللوا له من الهدية وأكثروا منها لأقرانه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي][١٣٥] عدم رؤية فضلي على أحد من الأمراء الذين صحبتهم إذا أخذت بيد أحدهم في شدة بإذن الله، بل أرى الفضل لهم علي ببادىء الرأي. ومن هنا كنت أقوم لأحدهم وأقبل رجله وأسأله الدعاء وأشيعه لباب[١٣٦] الدار و[١٣٧]الزاوية، وأرى ذلك من بعض ما يستحقه علي لرفعة مقامه علي بالتواضع وخروجه عن كبريائه وعظمته لأجلي، فإنه لو أنه لم يخلع كبريائه ولا عظمته ما كان زارني.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تروا أنفسكم[١٣٨] في الفضل على أحد من الأمراء الذين يزورونكم فإن ذلك جهل وكبر منهم، فإن رفع الدرجة عند الله إنما هو كثرة التواضع، كما أشار إليه حديث: من تواضع لله رفعه الله، ولا شك أن الأمير أكثر تواضعاً منكم لعلو مقامه في الظاهر بخلاف أحدهم، فإن مقامه الجلوس على الأرض التي ليس بعدها مرتبة تتنزل إليها. وسمعته رحمه الله[١٣٩] يقول: من أدبنا مع أمرائنا أن نعظمهم أدباً مع الله الذي خلع عليهم خلعة الإمارة وأعطاهم الحكم في رعاياهم، وليس المذموم إلا من يعظمهم لأجل دنياهم. وسمعته يقول: إذا اجتمع بكم أمير (١٥أ) فاسألوه الدعاء لكم بالتوبة والمغفرة، وارجوا إجابة دعائه لكم كما ترجوا إجابة دعاء الصالحين. ثم قال: هذا أدبنا مع أمرائنا في هذه الدار وسوف يعلمنا الله تعالى إن شاء الله[١٤٠] الأدب معهم إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة. قال تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[١٤١]. وسمعته يقول: من نظر نفسه بعين البصيرة من فقراء هذا الزمن وجد الأمير الذي يزوره أكثر تواضعاً لله منه، فوجب إكرامه لكونه أعلى مقاماً منه. وقد صحبني أمير كبير فقلت له: ألك حاجة؟ فقال:

ب ج: خمس.

ب: إخواني.

«عكس» ساقط من ج، وهناك بياض.

ج: في.

١٣٣ ب: أمراء.

أ: هديا.

ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.

ب ج: إلى باب.

ج: أو.

١٣٨ ج: نفوسكم.

١٣٩ «رحمه الله» ساقط من ب.

زيادة من ب كلمتان غير مقروءتان.

١٤١ الإسراء، ٢١.

نعم حاجة ضرورية. فقلت له: وما هي؟ فقال: تسألوا الله لي أن يعطني خصلة من خصال الكلاب، فإني رأيت في صفاتي فوجدتها أخبث من صفة الكلاب. وصحبني أمير آخر، ثم انقطع عني وأرسل يقول لي: اعذروني في عدم حضوري أو[١٤٢] عدم إرسالي السلام لكم، فإني أستحي أن أنجس حضرتكم أو أرسل لكم السلام بلسان عصيت الله به، انتهى. فنبهاني على أمر كنت عنه غافلاً فانظر يا أخي إلى هذا التواضع العظيم من هذين الأميرين الكبيرين واتبعهما فيه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي كوني لا أغفل غالباً على إرشاد أميري إلى العفو والصفح عن أصحاب الأمير الذي كان في الوظيفة قبله وأقول له: إن كنت متزلزلاً في ولايتك فهذا يكفيك فيها، وإن كنت ثابتاً فيها (١٥ب) فهو من جملة الشكر على تثبيتك[١٤٣] وزيادة عزك. فإن في الحديث: وما زاد الله عبداً بعفو[١٤٤] إلا عزاً،[١٤٥] مفهومه أنه لا يزيده بعدم العفو والصفح إلا ذلاً وهواناً. وهذا أمر قل من يرشد أميره إليه من الفقراء، إما لعدم معرفته به وإما لتساهله في النصح،[١٤٦] والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم إظهاري الغضب[١٤٧] لأميري إذا رد[١٤٨] شفاعتي وأغلظ علي القول على خلاف عادته معي[١٤٩] لعلمي بأن الأمراء في حجاب غالباً عما يدعوهم إليه الفقير. وقد قال تعالى لموسى وهارون في حق فرعون ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيناً﴾[١٥٠] أي ولو أغلظ هو عليكما القول. وهذا أمر قل من يصبر له من الفقراء، فيغضب من الأمير ويعطل شفاعاته[١٥١] عنده فيقع في كفة الخسران هو وأميره. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أطلب من أمير صحبني[١٥٢] أن يحترم جنابي ويقف عند قوتي ويقبل شفاعتي إلا بعد إحكامي مقام الزهد في الدنيا، وإلا كلفته شططاً. وربما يقول إذا رآني أحب الدنيا: أنا وهذا الشيخ على حد سواء في محبة الدنيا، فما وجه تعظيمي له وطلبه مني أن أنقاد له؟ وقد دخل أبو عبد الله الأصمعي فأغلظ على الخليفة، فقال له الخليفة: يا أبا عبد الله أتعرف ما وجه (١٦أ) تجرئك علينا بالكلام الجافي وصبرنا على تحمله منك؟ فسكت الأصمعي. فقال الخليفة: سبب ذلك زهدك في الدنيا وعفتك عن أموالنا، انتهى. فالعاقل من اعتبر، والحمد لله رب العالمين.

ب: و.
«تثبيتك» ساقط من ج، وهناك بياض.
ب: العفو.
ج: عز.
١٤٦ ج: الصفح.
١٤٧ ب: الفقر.
ب: أراد.
ب: لي.
طه، ٤٤.
ب ج: شفاعته له.
ب: صحبتي.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا إن غلب على ظني أنه يزداد في محبة كلما بالغت في نصحه وشددت عليه وبينت له عيوبه، فإن لم يكن كذلك صرفته عني بحسن عبارة. فإنه لا فائدة في صحبة الفقير للأمير إلا النصح والربح في الدنيا والآخرة. وإذا فقد النصح جاء الغش، وفيه خسارة الدنيا والآخرة.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: بالغت مرة في النصح للسلطان قايتباي رحمه الله فعبس وجهه من كلامي، فمسكت يده وقلت له: والله ما بالغت في نصحك إلا محبة فيك وخوفاً على جسمك هذا أن يكون فحمة من فحم جهنم. فقال له السلطان: وهذا هو الظن بك فجزاك الله عني خيراً، انتهى. فاصحب يا أخي من يزداد فيك محبة إذا نصحته وإلا فاتركه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني أشرط على كل أمير صحبني أن لا يتردد إلي إلا لضرورة شرعية، شفقة على نفسي وعليه من التعب واللوث به لأجل تردده إلى مثلي لاسيما الدفاتر. فإن العمال إذا رأوا أحدا منهم يتردد (١٦ب) إلى فقير طلبوا منه أن يسأل الدفتر أن يصير عليه بمال السلطان أو يسامحه ببعضه إذا حصلت له حاجة، فلا يسع[١٥٣] الفقير إلا أن يشفع ولا يسع[١٥٤] الدفتر أن يقبل شفاعة الفقير في مثل ذلك، فإنه معد لتهيئة[١٥٥] مال السلطان والتعجيل بجمعه لينفقه على العساكر في الجهاد وغيره. فيصير الفقير والأمير في محاربة، فتارة يغضب الفقير على الأمير وتارة يغضب الأمير على الفقير. وممن وفى معي بالعهد على قلة التردد من دفاتر مصر محمد وأبو زيد وإبراهيم وحسن، فكان أحدهم يمر على الزاوية فلا يطلع ويقول نحن على العهد. فجزاهم الله تعالى عني خيراً، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أفرح لولاية الأمير الذي يتردد إلي إلا إذا سلمت من تبعات الخلائق وكانت محلولة ليست في يد أحد. وأي فائدة بالفرح لولاية أمير مع كسر خاطر أمير آخر وكلا الأميرين إخوان للفقير في الإسلام؟ ثم إن كان الأمير الذي صحب الفقير صالحاً في دينه فقد تدنس بتلك الولاية، وإن كان غير صالح فقد زاد تدنسه في دينه، فما وجه فرح الفقير؟ وهذا أمر لا يكاد يخلص منه إلا من أحكم مقام الزهد في الدنيا من الفقراء، وإلا فمن لازمه الفرح بولاية أميره شاء أم أبى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لعاقل أن يهنئ (١٧أ) أحداً بتوليته ولاية في هذا الزمان ولو مشيخة تدريس أو نظراً على مسجد، لما في ذلك من شدة التكدير الحاصل له من الطلبة والمستحقين وطلبهم عمل[١٥٦] التفتيش عليه في بيوت الحكام ونحو ذلك إذا تغيروا عليه. قال: ومن شك فليجرب، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أوافق أميري على الدعاء على خصمه، كما مرت الإشارة إليه في هذه الرسالة تخلقاً بأخلاق رسول الله ﷺ. فإنه ما سئل أن يدعوا على أحد بعد أن أنزل الله عز وجل عليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

[١٥٣] أ: يسمع.
[١٥٤] أ: يسمع.
[١٥٥] ب: سعر لتنمية.
[١٥٦] أ: على.

إلا ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١٥٧] إلا وعدك عن[١٥٨] الدعاء عليه ودعاء له بالإصلاح. وقد سألني بعض الأمراء بالله عز وجل أن أدعوا[١٥٩] على خصمه فلم أجبه إلى ذلك، وتوجهت إلى الله تلك الليلة بالدعاء لخصمه بأن الله تعالى يجعله من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، واستحلى لساني ذلك في السجود وحتى مكثت وأنا أكرر ذلك الدعاء نحو عشرين درجة حتى وجدت أثر[١٦٠] الإجابة. وهذا الأمر لا يقدر على العمل به إلا من أحكم مقام الزهد في الدنيا ودار مع مرضات الله لا مع مرضات الخلق وعمل بنحو قوله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١٦١] فإن العدو وإذا صار من أولياء الله عز وجل،[١٦٢] فقد حماه الله تعالى[١٦٣] من أن يستعمله في إيذاء أحد بغير حق[١٦٤] كما مر إيضاحه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني (١٧ب) لا أصحب أميراً إلا بعد أن أوطن نفسي[١٦٥] على القيام بحقه بطريقه الشرعي،[١٦٦] فأحزن لحزنه وأفرح لفرحه وأمرض لمرضه ولا أقرب من عيالي أيام تكديره ولا أتفرج في بستان ولا أضحك ولا ألبس ثوباً مبخراً، إلا بطريق شرعي حتى يزول عنه ذلك الكدر، وأرى ذلك من بعض ما يستحقه علي في صحبته لي. وهذا خلق غريب في هذا الزمان قل من عمل به من الفقراء، بل ربما أكل أحدهم من طعام الأمير ولبس من ثيابه وقبل هداياه، ثم لم يشاركه فيما هو فيه من الهموم والأكدار، بل يجامع زوجته ويضحك ويلعب ويتفرج في البساتين والأنهار وأميره في السجن أو الترسيم ولا يكاد يتذكر له جميلاً. فمثل هذا صحبته للأمير وبال عليه في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.[١٦٧]

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة إلا وأنا في غاية الخجل والحياء من الله ومن ذلك الأمير خوفاً من وقوعي في التلبيس عليه في دعواي الصلاح والولاية. فإن من شرط الصالح والولي الذي يصحب الأمير أن لا تكون[١٦٨] له سريرة سيئة يفتضح بها لا عند الله ولا عند ذلك الأمير، وأي فقير يصدق في دعواه السلامة من مثل ذلك؟ فلا يصلح من فقير أن يصحب أميراً إلا إن كانت صحيفته مطهرة من الذنوب وذلك [ليصير][١٦٩] يدعو للأمير في حصول أغراضه الشرعية، فيجيبه الحق إلى ذلك غالباً، فإن من كان (١٨أ)

الأنبياء، ١٠٧.
ب ج: من.
١٥٩ أ: ادعو.
ج: أشد.
١٦١ المؤمنون، ٩٦ والنساء، ٦.
ب: تعالى.
ب: عز وجل.
«حق» ساقط من ب.
ب: ظنت نفسي، ج: إلا أن بعد وطنت.
ب: بطريقة الشرع.
نهاية الجزء الساقط من د.
د: يكون.
زيادة من ب ج، زيادة في د: بأن.

في صحيفته ذنب واحد[١٧٠] توقفت إجابة دعائه. وإن أقسم على الحق جل وعلا بأن يجيب دعائه قال له لسان حضرة الحق جل وعلا: ما لك لا تفقه القول فإن الحق تعالى كما نهاك فلم تنته وأمرك فلم تمتثل كذلك دعوته أنت فلم يجب دعائك جزاء وفاقاً.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من شدة جهل الفقير أن يصحب أميراً متلطخاً بالذنوب أو يكون هو كذلك غير تائب، فإنه لا يستجاب دعاؤه لذلك الأمير ولا لنفسه. فيتطهر الفقير والأمير من كل ذنب ثم يدخلان في الصحبة، وإلا فهي صحبة لا فائدة فيها، لاسيما إن كان الفقير يأكل من طعام الأمير، فإن دعائه بعيد عن الإجابة لغلبة الشبهة في أطعمة الأمراء، فإن طعامهم الموضوع في سماطهم ربما يكون كله جباية من صعاليك الفلاحين بغير طيبة نفوسهم من دجاج وأوز وغنم وسمن وعسل نحل، كما يعرف ذلك من خالط الأمراء في هذا الزمان. فالعاقل من لم يدخل في صحبة أمير إلا بعد اجتماع الشروط، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا إذا[١٧١] كان يجلني عن إرسال شيء إلي من الهدايا والصدقات. فقد قالوا: من إجلال الأمير للشيخ أن ينزهه عن الأكل من طعامه وعن قبول هديته خوفاً على الفقير من أن يدنس بمثل ذلك فيعدم الأمير النفع (١٨ ب) به. وتقدم أن من علامة تعظيم الأمير للفقير أن لا يرسل له هدية مدة صحبته له من مأكل أو[١٧٢] ملبس أو مركب أو خادم إلا بإذنه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله[١٧٣] يقول: كيف يدعي الأمير تعظيم الفقير وهو يفتقده بالصدقات والهدايا كل قليل كما يفعل مع الشحاذين. إذ لو كان معظماً له لرأى أن الفقير أغنى منه، إما[١٧٤] بالقناعة والعفة وإما بزهد في الدنيا. فإن رسول الله ﷺ يقول: القناعة كنز لا ينفد. وفي حديث آخر: عليكم بالزهد في [الدنيا][١٧٥] والقناعة باليسير من الرزق، فإن قليلها يكفي وكثيرها لا يغني، انتهى. فمن تأمل[١٧٦] في قناعة الفقراء وجدهم أغنى من الأمراء، لأن الفقير قد وقف عن طلب الزيادة في الدنيا والأمير يطلب الزيادة منها غالباً إلى أن يموت.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ما فاق الفقراء على الناس إلا بترك الدنيا اختياراً، وإلا فلو أنهم تركوها اضطراراً لكانوا لا مزية لهم على أبناء الدنيا. ولما أشاع أهل مصر كثرة اعتقاد بعض الباشاة في وصدقتهم علي ذلك لما ظهر لي منه، فعرض علي بعد ذلك أربع مائة دينار على يد خازنداره، فرجعت عن[١٧٧] تصديق الناس في اعتقاده في وعما كنت ظننته فيه وقلت: لو كان صادقاً في الاعتقاد لما أرسل لي شيئاً من الأموال المجمعة من جهات غير مرضية، بل كان ينزه مقامي عن مثل ذلك، كما مرت (١٩ أ) الإشارة إليه في الكتاب. فاعلموا ذلك، والحمد لله رب العالمين.

«واحد» ساقط من ب.
ب: ان.
١٧٢ أ: و.
«رحمه الله» ساقط من ب.
«إما» ساقط من ب.
ساقط من أ.
ب: تفكر.
ب: على.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب من الأمراء إلا من كان يعتقد في كمال الصدق في الزهد في الدنيا. ومتى غلب على ظني أنه يعتقد في إذا عرض علي ماله أني إنما رددته قياماً لناموسي بين الناس لا نفرة[١٧٨] منه في الباطن، لم أصحبه. فلا أصحب إلا من يعتقد في أنني أتكدر غاية التكدر ممن يعرض علي شيئاً من الدنيا، فإنه حينئذ يخاف على خاطري، فلا يرسل إلي شيئاً. وقد جاءني حسن الدفتر بمصر بمائة دينار فقلت له: أعطها لمن هو أحوج إليها مني، فتكدر لذلك وأظهر شدة اعتقاده، فصدقته على ذلك. ثم لما خرج من الزاوية أرسلها ثانياً مع غلامه وقال [له]:[١٧٩] أعطها له فيما بينك وبينه، فإنه ربما رد هذا المال مراعاة لناموسه بين الجماعة الذين كانوا حاضرين عنده. فعلمت بذلك قلة اعتقاده في فرددتها على الغلام وقلت له: شيء لم أقبله من أستاذك كيف أقبله منك؟

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله [تعالى][١٨٠] يقول: لا ينبغي لفقير أن يصحب أميراً إلا إن كان الأمير يعتقد فيه أنه يرى الدنيا في عينه كالجيفة أو العَذِرة التي إذا أمسكها نجست يده ودنست[١٨١] قلبه. وحينئذ فلا يتجرأ الأمير أن يرسل له شيئاً من تلك الجيفة إجلالاً وتعظيماً، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي (١٩ب) أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة والتردد إلي إلا إن غلب على ظني أن ذلك لا يشغلني عن الله عز وجل. فإن غلب على ظني أنه يشغلني عن تسبيحة واحدة أو تهليلة أو تكبيرة فلا أصحبه. وإن كنت دخلت في صحبته قبل ذلك نهيته عن زيارتي لاسيما وقت أورادي التي تجتمع[١٨٢] فيها الإخوان صباحاً ومساء مثلاً. فإن أقبلت[١٨٣] عليه وتركت مناجاة الله وقعت في سوء أدب مع الله، وإن لم أقبل عليه ولم ألتفت إليه فربما تكدر ولو بالجزء البشري.

وقد كان سيدي يوسف العجمي رحمه الله من مذهبه الأخذ من حضرة الله على يد الأمراء وغيرهم. فكان كل أمير أتى إلى زاويته يزوره يقول للبواب: لا تفتح إلا إن كان معه شيء حلال يعطيه للفقراء. فقيل له في ذلك. فقال: أعز ما عند الفقير وقته وأعز ما عند أبناء الدنيا دنياهم،[١٨٤] فإن بذلوا لنا أعز ما عندهم بذلنا لهم أعز ما عندنا لمصلحة الفقراء، وإلا فلا حاجة لنا بزيارتهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: مجالسة الأمراء أضر على الفقير في دينه من السبع الضاري لاشتغاله بها عن أعماله الصالحة غالباً. وليس أحدهم متأهلاً لأن يبث الفقير في قلبه شيئاً من العلوم والأسرار، كما أن الفقير الصادق لا يرغب في شيء من دنيا الأمير لأنه قد زهد في الدنيا خوفاً من الله عز وجل. وهذا الخلق

د: نفرت.
زيادة من ب.
زيادة من ب.
١٨١ أ: دنت.
ب ج: يجمع.
ب: فإني إن أقبلت.
د: عند الأمير الدنيا.

قد عز في هذا الزمان، فقل فقير يصحب أميراً ولا يشغله عن الله. فالأولى عدم (٢٠أ) صحبة الأمراء إلا لغرض شرعي لا تلبيس فيه للنفس، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً يتولى الولايات التي لا خلاص[١٨٥] فيها لذمته[١٨٦] لأن من حقوق الصحبة أن يشارك الصاحب صاحبه في جميع الشدائد الدنيوية والأخروية حتى أنه يتحمل عنه تبعات الخلائق، وهذا أعز من الكبريت الأحمر في هذا الزمان. فإن الفقير لو نظر بعين البصيرة لوجد نفسه لا يقدر على تحمل أوزار نفسه فضلاً عن أوزار غيره.[١٨٧] وقبيح على شيخ يدعي الصلاح أن لا يتحمل عن أميره شيئاً من التبعات. بل كان الشبلي[١٨٨] رحمه الله يقول: من لم يوطن نفسه على أن يدخل النار عن صاحبه إذا استحق دخول النار ويعتقه من دخولها فليس له أن يصحبه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يصحب أميراً إلا بعد أن يوطن نفسه على تحمل جميع البلايا والمحن المتعلقة التي تصيبه لولا تحملها عنه. أما المبرمة فلا يصح له تحملها، وإنما عليه أن يسأل الله تعالى أن يدبره فيها بحسن التدبير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ليحذر الفقير إذا تحمل عن أميره البلايا والمحن المتعلقة أن يرى له فضلاً عليه بذلك بل لا يرى ذلك من بعض حقوق الصحبة. وسمعته يقول: لا يجوز لأمير أن يرى له فضلاً على فقير بما يرسله إلى زاويته من القمح والأرز والعدس وغير ذلك، (٢٠ب) لأن الفقير قد دخل في مبايعته عند صحبته[١٨٩] على تحمل شدائده ولو بالروح، فكيف ينبغي للأمير أن يرى له فضلاً بشيء من الدنيا التي لا تزن عند الله جناح بعوضة، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني أفرح كلما أنكر الأمير ولو بغير حق علي وانقطع عن زيارتي واجتمع على غيري واعتقده أشد الاعتقاد لما في ذلك من المصلحة لديني ولأميري. وقد قالوا: من فرح بتردد أمير إليه فكأنه طلب له نزول البلايا والمحن والمصائب كما هو الغالب في الأمراء إذا ترددوا إلى الفقراء، فإن أحدهم ما دام في عز وقبول كلمة وسلامة من كيد عدو ونحو ذلك لا يتردد إلى الفقير إلا نادراً لغنائه عنه بخلاف ما إذا كان بالضد من ذلك. فمن طلب من الفقراء كثرة تردد أميره إليه فكأنه طلب له في ضمن ذلك نزول البلايا والمحن. وهذا أمر لا يكاد يتنبه له أحد من الفقراء إلا في النادر. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وافرحوا بعدم تردد الأمراء إليكم واسألوا الله أن يسعدهم في الدارين ويبعدهم عنكم، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أدخل في حملة أميري[١٩٠] إذا دارت رحاته شمالاً وتغيرت عليه الأحوال، إلا إن كان تائباً من جميع الذنوب وبلغت العقوبة فيه حدها خلاف ما عليه غالب الناس اليوم. فربما دخل

[١٨٥] ب زيادة: له.
[١٨٦] ب: لنفسه.
[١٨٧] ب: الغير.
د: الشبح.
«عند صحبته» ساقط من ب.
ب: أمير.

أحدهم في تحمل حملة أميره بعد أن (٢١أ) ظلم العباد والبلاد وقتل النفس وشرب الخمر وزنا وأخذ أموال الناس بالباطل وفعل ما لا يحصى من المصائب، والحال أنه غير تائب من هذه الذنوب ولم تبلغ[١٩١] العقوبة فيه حدها، وذلك جهل من الفقير وعصبية مع أميره بالباطل. فليأمر الفقير[١٩٢] الذي يريد أن يتحمل عن أميره[١٩٣] مصيبة نزلت به الأمير بالتوبة النصوح ورد المظالم إلى أهلها والصبر على العقوبة حتى تشرف على الانتهاء، ثم بعد ذلك يدخل في حملته.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا تدخلوا في حملة أمير إلا إن ندم على جميع زلاته وذل لربه كل الذل وانكسر قلبه كل الانكسار. وإلا فدخولكم في حملته وهو على الضد مما ذكرناه[١٩٤] ليس فيه إلا العناء والتعب بخلاف التائب الذليل المنكسر، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا إن غلب على ظني أن الحق[١٩٥] تعالى لا يفضحني عنده بل يستر عيوبي عنه حتى أفارقه بموت أو غيره. وذلك لأن كل فقير اعتقده الأمراء فلا بد له من عدو أو حاسد يتكلم في عرضه ويرميه بالبهتان والزور حتى ينفر ذلك الأمير عنه. إذ القلوب مجلوبة على محبة انفرادها باعتقاد الأمراء فيها[١٩٦] [فلا يكاد يسلم لفقير دوام اعتقاد الأمير فيه][١٩٧] إلا في النادر. وقد استعاذت[١٩٨] الأنبياء وكل[١٩٩] أتباعهم من شماتة الأعداء، ولو بالجزء (٢١ب) البشري في غير الأنبياء، وأما في الأنبياء فتشريعاً لأممهم أو إظهاراً للضعف عن تحمل الفضيحة عند من يعتقدهم. وأين لذة اعتقاد الأمير في الفقير وظنه فيه القطبية والصلاح من مرارة اعتقاده فيه الفسق والنصب وكشف عورته بين الخلائق حتى يصير كالذي كبس بفاحشة؟ فما ذلك الطلوع إلا هذا النزول وقد تطلع نفس الأمير على ذلك الفقير وهو يفعل فاحشة فلا يقبل فيه بعد ذلك تزكية من أحد[٢٠٠] أبداً. فالعاقل من أخذ بالاحتياط لنفسه ولم يظهر لأميره شيئاً من التلبيسات، بل يقول له: لا أصحبك إلا إن كنت لا تفارقني إذا رأيتني على معصية، بل تلازمني وتقوم عوجي وتدعو لي بالتوبة والإصلاح. وقد قالوا: لا ينبغي لعارف أن ينفر عن أعوج ولا مستقيم، أما المستقيم فهو صديق حميم، وأما الأعوج فإذا نفر عنه فمن يقوم عوجه؟ وبلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام لما نفرت نفسه عن عصاة بني إسرائيل غيرة لجناب الحق أوحى الله إليه: يا داود المستقيم لا يحتاج إليك والأعوج قد أنفت نفسك من صحبته ولم تقوم عوجه، فلماذا[٢٠١]

ج: يبلغ.
١٩٢ «وعصبية مع أميره بالباطل. فليأمر الفقير» ساقط من ج.
د: يحتمل أميره.
ب: ذكرنا.
١٩٥ أ د: الله الحق.
ب ج: الأمير فيه، وفي د: الأمير فيها.
ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
ج: استعادت.
١٩٩ «كل» ساقط من د.
٢٠٠ «من أحد» ساقط من د.
٢٠١ أ: فلم ذا.

أرسلت؟ فكان داود بعد ذلك لا يفارق أعوج[٢٠٢] ولا مستقيماً. فعلم أنه كما لا ينبغي للفقير مفارقة الأمير إذا انعوج كذلك الأمير،[٢٠٣] والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني أحفظ غيبة خصم أميري (٢٢أ) وحرمته ومراعاة مقامه في الكمال حسب طاقتي، فلا أقر أميري على ذكره بسوء في وقت من الأوقات، بل أزجره كل الزجر وآمره بأنه لا يذكره إلا بالمحاسن[٢٠٤] وأقول له: كلما تذكره في خصمك من السوء فهو صفاتك أنت. فإن المؤمن مرآة المؤمن[٢٠٥] ولا يرى الإنسان في المرآة إذا نظر فيها إلا صورته لا صورة المرآة.

وسمعت[٢٠٦] سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ليحذر الشيخ الذي يصحب الأمير كل الحذر من أن يسكت على غيبة خصم أميره إذا سمعها إظهاراً للتعصب مع أميره، فإن ذلك فسق ولا يليق بالشيخ أن يكون فاسقاً. قال: وهذا أمر لا يقدر على فعله مع أميره إلا من زهد في الدنيا كل الزهد وتساوى عنده أميره وخصمه في المراعاة، وقل من الفقراء من يصح له ذلك. وسمعته يقول: وربما وقع خصم الأمير الذي صحب الفقير في عرض الفقير وأميره بكلمة غيبة، فصارا يستغيبان ذلك الخصم حتى استوفيا حقهما وتجاوزا[٢٠٧] الحد وصار له الحق عليهما، وهما يظنان أن غيبتهما له بحق، وهو ظن كاذب لأن خصمهما صار مظلوماً بعد أن كان ظالماً، فصار دعاؤه في حقهما لا يرد لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ولو من كافر كما ورد. وسمعته يقول: ليحذر الشيخ الذي يصحب أميراً كل الحذر من أن يظهر محبة النصرة لأميره على عدوه ولو بكتابة حرز يعلق على أميره أو[٢٠٨] بورقة (٢٢ب) يدفنها في عتبة دار خصمه مما جرب لخراب الديار،[٢٠٩] فإن ذلك من جملة السحر وقد ورد: من سحر فقد كفر. وهذا أمر لا يقع فيه إلا من يصحب الأمراء لغير مرضات الله، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة ما دمت أرجح الذهب على التراب في المحبة وأكل الشبهة[٢١٠] لعلمي بأن ما بين يدي معه إلا المقاطعة والفضيحة ولو على طول، فإنه إذا ظهر له مني الرغبة في الدنيا يقول ولو في نفسه: كلانا محب للدنيا فأي تمييز لهذا الشيخ علي؟ بخلاف ما إذا كنت زاهداً في الدنيا أساوي بين التراب والذهب، فإنه ما بيني وبينه إلا المواصلة والسترة إلى أن أفارقه بموت أو غيره إن شاء الله تعالى.

٢٠٢ أ: أعوجا.
٢٠٣ ب ج: لا ينبغي للأمير مفارقة الفقير إذا انعوج كذلك، و«الأمير» ساقط من د.
٢٠٤ أ: بالمجالس.
٢٠٥ «مرآة المؤمن» ساقط من ج.
٢٠٦ أ د: ومما سمعت.
٢٠٧ أ ب ج: تجاوز.
٢٠٨ ب: و.
٢٠٩ أ: الدار.
٢١٠ ب ج: الشبهات.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يجيب أميراً إلى صحبته إلا إن كان ذلك الأمير يعظمه أكثر من تعظيمه لأكابر الأمراء،[٢١١] ربما مات أحدهم على محبة[٢١٢] الدنيا والفقير قد ارتفع عن ذلك من أول ما دخل في الطريق. ومعلوم أن رفع الدرجات عند الله إنما هو بالزهد في الدنيا وشهواتها. وسمعته يقول: من عظم فقيراً دون تعظيمه للسلطان فما عرف قدر الفقير، لأن الفقير إذا زهد في الدنيا كان أعظم مروءة وهمة من غالب ملوك الدنيا لأن أحدهم ربما مات على محبتها.

وقد كان الجنيد يقول لمن جاءه يطلب الطريق: هل (٢٣أ) خدمت الملوك؟ فإن قال: لا، يقول له: اذهب فاخدمهم ثم تعالى، فإن أقل الأدب معنا فوق ما يلزمك في أدب الملوك، انتهى. وسمعته يقول:[٢١٣] من عرف عظمة الطريق وعزة أهلها رأى مقامه فوق مقام الملوك، فغار عليها لله لا لحظ نفسه فلم يصحب إلا من يرفع درجته على الملوك. وليس المذموم إلا من يتكدر ممن يزدريه غافلاً عما ذكرته، نظير ما قالوه في العالم إذا ازدراه أحد فإنه الواجب عليه أن يتكدر ممن ازدراه ويزجره أشد الزجر غيرة لما حمل من العلم لا لحظ نفسه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا إن علمت من نفسي القدرة على مقاطعته ومحاربته وإظهار عداوته إذا تعدى حدود الله، كإن ظلم فلاحاً أو خادماً بغير حق وعرفت أني إذا شفعت فيه لا تقبل شفاعتي لخبث باطنه أو قياماً لناموسه. وهذا خلق غريب قل من يعمل به، بل غالب الفقراء يصحب الأمير للدنيا ويصير يراه يضرب فلاحه ويحبسه ويأخذ ماله ظلماً، ولا يتجرأ يقول له: هذا حرام عليك، لفساد نيته في الأصل. ولو كان صحبه للآخرة والنصح لكان يخافه أشد من خوفه من السلطان كما وقع لي ذلك مع بعض الأمراء، فحلف لي بالله وبالطلاق أنه يخاف مني أكثر من السلطان وصدقته على ذلك. فاعلموا ذلك أيها (٢٣ب) الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني إذا صحبت أميراً لا أعرض له أني من جملة الصالحين أو من أهل الكشف أبداً لغلبة ظني أنني عاجز على المشي على قواعد الصالحين، فأخاف أن أفتضح عنده[٢١٤] ولو على طول.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله[٢١٥] يقول: إياك[٢١٦] أن تتعاطى أسباب الاعتقاد فيك أو الظهور بالمقام على أقرانك، فإنك إن أعطيت ذلك لم تمتع به إلا قليلاً، ثم الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً وعليك بمقام الخفاء حسب طاقتك حتى يظهرك الله ويؤيدك بنصره في جميع أحوالك، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً، انتهى. وسمعته يقول: يحتاج من يصحب الأمير من الفقراء إلى كشف صحيح عن الأمور الواقعة في مستقبل الزمان كولاية أحد أو عزله أو موته، فإن الأمير ربما سأل الشيخ عن ذلك فلم يجده يعرف شيئاً من ذلك فيزدريه في

[٢١١] أ: الأمراء في الهامش. في ب ج زيادة: فإن أكابر الأمراء، د: الأمراء والملوك.
[٢١٢] ج: صحبة.
[٢١٣] «يقول» ساقط من ب.
[٢١٤] ج د: عند أميري.
[٢١٥] ب زيادة: تعالى.
[٢١٦] د: إياكم.

عينه. ولو أنه كان أخبر الأمير أول صحبته له أنه ليس بصالح ولا صاحب كشف لما كان وقع في ازدرائه إذا خالف قواعد الصالحين أو لم يكشف له عن حقيقة ما يسأله عنه من حوادث الزمان، انتهى. وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير أن يطمع في دوام صحبة الأمير له إلا إن كان ذا كشف صحيح وكان له قدرة على الأخذ بيد الأمير في الشدائد وأعطاه الله التصريف في الأمير إذا (٢٤أ) خالفه بتأثير في جسده أو عزل من ولايته. فإن الأمير إذا رأى منه ذلك احترمه ضرورة لاسيما إن تصرف في أعدائه أي[٢١٧] الأمير كذلك بالولاية والعزل أو التأثير بالمرض، فإنه يحترمه ويعظمه ويدوم على صحبته إلى المهات. ومن طلب [تعظيم][٢١٨] أمير له من غير كشف ولا أخذ بيده في الشدائد فقد رام المحال، ما لم يكن الفقير في التصريف بإذن الله أمضى من السيف[٢١٩] في الأمير وأعدائه فهو قليل النفع، فإن الكرامة للولي كالمعجزة للنبي، فمن لم يكن له كرامة فهو عند الناس كأحدهم لا يرون تميزه[٢٢٠] عنهم بشيء.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام[٢٢١] زكريا رحمه الله يقول: إياكم أن تعرضوا للأمير الذي تصحبونه بأن أحدكم من الصالحين أو ذو كشف ولو وثقتم بذلك، فإن العناية الربانية ربما تخلفت عنكم فافتضحتم عند الناس وعند الأمير. وإن وقع أنكم عرضتم لأميركم بذلك فاسألوا الله تعالى أن يستركم في ذلك عنده، ثم لا تطمئنوا حتى يغلب على ظنكم أن الله تعالى أجاب سؤالكم إجابة مبرمة. وسمعته يقول: إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر قبض الله التصريف من غالب الأولياء لكثرة البلايا النازلة على أهل ذلك الزمان ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي إلا إن غلب على ظني أنه ليس في (٢٤ب) سريرتي صفة واحدة يكرهها الله فضلاً عن ظاهري، وذلك لأخرج من إثم التلبيس على الأمير. ومتى علمت أن لي سريرته سيئة فيما بيني وبين الله، لو اطلع عليها الأمير لنفر مني، لم أجيب للصحبة احتياطاً لي عن الوقوع في الإثم وله عن الغش. وهذا خلق قل من يراعيه من الفقراء الذين يصحبون الأمراء. ولذلك قلت صحبة العقلاء من الفقراء للأمراء، فلا تكاد تجد لأحدهم صاحباً من الأمراء وإنما يصحبهم من في عقله نقص.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على من يريد صحبة أمير أن لا يكون مرتكباً ذنباً فيما بينه وبين الله ليطابق ما يعتقده الأمير فيه وليصير يقدر على تحمل حملته في[٢٢٢] الشدائد. فإن من عليه ذنب ليس هو بأهل أن يشفع في نفسه[٢٢٣] عند الله فضلاً عن غيره. وسمعته يقول: من صحب أميراً بقصد الشفاعة عنده في المظلومين وجب عليه التحفظ من الوقوع في الذنوب أكثر من غيره، فإن مقام الشفاعة يجل عن وقوع صاحبه

[٢١٧] «أي» ساقط من ب ج.
[٢١٨] زيادة من ب ج.
[٢١٩] «ما لم يكن الفقير في التصريف بإذن الله أمضى من السيف» ساقط من ب.
[٢٢٠] د: تمييزه.
[٢٢١] في ب زيادة: يقول.
[٢٢٢] د: من.
[٢٢٣] «في نفسه» ساقط من د.

في شيء من الرذائل لأنه مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأصالة. وأما اعتذار بعض الأنبياء يوم القيامة حين يسألون في فتح باب الشفاعة فليس ذلك عن[٢٢٤] ذنب حقيقة، وإنما هو توطئة وبيان لعلو مقام محمد ﷺ عليهم في ذلك اليوم العظيم حين علموا أنه (٢٥أ) ﷺ أول من يفتح باب الشفاعة. وقد كررنا مراراً أن جميع ذنوب الأنبياء التي في القرآن وغيره صورية لا حقيقية أجرى الله صورتها على أيديهم ليعلموا أممهم كيفية التوبة والتنصل من الذنوب الحقيقية إذا وقعوا فيها لا غير. وإلا فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يخرجون من مقام الإيقان[٢٢٥] الشهودي فضلاً عن مقام الإحسان، ومن هو كذلك لا يصح منه الوقوع في ذنب حقيقي، بل الذنب نفسه ينفر من النبي كما تنفر[٢٢٦] الظلمة من النور لعلم الذنب بأنه لا محل له في ذات النبي حتى يتصل به، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب من الأمراء إلا من كان كامل الاعتقاد في إلا على وجه المصلحة له ولي بحيث يجل مقامي عن أنه يرسل لي هدية في وقت من الأوقات كما مرت الإشارة إليه. وقد قالوا: من علامة كمال إجلال الأمير للشيخ أن يرى أنه وعياله من جملة عيال الشيخ ويقبح على أحد من العيال أنه يأخذ من مال من يعوله شيئاً ثم يرسله إليه. إنما يصلح الإرسال ممن يرى له ملكاً مع الشيخ من الأمراء الذين لم يكمل اعتقادهم، فكل أمير ادعى كمال الاعتقاد في فقير ثم أرسل إليه هدية من مأكول أو ملبوس أو مركوب أو خادم أو غير ذلك، فهو علامة على قلة (٢٥ب) اعتقاده،[٢٢٧] خلاف ما يفعله غالب الفقراء الذين يصحبون الأمراء، اللهم إلا إن يطلب الشيخ شيئاً من ذلك، فلا بأس وكأنه يستخدم الأمير في أن يناوله[٢٢٨] شيئاً من ماله هو. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي إلا إن غلب على ظني أنه يعتقد في كمال العقل والزهد في الدنيا والآخرة،[٢٢٩] وأني أرى أخذها ينجس[٢٣٠] ذاتي. ومتى لم يكن الأمير كذلك لا أصحبه، ولو حلف بالله وبالطلاق أنه يحبني أشد المحبة ويعظمني أشد التعظيم بحسب ما عنده هو. وكيف أصدقه على اعتقاده في الصلاح وهو يعتقد أني أحب الدنيا وشهواتها قياساً على نفسه وغيره من العوام؟ فإن من شروط الصالح أن يزهد في الدنيا وشهواتها من أول قدم يضعه في طريق القوم، ويصير يتقذرها كما يتقذر الجيفة ويبعد عنها كما يبعد من[٢٣١] السم والشوك. و[من][٢٣٢] هو كذلك كيف يصح منه أن يصحب أحداً أو يحبه لأجلها؟ هذا أبعد من بعيد. وقد بان لك بذلك قلة اعتقاد الأمير في الشيخ إذا أرسل له شيئاً من الدنيا، لأنه لو كان يعتقد فيه

[٢٢٤] ج: من.
[٢٢٥] ج: الإتيان.
[٢٢٦] ج: ينفر.
[٢٢٧] ج: الاعتقاد.
[٢٢٨] ب ج: يناله.
[٢٢٩] «والآخرة» ساقط من ج د.
[٢٣٠] ج: بنجس.
[٢٣١] لعل المقصود: عن.
[٢٣٢] زيادة من ب ج.

أنه فطم عنها ولم يبق عنده داعية لمحبتها بما زاد على الجزء البشري لما أرسل إليه، بل يرى (٢٦أ) ذلك كالعبث نظير الشيخ الذي طعن في السن لا يؤمر بالرضاع من الثدي لعدم وجود داعية عنده إلى[٢٣٣] ذلك. فاعلموا ذلك،[٢٣٤] والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة إلا بعد أن أوطن[٢٣٥] نفسي على مشاركته في جميع الشدائد في الدنيا والآخرة على وجه التأكيد، كما مرت الإشارة إليه. وإن لم تطيب[٢٣٦] نفسي بذلك لا أصحبه خوفاً من الإخلال بحقه.[٢٣٧]

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من لم يعرف من نفسه القدرة على مشاركة الأمير في جميع همومه [وغمومه][٢٣٨] ويعزم على مشاركته في جميع الشدائد والأهوال التي تقع له في الآخرة حتى يجاوز الصراط، فليس له أن يصحبه. وسمعته يقول: من لم يعرف من نفسه القدرة على ملاحظة أميره في جميع ما يقع[٢٣٩] فيه من المعاصي المعلقة على ملاحظته حتى لا يقع،[٢٤٠] ويلاحظه في [جميع][٢٤١] أحكامه بين رعيته حتى لا يزيغ[٢٤٢] عن الحق، ويحضره عند طلوع روحه حتى تطلع على الإسلام، وعند سؤال منكر ونكير حتى يجيبهما على الصواب، وعند الميزان [حتى يرجح وعند الصراط][٢٤٣] حتى لا يقع في النار، فليس له أن يصحبه. وسمعته يقول: من لم يعزم على مشاركة أميره في جميع العقوبات التي تصيبه في حياته وبعد مماته إذا عجز عن تحملها كلها (٢٦ب) عنه، فليس له أن يصحبه. وهذا أمر قد صار في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر يتحدث به ولا يرى، فالعاقل من لم يصحب أميراً قدر على صرفه عنه بحيلة من الحيل، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً للصحبة وأنا عازم على الأكل من طعامه أو اللبس من ملبوسه أو الركوب من مركوبه أو نحوه لك، لعلمي بأني إذا فعلت ذلك بطل نفعي له وضرني وضره وكان [ذلك][٢٤٤] سبباً في عدم إجابة دعائي له في الشدائد. فليحذر الأمير من أن يعزم على الفقير في الأكل من طعامه، فإن ذلك أول ما يضره هو.

[٢٣٣] أ د زيادة: غير.
[٢٣٤] في د زيادة: أيها الإخوان.
[٢٣٥] ج: أظن.
[٢٣٦] أ: وأن تطلب.
[٢٣٧] ب: بذلك.
[٢٣٨] ساقط من أ د.
[٢٣٩] د زيادة: له.
[٢٤٠] ب: تقع.
[٢٤١] زيادة من ج.
[٢٤٢] أ: لا يرفع، وفي ج: لا يزيع.
[٢٤٣] ما بين المعقوفتين ساقط من أ.
[٢٤٤] زيادة من ب ج.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى[٢٤٥] يقول: غالب الأمراء الذين يصحبون الفقراء جاهلون بأحوال الفقراء، فربما عزموا على الفقير بأن يأكل من طعامهم أو يلبس من لباسهم وقصدوا[٢٤٦] بذلك صدق المحبة له وغفلوا عن كون ذلك يضره ويضرهم، فيجب على الفقير أن يعلم الأمير بمثل ذلك ويقول له: إن كنت تطعمنا طعامك فلا تعيب علينا بعد ذلك في عدم تحملنا حملتك وعدم إجابة دعائنا لك. فاختر إما تمنعنا من طعامك وإما أنك لا تطالبنا بمساعدتك في شيء من الشدائد التي تنزل بك، لاسيما وغالب أطعمة الأمراء لا تسلم (٢٧أ) من دخول[٢٤٧] الشبهة فيها لخبث موادها، كما مرت الإشارة إليه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا يقدر على نصح الأمير بعد الأكل من طعامه إلا أكابر الأولياء، وأما غالب الناس فربما منعه الحياء الطبيعي من الأمير حين أكل طعامه أن ينصحه، فلا يكاد يرى تأكد[٢٤٨] النصح عليه للأمير بعد أكله من طعامه الحلال إلا أفراد من الفقراء. فالأولى عدم إجابة الأمير للصحبة إذا لم يكن الفقير عازماً على ترك الأكل من طعامه والسلام.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أعد الأمير الذي يصحبني بحصول[٢٤٩] شيء من الوظائف التي يطلبها في مستقبل الزمان، ولو كان مطمح[٢٥٠] بصري اللوح المحفوظ. فقد يكون ذلك اللوح مما يقيمه إبليس لغير المعصومين ليفتنهم في دينهم ويفضحهم بين [الناس][٢٥١] ويكتب فيه أموراً لا حقيقة لها ليسخر بالفقير الذي ينظر فيها ويضحك عليه إذا أخبر بها الناس. وقد ذكر الغزالي وغيره أن الله تعالى مكن إبليس في مقام التلبيس والفتنة حتى أنه إذا رأى قلب الفقير يأخذ عن العماء الذي فوق العرش أقام[٢٥٢] له عماء أو من العرش أقام له عرشاً أو من الكرسي أقام له كرسياً[٢٥٣] أو من السدرة أقام له سدرة وهكذا، [فإن أيد الله تعالى العبد أعطاه][٢٥٤] الفرقان بين الأمور الحقيقة والمتخيلة، وإلا وقع[٢٥٥] في الباطل ولا شعر، انتهى. فليحذر (٢٧ب) الفقير من قوله لأميره لا بد من ولايتك الوظيفة الفلانية أو لا بد من عزل عدوك أو هلاكه في الوقت الفلاني، فإن ذلك جهل وغرور وعلامة على أنه دائر مع مرضات الأمير لأجل الدنيا وأنه من إخوان الشياطين.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول نقلاً عن سيدي عبد القادر الجيلي: لا ينبغي لفقير أن يخبر الناس بما اطلع عليه في اللوح المحفوظ فضلاً عن ألواح المحو والإثبات، فقد يكون اللوح الذي رآه مما أقامه

[٢٤٥] «تعالى» ساقط من ب ج د.
[٢٤٦] ب: قصد.
[٢٤٧] «دخول» ساقط من ب.
[٢٤٨] د: تأكيد.
[٢٤٩] ج: بحضور.
[٢٥٠] ب: يطمح.
[٢٥١] بياض في أ، و«بين الناس» ساقط من د، والزيادة من ب ج.
[٢٥٢] ب ج: أو قام.
[٢٥٣] أ: شيئا.
[٢٥٤] أ: بأن الله تعالى أعطى العبد، والتصويب من ج د.
[٢٥٥] أ: قطع.

له إبليس. بل يجب عليه كتمان ذلك والتمهل حتى يظهر ذلك في الوجود لكل[٢٥٦] الناس خوفاً أن لا يقع[٢٥٧] ذلك الأمر الذي أخبر به، فيسخر الناس به ويسوء ظنهم بأهل الطريق. قال: وهذا ما درج عليه كمل الأولياء فالعاقل من اقتدى بهم في ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة إذا غلب على ظني أنه إنما يصحبني لأتحمل حملته في الشدائد، اللهم إلا إن كان ممن يحضر المواكب الإلهية فلا لوم علي في صحبته إن شاء الله تعالى. وذلك لأن من لا يحضرها ربما غضب الله عليه فعزله من وظائفه وقطع عليه الأمداد الإلهية كما يقع للجند الذين يعكسون مواكب الملوك في الأرض ولله المثل الأعلى. وفي الحديث أن شخصاً (٢٨أ) قال: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة؟ فقال: أعني على نفسك بكثرة السجود، انتهى. فكل فقير صحب أميراً لا يحضر المواكب الإلهية فقد كلف نفسه شططاً في حمله[٢٥٨] ذلك الأمير، لاسيما إن كان ذلك الأمير يعصي ربه في وقت تحمل الفقير حملته بشرب خمر أو زنا أو لواط أو ظلم العباد كحبسه[٢٥٩] فلاحاً ظلماً أو نحو ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من سخافة عقل الفقير صحبته لأمير يقع في المعاصي ولا يهتدي للتوبة منها، فإن الفقير لا يسعه أن يتخلف عنه في الشدائد والأمير لا يستحق مساعدته إلا إن كان تائباً من جميع المعاصي. فحينئذ يرجى للفقير قبول شفاعته فيه عند الله بخلاف المصر على شيء من المعاصي والمعكس[٢٦٠] في حضور المواكب الإلهية، فيا طول تعب الفقير الذي يصحب مثل هذا ويا خيبة سعيه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني ربما أتوجه إلى الله عز وجل في عزل الأمير الذي صحبني إذا تعوج[٢٦١] عن طريق الاستقامة اللائقة بمثله ولم يسمع نصحي ولا صبر على تقويمي لعوجه، أو في أن الله يتوب عليه أو يميته كل ذلك مني محبة له وشفقة عليه من ارتكاب الآثام التي تسخط ربه عز وجل. (٢٨ب) ومتى أحببت بقائه على عوجه ولم أتوجه فيما ذكر فقد غششته وغششت نفسي وأخليت بواجب حقه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله[٢٦٢] يقول: ينبغي للفقير إذا صحب أميراً ظالماً لم يسمع لنصحه أن لا يتوجه إلى الله[٢٦٣] عز وجل في عزله مثلاً إلا بعد مشاورته لأصحاب النوبة الذين ولوه في تلك الوظيفة أدباً معهم، لكون جميع ولايات[٢٦٤] الجور والمكوس ونحوها إنما هي واقعة على يديهم لكونهم ملحقين بالمجاذيب، بخلاف الصحاة من المتشرعين، فإن أحدهم لا يساعد أميراً [على شيء][٢٦٥] من وظائف الظلم بشعرة واحدة من

[٢٥٦] ساقط من ج، وهناك بياض.
[٢٥٧] ج: تقع.
[٢٥٨] ب: حملة، وفي د: من حمله.
[٢٥٩] ب ج: حسبة.
[٢٦٠] ب: العكس.
[٢٦١] أ: انعوج.
[٢٦٢] في ب زيادة: تعالى.
[٢٦٣] في ب زيادة: تعالى.
[٢٦٤] ج: ولاة.
[٢٦٥] زيادة من ب ج.

جسده. وقد تساهل بعض إخواننا فيها قلناه فتوجه إلى الله في عزل أمير ولاه أصحاب النوبة بإذن الله فأزمنوه وأعموا بصره وأصموا أذنه وصار كذلك حتى مات. فالعاقل من سمع النصح ولم يدخل في طريق لا يعرف عاقبتها والسلام.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول:[٢٦٦] إياكم أن تتشبهوا بأرباب الأحوال فتساعدوا أحداً على توليته ولاية لا خلاص له فيها، فتأثموا وتكونوا شركاء له في الإثم الذي يلحقه. بخلاف أرباب الأحوال فإن أحدهم يولي[٢٦٧] الظلمة من المكاسين وغيرهم بإذن الله تعالى، [وتحمى نفسه من التعبات ثم يشفع في ذلك الظالم عند الله بأن الله تعالى][٢٦٨] يغفر له ويرضي عنه سائر أصحاب التبعات، (٢٩أ) فيفعل له ذلك إن شاء الله. وبعضهم يجلس في حانات بنات خطأ وشربة[٢٦٩] الخمر فيشفع في كل زانٍ أو زانية وكل شارب خمر وبائعه فيقبل الله شفاعته بإمارات يعرفها. ويسمى هؤلاء رجال الرحمة الذين لولاهم لخسف الله تعالى بالعصاة ومسخ صورهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل فقير لم يعطه الله تعالى التصريف في أمراء الجور بالعزل والتكسيح والعمى ونحو ذلك، فليس له أن يصحب أحداً منهم لكون ذلك بمنزلة من يحضر مواضع المعاصي ولا ينكر على أهلها. وسمعته يقول: لا تصحبوا أميراً يظلم رعيته إلا إن أعطاكم الله تعالى التصرف فيه بالعزل وغيره لتؤدبوه وتمنعوه من الأذى لاسيما إن كان يظلم أصحابكم، فإن الفقير لا يؤمر بالصبر إلا على من ظلمه هو، بخلاف من ظلم إخوانه، فإنه يتعين عليه كف ذلك الظالم عنهم لأنهم ما صحبوه إلا ليحميهم من الآفات التي تصيبهم في الدنيا والآخرة، فليحق[٢٧٠] ظنهم الصالح فيه. وكان سيدي إبراهيم الجعبري المدفون بزاويته خارج باب النصر رحمه الله يقول: كل فقير لا يقتل من الظلمة عدد شعر رأسه بإذن الله تعالى[٢٧١] فما وفى الجهاد حقه، وذلك لأن الوجود لا يخلو من وجود من يظلم العباد فيه ليلاً ونهاراً في سائر أقطار الأرض، فكل (٢٩ب) ظالم علم به استأذن الحق جل وعلا في تأديبه بالطريق الشرعي وأدبه بالقتل وغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي وهو يرمي[٢٧٢] البضائع على الناس فيخسرون فيها، إلا إذا علمت منه قبول شفاعتي في أنه لا يرمي على أحد شيئاً من ذلك، فحينئذ أصحبه لمنافع الناس[٢٧٣] وصيانة له عن الإثم. وهذا أمر يتساهل فيه غالب الفقراء الذين يقبلون من أمراء الجور البر والإحسان فيصحبونهم ثم يجيبون عنهم ويحملونهم على محامل لا تقبلها العقول الصحيحة، فيصير الناس يسخرون بهم كما شهدت ذلك أنا[٢٧٤] فيمن يصحب الكشاف وشيوخ العرب الذين يظلمون العباد والبلاد. وفي كلام عمر بن عبد العزيز:

[٢٦٦] «يقول» ساقط من ب.
[٢٦٧] ج: مولى، د: تولى.
[٢٦٨] زيادة من ب ج.
[٢٦٩] ب: شرب.
[٢٧٠] ج: يحق.
[٢٧١] «تعالى» ساقط من ب د.
[٢٧٢] ج: يرى.
[٢٧٣] «لمنافع الناس» ساقط من ب.
[٢٧٤] ب: أنا ذلك.

إياكم أن تصحبوا أحداً من أمراء الجور وأنتم تحبون الدنيا بنية نصحكم له،[٢٧٥] فإن أمراء الجور لا تنضبط على قبول النصح فبعدكم عن صحبتهم أولى لكم والسلام، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تصحبوا ظالماً وتطلبوا حمايته من قبول دعاء المظلومين فيه، فإن ذلك لا يصح لكم لأن دعوة [المظلوم][٢٧٦] مستجابة ولو من كافر كما ورد، على أن حماية الفقير للظالم في الأمور المعلقة قد عزت لأن من شرطها أن يكون طعام الفقير (٣٠أ) وملبسه حلالاً وأن لا يكون عليه ذنب من الذنوب. وهذا أعز من الكبريت الأحمر في هذا الزمان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب للصحبة أحداً من الأمراء إلا إذا علمت من نفسي القدرة على المنع من أكل طعامه أو قبول هداياه، لاسيما إن كنت أخاف عليه من تهوره في[٢٧٧] ظلم العباد بواسطة من استغربه من الولاة الذين ولوه، [لأن الأحوال ربما تغيرت وعزل الولاة الذين ولوه][٢٧٨] واستغربهم أو ماتوا [و][٢٧٩]وقع التفتيش عليه وطلب كتابة محضر ليشهد الناس فيه بعدله وعدم ظلمه، فقدموا إلي ذلك المحضر لأكتب فيه فأصير [في حيرة][٢٨٠] بين الكتابة وعدمها. وكيف أمتنع من الكتابة والشهادة فيه بالخير بعد أن أكلت طعامه وقبلت هداياه؟ هذا من أصعب شيء يكون. و[لو][٢٨١] أني كنت لم أذق له طعاماً ولم أقبل له هدية لما وقفت[٢٨٢] في الحيرة. وقد صار هذا الأمير واقعاً في الدفاتر وقضاة العساكر والباشاة فربما أعطى أحدهم الفقير[٢٨٣] نقداً أو ثياباً أو طعاماً أو[٢٨٤] رتب له مرتباً فأخذه، ثم بعد عدة أيام أرسلوا له المحضر ليكتب فيه حين اشتكت الرعية منه[٢٨٥] فإن كتب عليه قامت القيامة عليه من العوام (٣٠ب) ومزقوا عرضه في الآفاق، وإن امتنع من الكتابة قال له الولاة: كيف تأكل أموالنا مع علمك بدخول الشبهة فيها وتتورع عن تزكيتك لنا؟ ويصيرون يسخرون به في المجالس بخلاف من حماه الله تعالى عن أموالهم جملة، فإن الله تعالى يحميه من كيدهم ولو تكدروا منه في الظاهر فهم يعظمونه في الباطن لخوفه على دينه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا إن غلب على ظني الحفظ من ذلي له لأجل عرض من الدنيا مدة صحبتي له، خلاف ما يقع فيه بعضهم من صحبته[٢٨٦] للأمراء بنية أن أحدهم يساعده على شيء من أغراضه الدنيوية، كنظره على مسجد أو مشيخة تدريس علم أو خطابة أو إمامة أو حماية مركبه أو دوابه من

[٢٧٥] «له» ساقط من ب.
[٢٧٦] زيادة من ب ج، وفي د: دعوته.
[٢٧٧] د: من.
[٢٧٨] ما بين المعقوفتين ساقط من د.
[٢٧٩] زيادة من د.
[٢٨٠] ساقط من أ.
[٢٨١] زيادة من ج د.
[٢٨٢] ج د: وقعت.
[٢٨٣] ج: لفقير.
[٢٨٤] في د زيادة: رتب له ثياباً أو طعاماً.
[٢٨٥] ب: حين اشتكت الرعية منه بأن يكتب عليه.
[٢٨٦] أ د: صحبتهم، والتصويب من ب ج.

تسخير الولاة لها ونحو ذلك. فإن لم أعلم من نفسي الحفظ من الذل له لأجل شيء مما ذكر لم أصحبه. وهذا أمر لا يصح إلا لمن أحكم الزهد في الدنيا وشهواتها، بحيث ينقبض من حصولها وينشرح لذهابها ويحب كل عدو عارضه في تحصيلها أكثر من محبته لصديقه الذي ساعده في تحصيلها، وهو أمر أعز من الكبريت الأحمر في غالب أهل هذا الزمان. فإن الحرية من رق الدنيا وشهواتها لا يكون إلا لأفراد من الكمل، (٣١أ) حتى كان الجنيد رحمه الله يقول: لو صحت صلاة بغير القرآن لصحت بهذا البيت، وهو قول بعضهم:

أَتَمَنى عَلَى الزمَانِ مُحَالاً   أَنْ تَرَى مُقْلَتَاي طَلْعَةَ حُر

أي حر من رق الأغيار.[٢٨٧] وسئل مرة عن من زهد في الدنيا حتى لم يبق عليه منها إلا مقدار فص نواة فقال رضي الله عنه: المكاتب قن ما بقي عليه درهم.

وحكي عن سيدي ياقوت العرشي رحمه الله أنه قال: رأيت صبياً يطلب من صبي آخر كسوة هي معه. فقال: تعمل كلبي وأنا أعطيها لك؟ فقال: نعم فأعطاها له وجعل في عنقه حبلاً وصار يجره به كالجرو. فاعتبرت بذلك وقلت: لو أن هذا الصبي زهد في الكسوة لم يقدر صاحب الكسوة على أن يجعله كلبه. قال: وجعت مرة فطلبت رغيفاً من شخص. فقال: إني خرجت به على اسم ذلك الكلب فاصبر[٢٨٨] حتى أعرضه عليه.[٢٨٩] فلم يلتفت الكلب إليه. فقلت لنفسي: أف على من كان الكلب أزهد في الطعام منه وأصبر على الجوع، انتهى. فالعاقل من اعتبر، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً إلا إن تحققت من نفسي الصدق في طلب صحبته لله كشفاً ويقيناً لا ظناً وتخميناً، فإن النفس من شأنها (٣١ب) التلبيس على صاحبها [فربما][٢٩٠] زينت له أنه صادق في صحبة ذلك الأمير وأنه ما صحبه إلا لله والحال بخلاف ذلك، فليفتش الناصح لنفسه[٢٩١] باطنه كل التفتيش قبل دخوله في صحبته أمير. فإن للنفس دسائس قد تخفى على كثير من العلماء العاملين فضلاً عن غيرهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يسلم لنفسه ما تدعيه من الصدق في شيء من أحواله كلها، بل من الحزم اتهامها في كل ما تدعيه لاسيما صحبتها للأمراء، فإن من شأنها التلذذ بمجالسة الأكابر من الملوك فمن دونهم. وربما ادعت الصدق في محبة الأمير العادل لأجل عدله، والحال أنها إنما تحبه لذكر محاسنها في المجالس حتى انقاد إليه غالب الأمراء مثلاً. فليمتحن العبد صدق نفسه بما إذا كان ذلك الأمير العادل لا يعتقدها بل يذمها وينفر الناس عنها، فإن أحبه مع ذلك فهو يحبه لله أو لعدله لا لأجل مدحه له، وإن تكدرت منه شعرة بما زاد على الجزء البشري لأجل ذلك فهو كاذب في دعواه محبة الأمير لله أو لعدله، لأنه لو كان الباعث على محبته مجرد العدل فقط، لم يتكدر فإن العدل قائم به ما زال. وهذه ميزان تطيش على الذر.

[٢٨٧] ب: أي حر من رق الأغيار الذين رقها غيار.
[٢٨٨] ب ج زيادة: علي.
[٢٨٩] ب د زيادة: فاعرضه عليه.
[٢٩٠] ساقط من أ.
[٢٩١] أ: نفسه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الفقير في صحبة الأمير العادل لله أن يحبه كل المحبة ولو كان (٣٢أ) من أشد المنكرين عليه المبغضين له، فيفني بغض[٢٩٢] الأمير له وشدة إنكاره عليه في حصول المصالح للعباد بعدل[٢٩٣] ذلك الأمير. كما أن من علامة صدقه إذا كان الأمير ظالماً ولكنه يحب الفقير ويعتقده أشد الاعتقاد ويكرمه كل الإكرام أن يبغضه ويذمه وينفي محبة الأمير له وإكرامه له في ظلمه للعباد، فلا يكاد يحبه بشعرة واحدة من جسده، انتهى. وهي ميزان تطيش على الذر أيضاً لا يقدر على الوزن بها إلا من كان دائراً[٢٩٤] مع مرضات الله[٢٩٥] تعالى لا مع أغراض نفسه. وتقدم في الكتاب أن كل فقير تكدر من أميره إذا انقطع عن زيارته وأنكر عليه واجتمع على أحد من أقرانه، فهو علامة على صحبة ذلك الأمير لغير الله، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً ولا غيره من الكشاف ومشايخ العرب إلى الصحبة إذا سألني فيها، إلا بعد أن آخذ عليه العهد بأنه متى ظلم أحداً من رعيته من فلاح أو غيره خرجت عن صحبته. فإن دخل على هذا الشرط صحبته، وإلا طردته عني بحسن عبارة.

وسمعت مولانا شيخ [الإسلام][٢٩٦] زكريا رحمه الله يقول: ينبغي للفقير أن لا يجيب أميراً إلى صحبته إلا بعد أن يأخذ عليه العهد بأنه متى ظلم أحداً من العباد، ولو في تسخيره[٢٩٧] ساعة في حرث أو حصاد (٣٢ب) أو بناء أو حمل شيء بغير طيبة نفس، توجه إلى الله عز وجل في عزله وأخذ حق ذلك المظلوم منه ولو بالحبس الطويل والضرب الشديد. فإن دخل الأمير على ذلك فيجيبه إلى الصحبة، وإلا فليتركه ويدفعه عنه بحسن عبارة.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إذا أردتم معرفة صدق الأمير في صحبتكم وأنه يدخل تحت طاعتكم فامدحوا عدوه بحضرته وادعوا له بدوام العز والتأييد وإصلاح الحال، فإن انشرح لذلك فهو صادق معكم في الصحبة، وإلا فلا يخفى حاله، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أشفع عند أميري في شخص حبس أو ضرب إلا بعد أن يتبين لي أنه مظلوم أو أنه ظالم وأشرفت العقوبة فيه على الانتهاء. وقل فقير يتفطن لمثل ذلك بل يشفع عند الباشاة أو غيره بمجرد قول المحبوس أو المظلوم مثلاً: أنا مظلوم، ثم يغلظ القول على ذلك الأمير وذلك تهور. فإن الأمير ربما أقام بينة عادلة على أن ذلك المحبوس أو المضروب ظالم فيخجل المضروب والفقير. ومن هنا كنت أكاتب الولاة في حق المحبوس[٢٩٨] عندهم بقولي: إن كان فلان مظلوماً أو ظالماً وبلغت العقوبة فيه حدها فشفعونا فيه، (٣٣أ) وإلا فنحن معكم عليه حتى يتوب وينزجر، فلا يحصل لي منهم خجل بما يفعلون في ذلك المحبوس لاتفاقي

[٢٩٢] ج: بعض.
[٢٩٣] أ: بعد.
[٢٩٤] أ: دائر.
[٢٩٥] ب ج: الحق.
[٢٩٦] زيادة من ب ج.
[٢٩٧] د: تسخيرة.
[٢٩٨] ب ج: المحبوسين.

أنا وإياهم على الحق. فعلم أنه لا ينبغي لفقير الشفاعة بمجرد تظلم المحبوس وقول أهله إنه مظلوم لأنه إذا تبين[٢٩٩] خطاؤه في الشفاعة سقط اعتباره عند الولاة وجعلوه مغفلاً، فلا يكاد أحد[٣٠٠] منهم يعتمد على شفاعته ولا يقبلها بعد ذلك. وقد جاءني جماعة من طلبة العلم يسألوني الشفاعة في شخص جرائحي عند الأمير ماماي وقالوا: إن جماعة الأمير مسكوه ظلماً حين كبسوا على المفسدين، فتوقفت في ذلك فحلفوا لي بالله أنه مظلوم. فكتبت له كتاباً من جملته: إن فلاناً وفلاناً وفلاناً شهدوا عندي أنه مظلوم وحلفوا لي بالله على ذلك، فإن كانوا صادقين فشفعونا فيه وإن كانوا غير صادقين فنحن معكم عليه حتى تبلغ العقوبة الشرعية فيه حدها. فلما قرئ[٣٠١] الكتاب عليه قال: هذا من نور قلب فلان ثم أخرجه من الحبس وقال له: أما اعترفت عند الباشاة بأنك رأس المنسر؟ فقال: نعم. فقال له: أما طلعت أسباب الناس من كذا كذا بلد عندك؟ فقال: نعم. فقال الأمير لهم: فأين شهادتكم عند فلان بأنه مظلوم؟ فخجلوا وفُضحوا.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: (٣٣ب) إياكم أن تشفعوا في أحد عند الأمراء إلا وأنتم على بصيرة من أمره ليلا تسفهوا[٣٠٢] قولكم وعقلكم. فقل أمير يحبس أحداً إلا بعد شهادة أحد فيه بالسوء عنده ولو زوراً في نفس الأمر، فيصير ظاهر الشريعة معه وليس معكم أنتم شيء يعارض ذلك، انتهى. ومن هنا كنت لا أشفع عند أمير في محبوس إلا بعد توجهي إلى الله عز وجل أن يشرح صدري للشفاعة فيه إن كان مظلوماً أو يقبض قلبي عن الشفاعة فيه إن كان ظالماً، وأنا على ذلك إلى اليوم بخلاف[٣٠٣] ما عليه بعض من يحب الدنيا ويأخذ الجعالة على الشفاعة ولا يلتفت لكونها حراماً. وقد وقع لبعض العلماء أنه طلع إلى الباشاة سليمان يشفع في عامل نصراني وقال: إن رسول الله ﷺ قد نهى عن ظلم أهل الذمة وقال: من ظلم ذمياً كنت حجيجه يوم القيامة. فقال الباشاة: احضروا هذا النصراني من الحبس. فلما حضر قال له الباشاة: ما عندك من مال السلطان؟ فقال: سبعة أكياس. فقال له الباشاة: بعلم؟[٣٠٤] فقال: بعلم. فقال: قل هذا لسيدي الشيخ الذي جعلنا ظالمين بحبسك. فخجل الشيخ وما درى ما يقول وكان بطنه كبيراً، فلما ولى قال الباشاة لجلسائه: (٣٤أ) قد ورد أن الله يكره الحبر السمين أي العالم السمين وذلك لقلة ورعه، فإنه لو تورع لما وجد شيئاً يسمنه غالباً حتى صار كالدب،[٣٠٥] انتهى. فالعاقل من اعتبر بمثل ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا علمتم بمظلوم عند أمير بغير حق فاشفعوا فيه، ولو لم تبلغ العقوبة التي أرادها الأمير فيه حدها، بخلاف ما إذا كان ظالماً فإنه لا ينبغي لكم أن تشفعوا فيه إلا بعد أن

[٢٩٩] د: تعين.
[٣٠٠] «أحد» ساقط من ب.
[٣٠١] أ د: قرأ.
[٣٠٢] د: يسفهوا.
[٣٠٣] ب: خلاف.
[٣٠٤] أ: يعلم.
[٣٠٥] د: كالذب.

تأخذ [العقوبة الشرعية][٣٠٦] فيه حدها. وذلك إذا أمسك الوالي[٣٠٧] شخصاً قد رآه يراود جارية من جواريه[٣٠٨] عن نفسها وأراد أن يؤدبه وقد كاد يتميز من الغيظ، وإن من العقل أن لا يشفع أحد فيه في[٣٠٩] أول ضربة أو ضربتين، بل يتمهل حتى يغلب على ظنه أن التأديب فيه بلغ حده. ولو أن عالماً شفع فيه قبل ذلك لربما لم يسمع منه الوالي وسفه قوله، فيحتاج الشافع في المظلومين إلى شدة حذق وبيان في أمر المظلوم قبل أن يشفع فيه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي إلا إن وثقت بإخلاصي في [علمي وعملي]،[٣١٠] فإن لم أثق بذلك لم أجبه إلى الصحبة خوفاً أن أحتاج إلى صدقته أو هديته ولو بغير سؤال، فآخذها منه فأكون ساعياً (٣٤ب) له في نقص أجره حيث ساعدني على شيء يدخله الرياء وعدم الإخلاص فيه. وإيضاح ذلك أن الله تعالى ما تكفل لطالب العلم بالرزق الزائد عن ضرورته إلا إذا كان مخلصاً في علمه وعمله، فمن لم يخلص فيها احتاج إلى سؤال الأمير في رزقه فسقطت حرمته عنده، فلم يقدر الأمير على قبول شفاعته عنده في مظلوم بعد ذلك. فعلم أن من لم يخلص في علمه وعمله ربما عاقبه الله باحتياجه إلى سؤال الناس وقسا قلوبهم عليه، فلا هو[٣١١] يقدر على كف نفسه عن السؤال ولا هم يعطونه ما سأل، وذلك معدود من أشد العذاب كما قال الجنيد وغيره.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تصحبوا أميراً وتترخصوا في الأكل من طعامه وقبول هداياه إلا إن كنتم مخلصين في علمكم وعملكم وكان ذلك الطعام حلالاً، ليكتب لذلك الأمير كمال الخير بإحسانه إليكم ومساعدته لكم على طلب العلم. فإنكم إن لم تكونوا مخلصين فلا ينبغي لكم الترخص في الأكل من طعامه ولا قبول بره وإحسانه لما في ذلك من إعانته لكم على المعصية بسوء نياتكم، وإلا فالعلم في أصله معدود من العمل الصالح ومن أفضل الطاعات. قال: وهذا أمر قد يخفى على كثير من طلبة العلم، انتهى.[٣١٢] وسمعته رحمه الله يقول: من لم يحكم مقام الورع عن (٣٥أ) مال من يصحبه من الأمراء ربما سخر به الأمير إذا رآه يأكل من الشبهات لاسيما في شهر رمضان. [وقد وقع لبعض من يدعي العلم والصلاح][٣١٣] أنه أراد الفطر في رمضان عند صاحبنا الأمير محمد الدفتردار، فقال له الأمير: ليس عندنا طعام يصلح لمثلكم أن يأكله. فقال له: البحر لا تكدره الدلاء ولا تغيره الرمم. فقال الأمير لغلمانه: اخرجوا هذا من عندي فإنه شيطان في صورة إنسان. إذا كانت نفوس مثلنا لا تطيب بأن تفطر على مثل هذا الطعام في الشهر العظيم، فكيف تطيب نفس مثل هذا أن تأكل منه مع ادعائه العلم والصلاح والقطبية؟ انتهى. فاعتبروا يا أولي الأبصار ولا تصحبوا

٣٠٦ أ د: الشريعة.
٣٠٧ «الوالي» ساقط من ب.
٣٠٨ أ: جواره.
٣٠٩ «في» ساقط من ب.
٣١٠ «عملي» ساقط من أ د، و«علمي» مكرر في ب.
٣١١ «هو» ساقط من ب.
٣١٢ «انتهى» ساقط من ب.
٣١٣ أ: وقد وقع أن يدعي العلم والصلاح، والتصويب من ب ج د.

أميراً إلا إن علمتم حفظكم عن الأكل من[٣١٤] ماله لتصيروا قدوة له ولغيره في الورع[٣١٥] وترك الشبهات، وإلا فإذا أكلتم الشبهات فمن يقتدي أميركم وغيره إذا طلب أن يتورع؟ وسمعته يقول: إذا لم يكن العالم عاملاً بما علم فربما كتب في ديوان الأئمة المضلين لاسيما إن صحب أميراً أو اقتدى به هو وحاشيته في قلة الورع، فإنه أكد[٣١٦] عليه الأمر بترك الصحبة له.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: كل فقير صحب أميراً في طعامه شبهة فأكل منه وقال: مثل ذلك لا يضرني، فقد كذب وافترى. فإن الحرام الذي في الشبهة يغير قلب القطب (٣٥ب) الغوث فضلاً عن غيره. بل قالوا: الحرام كالسم فكما يضر أكل السم ولو لم يعلم به الآكل فكذلك الحرام. فعلم أنه لا اعتراض على الفقير إذا كان صاحب كشف واستخلص[٣١٧] الحق تعالى له الحلال من بين [فرث الحرام ودم الشبهات][٣١٨] فإياكم والمبادرة إلى الإنكار على فقير اشتهر بالورع إلا بعد معرفتكم بخبث[٣١٩] ذلك الطعام، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي بعد استشراف النفس إلى طلب[٣٢٠] صحبته إلا إن كنت مطهراً أنا وهو من سائر الذنوب والأدناس الظاهرة والباطنة، وإن لم أكن أنا وهو كذلك فلا [أجيبه][٣٢١] إلى الصحبة. وغايته أن فاسقاً صحب فاسقاً وبتقدير أني أريد أن أحمل حملته في الشدائد فلست بأهل[٣٢٢] لذلك ولا هو بأهل أن أطلب التخفيف عنه لعصياني وعصيانه. وهذا أمر قل من يتنبه له كما مرت الإشارة إليه في هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي إلا إن كنت قد خرقت ببصري إلى الدار الآخرة ورأيت شدائدها وأهوالها ومحاسباتها وموازناتها بعين قلبي، وذلك لأكف الأمير عن كل ما رأيته يضره في دينه ودنياه. فإن من لم يخرق بصره إلى مثل ذلك ربما أمر الأمير بما يضره في دينه أو ساعده على (٣٦أ) ولاية ليس له فيها خلاص. وقد سبق أن صاحب هذا المقام لا يصير فيه شعرة واحدة تحب[٣٢٣] دوام الأمير في الولاية التي لا خلاص له فيها، بل يكون هو أول من يعارض في دوامه فيها وأول من يتوجه إلى الله في عزله منها محبة فيه وشفقة على دينه وقياماً بواجب حق صحبته.

[٣١٤] في ب زيادة: طعامه بل.
[٣١٥] «في الورع» ساقط من ب.
[٣١٦] أ د: يتأكد.
[٣١٧] ج: أشخاص.
[٣١٨] ج: فرث دم الحرام ودم الشبهات.
[٣١٩] ج: بحيث.
[٣٢٠] «طلب» ساقط من ب.
[٣٢١] زيادة من ج د.
[٣٢٢] ب: أهلا.
[٣٢٣] ج: يحب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا صرفتم أميركم عن صحبتكم لعذر[٣٢٤] من الأعذار فإياكم أن ترشدوه إلى صحبة أحد من إخوانكم، فتدخلوا عليه الهم والغم الذي فاتكم وتخرجوا عن العمل بحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فالحاذق من احتاط لأخيه كما يحتاط لنفسه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصدق أميري إذا حلف لي بالله أن طعامه هذا حلال لأن الحلال عنده قد لا يكون حلالاً عندي، كما مرت الإشارة إليه في القسم الأول من هذا الكتاب. وهذا أمر يقع فيه المغفلون من الفقراء وطلبة العلم فيعتمدون على حلف الأمير بأن طعامه مثلاً حلال[٣٢٥] وغاب عنهم أنه يحتمل أن يكون مرادهم بالحلال ما لم يحدثوه على رعيتهم من المظالم، كما سمعت ذلك من بعض الدفاتر والكشاف حين قدم إلي طعامه لآكل منه. قال: هذا شيء لم أصنعه مما أحدثته على رعيتي وإنما (٣٦ب) أحدثه من كان قبلي. فرأيته ممن يرى أن المظالم والمغارم التي لم يحدثها هو حلال، فكيف آكل طعامه بعد ذلك وأعتمد على حلفه مع كونه جاهلاً بقواعد الشريعة؟ والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني أفرح[٣٢٦] لخلاص ذمة أميري وتخليص حقوق الناس منه ولو بالحبس والضرب بالمقارع والكسارات، مبادرة لتطهيره في الدنيا قبل الآخرة لما من الله تعالى به علي من شدة إيماني بيوم الحساب. وربما توجهت إلى الله في قتله إذا قتل أحداً ظلماً محبة فيه لا بغضاً له كما وقع لي ذلك في بعض الأمراء. وإن قدم أن أميري حبس وصار أهله يرسلون له الأطعمة الفاخرة المتنوعة في الحبس نهيتهم عن مثل ذلك وأمرتهم بأن يرسلوا له الرغيف اليابس من غير أدم يوم بعد يوم طلباً لتقصير المدة عليه. فإن كل يوم يجوع فيه[٣٢٧] في الحبس ولا يرى أهله التفتوا إليه يقوم مقام الجمعة أو الشهر في الذل والتعزير بحسب ما هو عليه من المروءة، بخلاف ما إذا نوعوا له الأطعمة وأرسلوها له فإن حبسه يطول[٣٢٨] لأنه كالجالس في بيته حينئذ. وهذا أمر قد يخفى على كثير من الناس فاعملوا عليه أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني إذا كنت حاملاً حملة أميري المظلوم في نصرته على عدوه (٣٧أ) الظالم، ثم عزل عدوه وتحول الغم والهم الذي كان عند أميري إليه هو أن أتحول إلى حملته وأترك أميري جملة. فإني دائر بحمد الله مع مرضات الله فكل من كان مكروباً فأنا معه في مساعدته في كربه. وهذا أمر قل من يفعل به من الفقراء، بل ربما توجه أحدهم إلى الله في عزل عدو أميره مثلاً ثم لما عزل شمت فيه وتشفى منه حمية جاهليته، وذلك خروج عن طريق الصالحين.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الفقير في صحبة الأمير لله تعالى إذا عزل عدو أميره وحصل له الغم والهم أن يتحول إلى الحزن عليه والوجع له والأخذ بيده في الشدائد ولا يترك مثل

[٣٢٤] ج: بعذر.
[٣٢٥] د: حلالًا.
[٣٢٦] أ: لا أفرح.
[٣٢٧] «فيه» ساقط من أ.
: لا يطول.

ذلك مراعاة لخاطر أميره، فإنه جهل وحظ نفس والفقراء منزهون عن مثل ذلك. وسمعته يقول: يجب على الفقير أن يكف أميره عن الشماتة بعدوه إذا دارت عليه الدوائر ويخبره أن كل من شمت في عدوه ربما جازاه الله تعالى بمثل ذلك. وإنما الواجب عليه شدة الحزن على عدوه خوفاً أن يكون عدوه إنما أخذه الله بسببه إذ من شأن العاقل أن ينظر غالباً للذي[٣٢٩] عليه دون الذي له، انتهى. وقد طردت كثيراً من الأمراء عن صحبتي حين تكدروا مني لما أظهرت الحزن على عدوهم ودخلت في حملته لاسيما بني بغداد.[٣٣٠] وهذا (٣٧ب) أمر لا يقدر على التخلق به إلا من يصحب أميره لله لا لغرض نفسي، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة حذري من كثرة اعتقاد الأمراء في وشدة كراهتي لذلك قياماً بواجب حق مولانا السلطان ولو لم يعلم هو بذلك. فإن من شأن كل عارف أن يغار على جناب مولانا السلطان أن يضاهيه أحد في انقياد الأمراء له فالعارف من اشتد حذره من ذلك كل الحذر. وهذا أمر تستحليه النفوس الغوية وربما أدى إلى نفيها وهلاكها طلباً لمصلحة المسلمين، وربما حاز الساعي في نفيها الثواب العظيم. وذلك أن كل من انقادت العساكر السلطانية له واعتقدوه كل الاعتقاد، فلا فرق حينئذ بينه وبين عدو السلطان الذي يريد أخذ مملكته.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من علامة الفقير الصادق أن يفرح بالذل والانكسار، فكل ما ازدراه الأمراء والأكابر كلما فرح[٣٣١] واستبشر [اكتفاء بعلم الله عز وجل كما يفرح ويستبشر][٣٣٢] برضا الله تعالى عنه عكس حال الفقير الكاذب. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وتعاطوا أسباب تنفير الأمراء عنكم حسب طاقتكم خوفاً من شروعكم في مضاهاة السلطان الأعظم في انقياد الرعية له، فقد عد العارفون ذلك من أعلى طبقات سوء الأدب، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله (٣٨أ) تعالى به علي احتمائي عن أكل الشبهات المباحة التي توقف الدعاء عن الإجابة عادة إذا خفت على أميري عزلاً أو حبساً، ولو طال زمن خوفي عليه لأجل رجائي قبول دعائي له إذا أصيب بمصيبة، وفاء بحق الصحبة. فقد ورد: يا داوود حذر وانذر قومك أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة، انتهى. فمن أكل الشهوات أيام حصول النكد لأميره أو أيام خوفه عليه أو وقع في جماع حليلته، فقد أخل بواجب حق صحبته لعدم سرعة قبول دعائه له.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يصحب أميراً إلا بعد توطين نفسه على احتمائه عن أكل الشهوات إذا حصل لأميره هم أو غم أو طالت مدة الاحتماء كسنة أو أكثر. فمن لم يوطن نفسه على ذلك فلا ينبغي له أن يجيب أميراً إلى الصحبة، انتهى. وقد احتميت مرة لأجل أمير صحبني فلم آكل دسماً ولا حلوى ولا شيئاً من الشهوات المباحة مدة خمسين يوماً، فنازعتني النفس إلى تناول شهوة فأجبتها. ثم رأيت زوجتي أم عبد الرحمن رضي الله عنها قد احتمت لأجل ولدها الرضيع مدة خمسة أشهر. فقلت لنفسي: أف على من تكون النساء أكبر همة وأعظم فتوة منه، فرجعت إلى الاحتماء حتى فرج الله (٣٨ب) عن ذلك الأمير.

٣٢٩ د: الذي.
٣٣٠ د: أولاد بغداد.
٣٣١ د: فرح كل فرح.
٣٣٢ ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج د، د: يستبشر.

وهذا أمر قل من يفعله الآن لله تعالى خالصاً، بل ربما يفعل بعضهم الاحتماء طمعاً في إحسان ذلك الأمير إليه إذا بلغه أنه احتمى لأجله. ثم[٣٣٣] إذا لم يحصل له من الأمير ما كان طامعاً [فيه][٣٣٤] ربما تمثل فيه[٣٣٥] بقول بعضهم:

أُحَمِّلُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ هُمُوماً عَلَى مَنْ لا أَفُوزُ بِخَيْرِه
كَمَا سَوَّدَ الْقَصَّارُ فِي الشَّمْسِ وَجْهَهُ لِيَجْهَدَ فِي تَبْيِيضِ أَثْوَابِ غَيْرِه

ولو أن مثل هذا احتمى عن الشهوات لله تعالى لأجل القيام بحق الصحبة فقط لما كان ندم ولا أنشد مثل هذين البيتين، بل كان يطلب أجره من الله تعالى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: كل فقير تهنأ بأكل أو شرب أو جماع أو شيء من الشهوات أيام حزن أميره وغمه فليس له مروءة الرجال، بل هو من قسم النساء. وكان يقول: من علامة إخلاص الفقير في صحبة الأمير أن يحس ببدنه كأنه محشو ناراً من حين يدخل في صحبته إلى أن يفارقه بموت أو غيره، وذلك لأن غالب الأمراء يحب[٣٣٦] الدنيا فلا يفارقه الهم ولا الغم ساعة واحدة والفقير من شأنه مشاركته مروءة، انتهى. وتقدم في الكتاب أن من حق الأمير على الفقير إذا أصابه هم أو غم أن لا يضع ذلك الفقير جنبه على الأرض ولا يقرب من حليلته ولا (٣٩أ) يأكل شهوة ولا يتفرج في بستان أو نهر ولا يلبس ثوباً مبخراً ولا يضحك ولا يغفل عن ذكر الله حتى يزول ذلك الهم أو الغم عن الأمير. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم وقوعي فيما يخل بمقامي عند الأمير الذي صحبته كأن أدعوه إلى وليمة أريد أن أعملها، فإنه ربما تبادر لذهنه أنني ما أعلمته بها إلا ليساعدني فيها، فكان من العقل والمروءة عدم إعلامه بها أو دعائه إليها خوفاً أن يرسل لي شيئاً من اللحم أو العسل أو الأرز أو الحطب ونحو ذلك. فإن قبلته خرجت عن مقام الورع، وإن رددته زكيت نفسي بالورع وخرجت أميري وكسرت خاطره ولا يخفى ما في ذلك من النقص.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير يريد عمل وليمة أن يعلم بذلك أحداً من إخوانه الذين يرجوا منهم المساعدة فيها خوفاً من تكلفهم له لاسيما الأمراء، فإن دعاهم إلى مثل ذلك الطعام ازدرى بهم وبمقامهم.[٣٣٧] وهذا أمر قد كثر فعله في النصابين من الناس فإذا أراد أحدهم أن يعمل عقيقة أو ختاماً أو وليمة[٣٣٨] عرس يجبي مواد طعامه من أخلاط من الناس، ثم يدعو الأكابر إلى ذلك الطعام ويسوق عليهم السياقات (٣٩ب) ويقول لهم: اجبروا بخاطري وهو سوء أدب. وسمعته يقول: لا ينبغي لمن لا حرفة له ولا معلوماً أن يعمل وليمة يجمع موادها من الناس فإن نفوس الأكابر ربما تنفر من الأكل منها كما تنفر ممن[٣٣٩]

[٣٣٣] د: ثم إنه.
[٣٣٤] زيادة من ب ج.
[٣٣٥] «فيه» ساقط من ج.
[٣٣٦] ب ح: تحب.
[٣٣٧] «وبمقامهم» ساقط من د.
[٣٣٨] أ: اوليمة.
[٣٣٩] ب: من.

طبخ لحوم الحيوانات الخبيثة من حيات وخنافس وبنات عرس وجعلان[٣٤٠] ودود وغير ذلك، فإن مكاسب الناس غالباً في الخبث كلحوم هذه الحشرات، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي كثرة تحويطي للأمير الذي صحبته بالآيات والأذكار الواردة في السنة حتى لا يزيغ في أحكامه عن[٣٤١] الشريعة ولا يظلم أحداً من رعيته. وإن كان ملتزماً لبلاد حوطت جسورها وطرقها من المفسدين خوفاً أن يقطعوا الجسور أيام النيل في غير وقتها أو يقطعوا الطريق على أحد من الناس. وكذلك أحوط غلمانه الذين يجبون خراجه ويأكلون وجبة الفلاحين خوفاً أن يتعدوا حدود الله وغير ذلك، كما ذكرناه في كتابنا المسمى بالفلك المشحون. فإن لم يحوط من الفقراء أميره وبلاده وغلمانه وجبات خراجه كما ذكرنا، فليس له صحبته لعجزه عن القيام بحقها. وهذا أمر قل من يراعيه من الفقراء، فاعملوا عليه أيها الإخوان، (٤٠أ) والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي كراهتي لدخول الأمير الذي صحبته علي حال كثرة اجتماع الناس عندي في مجلس ذكر أو علم أو وليمة خوفاً على نفسي من الإعجاب بنفسي، [فقل فقير يدخل عليه أحد من الأكابر في محفله إلا ويطرقه الإعجاب بنفسه][٣٤٢] ويفرح باطلاع[٣٤٣] الناس على أحواله الشريفة. ومن هنا خاف السلف الصالح من الجلوس في حلقة علم أو ذكر إذا اتسعت[٣٤٤] وكثر الناس فيها، حتى [أن][٣٤٥] إبراهيم بن أدهم دخل المسجد الحرام فرأى حلقة درس طاووس اليماني قد كبرت فطأطأ وقال له في أذنه: إن كانت نفسك تستحلي جلوسك في هذه الحلقة الكبيرة فقم منها. فنهض طاووس[٣٤٦] قائماً من تلك الحلقة ولم يدر أحد سبب قيامه، انتهى. ومر الفضيل بن عياض وسفيان الثوري على حلقة عطاء بن أبي رباح[٣٤٧] في الحرم وقد كبرت جداً فقالا[٣٤٨] له: لو كانت هذه الحلقة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لفارقها خوفاً على نفسه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من شأن الفقير الصادق أن يرى حصول الضرر في دخول الأمير عليه أشد من دخول الأسد الذي يفترسه خوفاً من دخول الإعجاب عليه بذلك. ثم حكي عن سفيان الثوري أنه كان يقول: (٤٠ب) ليس لأمثالنا أن يجلس على[٣٤٩] حلقة علم يلقيه أو حديث يمليه وقد كبرت خوفاً أن يمقته الله إذا أعجب بنفسه. وكان إذا أملى الحديث ومرت فوقه سحابة يترك التحدث[٣٥٠] ويقول لأصحابه:

[٣٤٠] د: جتلان.
[٣٤١] ب: من.
[٣٤٢] ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
[٣٤٣] ب: على اطلاع.
[٣٤٤] د: اتسع.
[٣٤٥] ساقط من أ.
[٣٤٦] «طاووس» ساقط من ب.
[٣٤٧] د: عطاء بن رباح.
[٣٤٨] د: فقال.
[٣٤٩] ب ج: في.
[٣٥٠] ب: الحديث، د: التحديث.

اصبروا حتى تمر هذه السحابة، فإني أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها لقلة إخلاصنا وكثرة ريائنا، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وانهوا الأمير الذي صحبكم[٣٥١] عن الاجتماع بكم في أوقات أورادكم ومحافلكم، واعتذروا إليه بالأعذار الشرعية خوفاً على أنفسكم من الرياء بذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي محبتي لكل من نفر أميري عني وبغضي لكل من جلب أميراً إلى صحبتي خوفاً على نفسي من الإخلال بواجب حق أميري في النصح. وقد كان عندي وقفة من[٣٥٢] بعض أقراني لغرض نفساني، فلما نفر أميري عن صحبتي زالت تلك الوقفة وصرت أحبه كل المحبة وحملته على أنه قصد بتنفيره عني دفع الآفات الحاصلة من صحبة ذلك الأمير، فعلمت أنه ممن تحقق بهذا المقام. وهذا خلق غريب قل من يتخلق به، بل غالب الناس يحب كل من رغب أميراً في صحبته ويكره كل من نفره عنه ويحمله على المحامل السيئة، وهو خروج عن أخلاق القوم.

وسمعت (٤١أ) سيدي علياً الخواص يقول: لا يقدر على محبة من نفر أميراً عن صحبته ولا بغض كل من رغب أميراً في صحبته إلا من أحكم مقام الزهد في الدنيا وفطم عن شهواتها على يد شيخ صادق، وإلا فالراغب في الدنيا[٣٥٣] من لازمه بغض كل من نفر أحداً[٣٥٤] من أبناء الدنيا عنه[٣٥٥] [ومحبة كل من جلب أحداً من أبناء الدنيا إليه].[٣٥٦] وسمعته يقول: من علامة صدق من يحبك تنفيرك عن صحبة الأمير وتنفير الأمير عن صحبتك لعلمه بعجز كل منكما عن القيام بصحبة الآخر، كما هو مشاهد عند أرباب البصائر. فإن الفقير ربما كان معظم محبته لصحبة الأمير حصول البر والإحسان أو اكتساب الجاه، كما أن الأمير ربما كان معظم قصده من صحبة الفقير تحمل حملته عند الشدائد ومساعدته في تولية الوظائف التي لا خلاص له فيها. ولا شك أن هذه الصحبة [من][٣٥٧] كل منهما لغير الله، إذ الصحبة الخالصة لله بين الفقير[٣٥٨] والأمير أن لا يطلب أحدهما من الآخر مساعدة على غرض دنيوي أو أخروي يؤول إلى الدنيا. فاعلموا ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أعرض لأميري بذكر شيء يؤدي إلى تكلفه لي في شيء من أمور الدنيا كقولي له: خاطركم علينا فإن القمح قد (٤١ب) فرغ وتعلمون ضعف يقين العيال وشدة الاهتمام بالقوت، فإن مثل ذلك أقبح من سؤال الأمير في ذلك تصريحاً. وهذا يقع فيه كثير من المغفلين من الفقراء وطلبة العلم، ولا يكاد أحد[٣٥٩] منهم يلحق[٣٦٠] بما في ذلك من النقص لمقامه. وربما عرض الفقير لأميره بحاجته إلى قمح أو

[٣٥١] د: الأمير صاحبكم.
[٣٥٢] د: في.
[٣٥٣] في ب زيادة: وشهواتها.
[٣٥٤] د: نفر أميراً أو أحداً.
[٣٥٥] ج: إليه.
[٣٥٦] ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
[٣٥٧] زيادة من ب ج.
[٣٥٨] ج: الفقراء.
[٣٥٩] ب: واحد.
[٣٦٠] أ: ملحق، د: يحس.

عسل أو حطب أو كسوة ونحو ذلك فلم يلق الأمير إليه بالاً، فيتخجل من ذلك غاية الخجل، فليكن الفقير الذي يصحب الأمير على حذر من مثل ذلك. وإن كان ولا بد له من قبول بر الأمير، فليتوجه إلى الله عز وجل أن يحرك قلب الأمير لإرسال شيء من الأمور المحتاج إليها إذا علم أن الله قد قسم له ذلك وكان حلالاً. وقد فعلت بمثل ذلك مع خواص أصحابي من الأمراء، فيصير يرسل ما سألت الله تعالى أن يرسله لي وأرده أنا في الظاهر إظهاراً للعفة وحماية للخرقة بطريقه الشرعي، والأعمال بالنيات.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من علامة صدق الفقير في صحبة الأمير لله أن يتكدر إذا فرق الأمير ضحايا أو قمحاً أو عسلاً أو ثياباً ونحو ذلك ولم يتذكره، بل يفرح غاية الفرح إذا نسيه أو حول ما كان يعطيه له إلى شخص من أعدائه. وهي ميزان تطيش على الذر فزنوا (٤٢أ) بها أيها الإخوان حالكم[٣٦١] تعرفوا إخلاصكم في صحبة الأمير من ريائكم، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة حذري من كون الأمير أكبر جاهاً مني عند الحكام بحيث أحتاج إليه في شيء من أمور الدنيا، كمساعدته لي في تولية وظيفة أو ترتيب جوالي أو حماية مركبي ممن يسخرها أو حماية بلد تحت نظري من كاشف أو شيخ عرب يظلم أهلها أو نحو ذلك، فإن من شأن الفقير الصادق أن يكون الأمير هو الذي يحتاج إليه في الحماية لجهاته دون العكس. وهذا أمر قل من يتخلق به من الفقراء، وغالبهم يحتاج إلى الأمير دون العكس لعدم فطامهم عن الدنيا، وإلا فمن لازم من زهد في الدنيا فإن الحق تعالى يستخدم له ملوكها فضلاً عن غيرهم، فلا يعارضه أحد في طريق رزقه[٣٦٢] ولا غيره، فإن الله تعالى ما حكم الظلمة إلا في أبناء الدنيا، فكل فقير ادعى الزهد في الدنيا وعارضه أحد في طريق رزقه مثلاً، فكذبوه لأنه لو زهد في الدنيا لما كان أحد يقف له في طريق. وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود ازهد في الدنيا اجعل ملوك الأرض تحت طاعتك كالكبش تحت السكين، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم (٤٢ب) تعاطي[٣٦٣] شيء يورث لوث الناس بعرضي غالباً كأخذي من أميري مالاً أفرقه على الفقراء والمساكين غير المعنيين. فإن الغالب في الناس اتهامي بأخذ شيء من ذلك المال لنفسي وعيالي ومن يلوذ بي قياساً على أنفسهم، لو كان أحدهم فرق مثل ذلك المال. ولكن إن عرض علي الأمير مالاً حسنت له أن يفرق هو نفسه أو بأحد من خدامه، وأرغبه في الصدقة حسب طاقتي حتى لا يغير نيته ويترك تفرقة ذلك المال حين امتنعت أنا من تفرقته فيفوته الخير والأجر.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله[٣٦٤] إذا أعطاه أحد مالاً يفرقه على الفقراء يرده ويقول: من جمع المال فهو أحق بتفرقته، فقلت[٣٦٥] له في ذلك، فقال: إنما أرده خوفاً من اللوث بعرضي عند[٣٦٦] صاحب المال لاسيما

[٣٦١] «حالكم» ساقط من د.
[٣٦٢] د: رزقة.
[٣٦٣] ب: قبولي، ج: تعالي.
[٣٦٤] في أ زيادة: يقول.
[٣٦٥] «فقلت» ساقط من ب.
[٣٦٦] أ: عن.

إن كان أميراً فيفوتني بقبوله عدة مصالح للناس هي أفضل من قبولي. وسمعته يقول: إياكم أن تأخذوا مالاً من الأمير الذي تشفعون عنده لتفرقوه على الفقراء والمساكين، فإن الزوالق ربما جرحوكم بسبب ذلك ووصل الأمر إلى الأمير فشخص[٣٦٧] بجرحكم[٣٦٨] في ذهنه، فيريد أن يردكم إلى مقامكم قبل التجريح فلا يقدر، فرد[٣٦٩] أموال الولاة أسلم [لكم][٣٧٠] في دينكم،[٣٧١] والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً (٤٣أ) طلب مني الصحبة إلا بعد أن أوطن نفسي على كثرة احتمال سماع كلام الأعداء في عند ذلك الأمير، فإن مزاحمة الأقران على صحبة الأمراء غالبة على كل من لم يحكم مقام الزهد في الدنيا، وربما عمل الأعداء للفقير الذي اعتقده الأمير المكائد والحيل وأتلفوا عقيدة الأمير فيه فعدم كل منها النفع بالآخر.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يحوط نفسه وأميره بالآيات والأذكار من أن يدخل بينهما عدو فيفسد عليهما الصحبة. بل وقع أن بعض الأعداء عمل المكائد على فقير اعتقده أمير حتى أفضى الأمر إلى قتل الفقير. وسمعته رحمه الله يقول: إذا صحبتم أميراً فوطنوا نفوسكم على سماع الكلام من أقرانكم في عرضكم نحو قولهم: ما صحب فلان الأمير إلا طلباً لسحت الدنيا. وقد جهدنا أن نتحيل[٣٧٢] على الأمراء حتى يعتقدونا كما اعتقدوه، فلم نقدر على أن نعمل مثل عمله من النصب والحيل والرياء والنفاق وإظهار الخشوع وإطراق الرأس والتقشف ونحو ذلك. وسمعته يقول: إذا صحبتم أميراً فاعرضوا على أنفسكم كثرة تحمل تجريح الأعداء فيكم ونسبتكم إلى الرياء والحيل على ذلك الأمير، فإن رأيتم قدرتكم على الصبر على مثل ذلك فادخلوا في صحبة الأمير فإنه لا بد لكم من ذلك[٣٧٣] غالباً. (٤٣ب) كما أنه يجب عليكم أن تعرضوا على أنفسكم مسامحة الأعداء في جميع ما يضيفونه إليكم من النقائص إذا صحبتم أميراً قبل دخولكم في صحبته. فإن قدرتم على تحمل مثل ذلك وعلى مسامحتهم فيما وقعوا فيه من عرضكم إكراماً لله ثم لرسوله فادخلوا، وإلا فلا. فإن السلامة مقدمة على الغنيمة، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أطلب من الأمير الذي صحبني قبول شفاعتي دائماً في أحد من رعيته يدعي أنه مظلوم، كما مرت الإشارة إليه آنفاً. فربما يكون في قبول شفاعتي في ذلك الشخص تحريك فتنة تؤدي إلى قتل ونهب، كما هو غالب في المفسدين من الفلاحين. بل يجب علي التربص في أمر من ادعى أنه مظلوم وحمل الأمير على الأعذار الصحيحة لأكون موافقاً له على الحق الذي هو فيه فيوافقني[٣٧٤] كذلك. ولذلك كنت أكاتب الكشاف وغيرهم في المحبوسين عندهم وأقول لهم: إن كنتم تعلمون أنه مظلوم فشفعونا فيه، وإن كنتم تعلمون

[٣٦٧] د: تشخص.
[٣٦٨] ج: فتشخص بجريحكم.
[٣٦٩] ج: فردكم.
[٣٧٠] زيادة من ب د.
[٣٧١] ج د زيادة: ودنياكم.
[٣٧٢] د: يتخيل.
[٣٧٣] «فادخلوا في صحبة الأمير فإنه لا بد لكم من ذلك» ساقط من ب.
[٣٧٤] ب ج: يوفقني.

أنه ظالم فلا شفاعة لنا فيه.[٣٧٥] وإن كان لذلك المحبوس عدو ينازعه ويطلب من الأمير النصرة عليه أقول له في المكاتبة: والمسئول من فضلكم أن تكونوا مع المظلوم من الخصمين مثلاً على جاري عوائد فضلكم وإحسانكم، كما مرت الإشارة إليه في هذا (٤٤أ) الكتاب.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إياكم أن تتكدروا ممن[٣٧٦] لا يقبل لكم شفاعة في مظلوم، فربما كان عارفاً بدسائس نفوسكم فيرد شفاعتكم في ذلك الوقت وهو عازم على قبولها في المستقبل خوفاً عليكم من الإعجاب بنفوسكم، لاسيما إن كان أقرانكم شفعوا فيه قبلكم وردهم فإن ضرر الإعجاب يكون أشد، انتهى. فليحذر الفقير من قبول شفاعته عند الأمير كل الحذر فإن الأمراء قد صاروا لا يعتقدون الصلاح في أكثر الفقراء ويحملونهم إذا شفعوا عندهم على المحامل السيئة ويقولون ولو في نفوسهم: لولا الهدايا التي تأتي لفلان من الناس ما شفع عندنا في أحد منهم. بل سمعت بعضهم يقول: ما صار فلان شيخاً عند الفلاحين وغيرهم إلا لقبولي شفاعته، ولو أني رددت شفاعته ما كان شيخاً ولا اعتقده أحد. فالعاقل من اعتبر، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة إذا طلبها مني إلا إن علمت من نفسي القدرة على كتم أسراره التي يسرها إلي لاسيما أخبار السلطان ووزرائه، فإن لم أثق بنفسي في كتمانها عن أعز أصدقائي فلا أجيبه إلى الصحبة خوفاً على نفسي وعليه من ضرر إفشاء الأسرار. (٤٤ب) وقد رأيت في الأحكام السلطانية أن للملوك السياسة القتل لمن أفشى أسرارهم أو أفسد حرمهم أو طعن في كونهم أهلاً للولاية، وليس ذلك لغيرهم. وقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: لا ينبغي لمن يثق بنفسه أن يخالط أصحاب الأسرار، فربما أدى ذلك إلى قتله ورجع اللوم عليه وعلى من أفشى سره له. ثم ينشد:

إذا المرْءُ أَفْشَى سِرهُ بِلِسَانِه ... وَلامَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فَهُوَ أَحْمَقُ
إذا ضاقَ صَدْرُ المرْءِ عَنْ سِر نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ الذي اسْتَوْعَتْهُ[٣٧٧] السر أَضْيَقُ

ووجدوا[٣٧٨] مكتوباً على باب قصر كسرى أنوشروان:

إذا صَحَبْتَ الملوكَ فَالْبَسْ ... مِنْ التَوَقي أَجَل مَلْبَس
وَادْخُلْ إذا ما دَخَلْتَ أَعْمَى ... وَاخْرُجْ إذا ما خَرَجْتَ أَخْرَس

انتهى. فليحذر الفقير إذا صحب أميراً من إفشائه سره كل الحذر ولو لم يوصه الأمير على مثل ذلك، بل يكفيه مجرد التفات الأمير يميناً وشمالاً قبل أن يفشي ذلك السر إليه، فإنه ما التفت كذلك إلا لخوفه من سماع أحد ذلك السر، والحمد لله رب العالمين.

[٣٧٥] «لنا فيه» ساقط من أ.
[٣٧٦] ج: من أمير.
[٣٧٧] د: أودعته.
[٣٧٨] د: ووجد.

ومما من الله تعالى به علي عدم خطور قبول هدية من أميري بما زاد على الجزء البشري إذا تحملت حملته إذا عزل أو حبس أو وقع عليه تفتيش ونحو ذلك، خلاف ما عليه بعض النصابين. فإن الواجب على الفقير (٤٥أ) إنما هو الإحسان إلى الأمير وإلى عياله إذا نزلت به مصيبة قياساً على ما قاله العلماء في اصطناع الطعام لأهل الميت.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله[٣٧٩] يقول: أقبح[٣٨٠] كل قبيح فقير يصحب أميراً وهو غارق في بره وإحسانه هو وعياله، ثم إذا أصيب الأمير بمصيبة يكون فارغ القلب من تحمل حملته أو يطلب على دخوله في حملته عرضاً من الدنيا. [ورأيت بعضهم يطلب من الأمير عرضاً من الدنيا][٣٨١] بحسن عبارة ويقول له: أي شيء تعطونه لمن يحمل حملتكم؟ فيجوز الأمير في شيء يعطيه له هدية [أو لبسة][٣٨٢] أو بسبب النذر.[٣٨٣] وبعضهم يقول للأمير إذا زال عنه الهم والغم موافقة قدر: قد استحقينا الحلاوة عليكم، فإنا كنا حاملين حملتكم. وكل [ذلك][٣٨٤] يخل بمروءة الفقير. فالعاقل من حمل حملة أميره لله تعالى قياماً بواجب حقه عليه وأحسن إلى عيال الأمير مدة حبسه أو الترسيم عليه مثلاً حسب طاقته، كما درج عليه الفقراء الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني آمر[٣٨٥] أميري بالصبر إذا أكثر عدوه من الأذى له، وأنهاه عن مقابلته بالسؤ حتى عن الدعاء عليه في سره فيما بينه وبين الله عز وجل، وأزجره عن ذلك أشد الزجر وآمره بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. فإذا وكل أمره إلى الله تعالى وتحققت منه ذلك، (٤٥ب) أمرته بأن يسأل الله عز وجل أن لا يؤاخذ ذلك العدو لعلمي بأن من وكل أمره إلى الله تعالى خذل الله عدوه وربما قصمه بالكلية. وهذا أمر يخفى على كثير من الناس، فيظن بأن قوله حسبي الله في شأن فلان ليس فيها طلب لمقابلة عدوه بالأذى وهو ظن كاذب. ولو أنه تأمل بعين البصيرة[٣٨٦] لوجد تعاطيه هو المقابلة لعدوه بالأذى أخف على عدوه من مقابلته بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل حتى أن أخي أفضل الدين رحمه الله كان يتفعل في مقابلة عدوه بما يشبه الأذى بقصد تخفيف الأذى عن عدوه إذا جازاه الله بمثل ذلك، فإن العبد كلما غلب عليه وكول أمره إلى الله كلما كانت المقابلة للعدو من الله أشد.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من أراد إهلاك عدوه بسرعة فليقل: حسبي الله ونعم الوكيل فيه ولا يقابله بأذى، ومن أراد بقائه[٣٨٧] وبطاء مؤاخذته فليتفعل في مقابلته بالأذى صورة. وقد أمر الله تعالى خواص عباده بالصبر على الأذى من أعدائهم ولم يرخص لهم في مقابلتهم، بل أمرهم بالعفو والإصلاح، أي الدعاء لأعدائهم به أي بالإصلاح. وما رخص في المقابلة إلا للعوام فإنهم لضعفهم لا يقدرون على تحمل الأذى

[٣٧٩] «رحمه الله» ساقط من ج، وهناك بياض.
[٣٨٠] ج زيادة: من.
[٣٨١] ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
[٣٨٢] ما بين المعقوفتين زيادة من ب ج.
[٣٨٣] ج: النذرة.
[٣٨٤] زيادة من ج.
[٣٨٥] ج: أمد.
[٣٨٦] ب ج: ببعض البصيرة.
[٣٨٧] ج: إبقائه.

من غير مقابلة. فلذلك نفس الله تعالى عنهم بقوله ﴿وَجَزاءُ سَيئَةٍ سَيئَةٌ مِثْلُها﴾[٣٨٨] فاستراحوا بذلك من باب رحمته (٤٦أ) تعالى التي وسعت كل شيء. وأما العارفون فلم يرخص لهم في المقابلة إلا بالجزء البشري فقط كما مر لما أعطاهم سبحانه وتعالى من الفهم في قوله ﴿وَجَزاءُ سَيئَةٍ سَيئَةٌ مِثْلُها﴾[٣٨٩] فإنه تعالى سمى سيئة المجازة سيئة وأكدها بقوله مثلها تعريضاً بالترك. وأحب أهل الله أن لا يكونوا من أهل السوء مطلقاً، وإن كان ذلك مباحاً لهم من حيث الجزء البشري الذي يدق فيهم. وقالوا: إذا جازينا المسيء بمثل إساءته فقد صرنا من أهل السوء مثله، ولا ينبغي ذلك لعاقل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل من نظر بعين اليقين وخرق ببصره للدار الآخرة وإلى محاسباتها وموازناتها علم يقيناً أن إساءة عدوه عليه أنفع له في الدنيا من إحسان صديقه له، وذلك لأن الله تعالى يحكم المظلومين في حسنات الظالمين يوم القيامة فيأخذون منها قدر مظلمتهم أو يتقبل الله تعالى من أعمال المظلومين السيئة بقدر مظلمتهم، فتطرح[٣٩٠] على الظالمين كما ورد، ولا هكذا أعمال المحسن من الأصدقاء. فالعاقل من الأمراء وغيرهم من صبر على أذى عدوه وكيده ثم عفا عنه وأصلح ولم يطالبه بحق في الدارين، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا[٣٩١] أقر أميري [على غيبته][٣٩٢] لأحد من أعدائه فضلاً عن أصدقائه، ولو ادعى أن غيبته بطريق شرعي كمجاهرة المغتاب بالمعاصي سداً لباب (٤٦ب) الغيبة مطلقاً. لكن يحتاج صاحب هذا المقام إلى عفة زائدة عن الأكل من طعام الأمير وقبول هداياه بحيث يظهر عليه التكدر من الأمير وعبوسة الوجه إذا عرض عليه ألف دينار مثلاً، ويرى أن مثل ذلك ما فعله الأمير معه[٣٩٣] إلا لما عنده من ازدرائه واحتقاره وظنه أنه إذا رد الدنيا إنما يردها تفعلاً قياماً لناموسه، وإلا فهو يحبها بقلبه كما مرت الإشارة إليه في الكتاب. فإن لم يصل الفقير إلى [هذا المقام في العفة فمن لازمه غالباً السكوت على غيبة][٣٩٤] أميره في الناس وانعقاد لسانه عن الإنكار عليه. فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا لم يغلب على ظن الفقير قدرته على الإنكار على أميره إذا استغاب الناس، فمن الحزم عدم صحبته لأنه يحرم على العبد أن يجلس في مواضع المعاصي التي لا يقدر على إزالتها. ومن يصحب الأمير الذي يستغيب الناس ويظلم الفلاحين وغيرهم ولا يقبل له شفاعة فيهم حكمه كذلك. وسمعته يقول: قل فقير في هذا الزمان يسلم من معصية يكون مصراً عليها، فليحتط الفقير الذي يصحب أميراً لنفسه كل الاحتياط، والحمد لله رب العالمين.

[٣٨٨] الشورى، ٤٠.
[٣٨٩] الشورى، ٤٠.
[٣٩٠] ب ج: يطرح.
[٣٩١] «أني لا» ساقط من ب.
[٣٩٢] أ: غيبة لأحد، والتصويب من ج د.
[٣٩٣] «معه» ساقط من ج.
[٣٩٤] ما بين المعقوفتين زيادة من ب ج د.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أصحب أميراً يقبل شفاعتي في (٤٧أ) المظلومين إلا إن وثقت بنفسي في العفة عن قبول هدايا المظلوم، خلاف ما يقع فيه بعضهم من اتخاذ الشفاعة عند أميره حانوتاً يصطاد بها الهدايا من النقود والأطعمة والثياب وغير ذلك، حتى أدرك ذلك منه الخاص والعام حين كثرت ثيابه ودوابه وأطعمته وما هناك سبب يحال عليه غير شفاعته عند الأمير. فليكن الفقير الذي يشفع عند أميره على حذر.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يصدق نفسه في دعواها الإخلاص في صحبة الأمير وأنه ما صحبه إلا لله تعالى أو للثواب الأخروي إلا بعد أن يمتحنها بما لو تحول أميره عن الاعتقاد فيه وقبول شفاعته واجتمع على أحد من أعدائه وصار يقبل شفاعته وتحولت تلك الهدايا التي كانت تأتي إليه لعدوه، فإن انشرحت نفسه لذلك فصحبته لأميره لله تعالى، وإن تكدرت منه شعرة أو حصل منه عبوسة لأجل ذلك بما زاد عن[٣٩٥] الجزء البشري فصحبته لغير الله، انتهى. وهي ميزان تطيش على الذر فامتحنوا بها نفوسكم أيها الإخوان إذا ادعت الصدق في الأمراء، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي حفظ حرمة أميري وسد أبواب خجله بين الناس حسب طاقتي قياماً بواجب حقه (٤٧ب) فإذا شفعت عنده في مظلوم فلا أنسب ذلك الظلم إليه خوفاً أن تغلبه النفس فيجيب عن نفسه فتقوم البينة عليه بأن ذلك الظلم كان بإذنه فيخجل. وإنما أجعل الظلم من جماعته بغير إذنه وعلمه وأجعل مقامه كالشافع في المظلومين عند جماعته.[٣٩٦] وهذه سياسة قل من يتفطن بها من الشافعين في المظلومين عند الأمراء، وربما أغلظ بعضهم على أمير القول وجعله ظالماً وليس له حال يحميه، فيبطش به الأمير ويبهدله[٣٩٧] فيذهب ناموسه عند ذلك[٣٩٨] الأمير وغيره، فلا يقبلون له شفاعة لأن شرط الشافع أن يكون محفوظ الظاهر من الوقوع في شيء يذهب حرمته وهيبته من القلوب، كما درج عليه العلماء العاملين في الزمن الماضي.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على الفقير أن يتعلم السياسة إذا صحب أميراً وشفع عنده في مظلوم، فلا يبدأه بنسبة الظلم إليه ببادئ[٣٩٩] الرأي ويقول له: هذا حرام عليك وتفسق به يا قليل الخوف من الله، ونحوه ذلك. وإنما ينسب الظلم لجماعة الأمير ويرى الفضل له إذا شفع في ذلك المظلوم عند جماعته. وسمعته يقول: إذا دخلتم على أمير للشفاعة في مظلوم أو لتنصحوه عن الوقوع في شيء من المعاصي التي (٤٨أ) يقع فيها فمهدوا له قبل ذلك بساطاً يعلم منه ما له في قبول تلك الشفاعة أو ترك[٤٠٠] تلك المعصية من الحظ أو المصلحة في الدنيا والآخرة، حتى يكون هو المبادر لفعل ما أشرتم به عليه من غير وقوع أمر منكم أو نهي. فإن نفوس الأمراء في الغالب لا تنكبس لدخولها تحت أمر واحد من رعيتها، انتهى. وتقدم في هذا الكتاب أن من

[٣٩٥] ج: على.
[٣٩٦] «بغير إذنه وعلمه وأجعل مقامه كالشافع في المظلومين عند جماعته» ساقط من ب، و«إذنه» ساقط من ج د.
[٣٩٧] ب: يشهد له.
[٣٩٨] ب: بذلك عند.
[٣٩٩] أ: باد.
[٤٠٠] أ: تركب.

جملة سياسة الفقير للأمير[٤٠١] في مكاتبته في حقوق الناس إذا طلبوا منه أن يراسل الأمير أو يجتمع به للشفاعة في مظلوم من أهلهم أو أصدقائهم أن يقول للأمير في مراسلته أو عند الاجتماع به: إن أهل فلان أو عياله سألونا أن نسألكم في الإفراج عن محبوسهم مثلاً ونحن نعلم أنكم ما حبستوه إلا بحق، فإن كان الحق لكم وانشرح صدركم لتركه فاتركوه صدقة عن رأسكم، وإن كان الحق لغيركم أو كان المحبوس ظالماً ولم تأخذ العقوبة فيه حدها، فلا شفاعة لنا فيه، بل نحن معكم عليه. فإن بهذه السياسة تنكسر سورة[٤٠٢] غضب الأمير.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله إذا طلبوا منه أن يذهب معهم للشفاعة عند أمير كبير كالباشاة أو الدفتردار يرسل له كتاباً بالسلام عليه يقول له فيه: إن أهل فلان قد ساقوا علي السياقات وسألوني بالله أن آجي إليكم في الشفاعة في فلان. فإن [كنتم][٤٠٣] تقبلوني فأعلموني (٤٨ب) مع القاصد لأحضر، وإن لم تكونوا منشرحين لقبول شفاعتي فيه لغرض من الأغراض كخوف حصول فتنة في إطلاقه فأعلموني لأترك الحضور إليكم في هذه الشفاعة، انتهى. وقد فعلت أنا مثل ذلك مع الباشاة والدفاتر بمصر فلا أذهب إلى أحد منهم إلا بعد قولهم لي: تعالى اشفع ونحن نقبل شفاعتك دفعاً لوقوعي في الخجل الذي يزري بمقام الشافعين، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أكاتب أميري ولا غيره بقولي: سلام الله تعالى على فلان مثلاً، إلا إن أعطاني الله تعالى مقام الكشف عن كونه تعالى قد أمنه من عذاب الدنيا والآخرة وغفر له وسامحه. فإن السلام من الله أمان، ومن أعطى أميره أو غيره الأمان من الله تعالى[٤٠٤] بغير كشف وأنه لا يؤاخذه بذنب فربما انخرط في سلك الكذابين على الله. فالواجب على من لم يكشف له عن إعطاء الحق الأمان لمن يراسله أن لا يقول: سلام الله على فلان، وإنما يقول: سلامي على فلان، فيعطيه الأمان من نفسه بأنه لا يؤذيه ولا يخالفه في نصح[٤٠٥] مثلاً بشرط أن يثق بنفسه أنه لا يقع في إيذاء له أبداً ما عاش. وإلا فليكاتبه بعد البسملة والحمد له بنحو قوله[٤٠٦]: الفقير فلان يسأل من فضل فلان أن يفعل كذا وكذا، ويعطيه[٤٠٧] الأمان من نفسه احتياطاً وخوفاً (٤٩أ) من وقوعه في الكذب، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة إلا إن علمت من نفسي القدرة على ملاحظته[٤٠٨] من الزيغ والزلل عن طريق الاستقامة في أقواله وأفعاله أو علمت منه أنه يتوب على الفور إذا نبهته على[٤٠٩] زيغه، كما مرت الإشارة إليه في الكتاب، وهو مقام عزيز قل من يتخلق به. وغالب الناس من[٤١٠] يصحب الأمير ولا

[٤٠١] ب: الأمير للفقير.
[٤٠٢] ب: صورة.
[٤٠٣] زيادة من ج.
[٤٠٤] ج د: عز وجل.
[٤٠٥] ب ج: النصح.
[٤٠٦] د: قول.
[٤٠٧] أ: ولا يعطيه.
[٤٠٨] أ د: مخالطته.
[٤٠٩] أ: عن.
[٤١٠] «من» ساقط من ج.

يكاد يلاحظه[411] في شيء من أحواله الزائفة من حين يصحبه إلى أن يفارقه، وما هكذا صحبة الفقراء الصادقين. فقد تقدم أن من علامة الفقير الصادق أن يلاحظ الأمير في جميع أحواله إلى أن يجوز به الصراط، وهذا أعز من الكبريت الأحمر. فالأولى ترك صحبة أمثالنا للأمراء أبداً ما عشنا ونجعلهم كآحاد الإخوان من المسلمين من غير دخول في الصحبة الخاصة، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي كثرة حذري من التحدث بزيارة أكابر الأمراء إلي كالباشاة والدفتردار وقاضي العسكر، لما في ذلك من رائحة الإعجاب بنفسي وفتح باب اللوث بعرضي من الأقران وغيرهم ووقوعهم في الإثم بغيبتي وقولهم: فلان قد طار من الفرح بزيارة الباشاة له مثلاً، وصار حكوياً يحكي ذلك لكل داخل عليه. وإذا حصل من التحدث بزيارة [الأمراء للفقير مثل ذلك وجب (٤٩ب) عليه كتمان زيارة][412] الأكابر له حفظاً لدينه ودين إخوانه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من علامة رسوخ الفقير في مقام الأدب أن يكاد يذوب من الحياء والخجل إذا زاره أحد من الأكابر ويقول لنفسه: أما تستحين من كثرة ما يستر الله عليك من الفواحش التي تقعين فيها؟ أما تخافين من كشف الستر عنك لهؤلاء الأكابر الذين يزورونك فتفتضحي بذلك بينهم وتصيري من أبغض شيء إليهم؟ فمن وبخ نفسه مثل هذا التوبيخ، فهو غائب عن الفرح بزيارة الأمراء له وعن حكايته للناس زيارتهم له لما هو عليه من شدة شهود الحقارة لنفسه، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة الفقير الكاذب النصاب أن يحسد أخاه على زيارة أحد من الأمراء له ولا يحسده على مجالسته لربه عز وجل أو لرسوله ﷺ في غالب أوقاته. ولو أنه كان صادقاً في تعظيمه لله ولرسوله لحسد أخاه في مجالسته لله [ورسوله][413] أشد الحسد وتمنى أن يكون مثله، ولم يلتفت إلى حسده على مجالسته عند ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً دون الله، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، فإنه أدب قل من يتخلق به في (٥٠أ) هذا الزمان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي دوراني مع مرضات الله عز وجل غالباً إذا صحبت أميراً ديناً خيراً حتى أني أرجحه في المحبة على ولدي وأهلي، لاسيما إن وثقت به في قبول شفاعاتي وتفريج كرب المكروبين وترك كل معصية نهيته عنها، فإني إذا وثقت منه بذلك كان أحب إلي من أهلي وولدي المخالفين لإشارتي. وهو خلق غريب قل من يتخلق به، وغالب الناس يقدم ولده وأهله بالمحبة على الأمير ولو قبل شفاعته وفرج كرب المكروبين على يديه، لغلبة محبة الطبع عليهم على محبة الشرع، وذلك خروج عن طريق القوم. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه وأحبوا[414] أميركم العادل الصالح وقدموه في المحبة على ولدكم وأهلكم بطريقه[415] الشرعي

[411] أ د: يخالطه.
[412] ما بين المعقوفتين ساقط من ب ج.
[413] زيادة من ب.
[414] أ ج: حبوا.
[415] ج: طريق.

واظهروا ذلك، ولا تلتفتوا لقول الناس: إنما يبالغ فلان في محبة الأمير لأجل سحت الدنيا الذي يأخذه منه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة فرحي بتبجيل الناس لأقراني وكثرة تعظيم الأمراء لهم وترجيحهم علي في الزيارة والتعظيم وكثرة سؤالي لله أن يحفظهم من الآفات التي ربما تحصل لهم بزيارة الأمراء وكثرة تعظيمهم لهم. وهو خلق غريب لا يقوم به إلا من فطم على يد شيخ ناصح عن جميع شهوات الدنيا ورعونات نفسه، (٥٠ب) وقليل من فطم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الفقير في صحبة الأمير لله أن يفرح كل الفرح إذا تحول عنه أميره إلى أحد من أقرانه وصار ينقصه[٤١٦] في المجالس ويقول: كانت صحبتي لهذا الرجل خطأ، ولو كنت أعرف أنه على هذا النقص العظيم من الرياء والنفاق ومحبة الدنيا ما صحبته. فعلم أنه متى تكدر من الفقير شعرة زائدة على الجزء البشري حين تحول أميره عن الاعتقاد فيه وأنكر عليه واجتمع على أحد من أقرانه، فهو غير صادق في دعوى الصحبة لله، انتهى. وهي ميزان تطيش على الذر، كما مرت الإشارة إليها في الكتاب، فزنوا بها نفوسكم تعرفوا صدقكم من كذبكم. وسمعته رحمه الله يقول: إذا تحول أميركم عنكم إلى أحد من أقرانكم فافرحوا، ولكن اسألوا الله لذلك القرين أن يحفظه من الآفات ويعينه على القيام بحق صحبته للأمير حتى يفارقه بموت أو غيره. وسمعته رحمه الله يقول: إذا دخل أمير في صحبتكم ثم رأيتم منه رائحة تغير اعتقاده فيكم فارفضوه عنكم. وإياكم أن تأمروه بالرجوع إلى اعتقاده فيكم بالصلاح فإن ذلك مما يزري بكم عنده، بل اظهروا العزة والغنى عنه[٤١٧] حسب طاقتكم فإن نفع كل الصاحبين لأخيه إنما يكون عند شدة [محبة][٤١٨] كل منهما للآخر. وتقدم في الكتاب [أنه][٤١٩] لا يجوز لفقير صحب أميراً أن يسامحه في إشراكه معه أحداً في[٤٢٠] (٥١أ) الصحبة والمحبة لما في ذلك من الغش. اللهم إلا أن يكون ذلك الفقير الذي أشركه معه في الصحبة أعرف منه بأسرار الشرائع[٤٢١] وآدابها، فمثل ذلك يجب على الفقير الأول عدم التكدر منه وأن يحسن اعتقاد ذلك الأمير فيه حسب طاقته، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شهودي دائماً فضل أميري الذي صحبني علي ببادئ الرأي، ولا أكاد أرى فضل نفسي عليه في وقت من الأوقات قياماً بواجب حق صحبته لعلمي بأني إذا رأيت فضلي عليه فقد ادعيت مقاماً في الكبر فوق كبر الأمير، وذلك معدود من فسق الفقراء.

[٤١٦] د: ينقضه.
[٤١٧] في ب زيادة: والقناعة.
[٤١٨] زيادة من ج د.
[٤١٩] زيادة من ب ج.
[٤٢٠] «في» مكرر في أ، وفي د: من.
[٤٢١] ب: الزائفة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يقبح على فقير أن يرى نفسه أفضل من الأمير الذي يتردد إليه، [لاسيما إن كان الأمير يحسن إليه][٤٢٢] وإلى عياله بالنقود والطعام والثياب وغير ذلك، كما هو الغالب في الفقراء الذين يصحبون الأمراء اليوم عكس حال الفقراء المتقدمين. فكان أحدهم يذوب من الحياء والخجل إذا زاره أمير ويقول لنفسه: يا فضيحتكي[٤٢٣] يوم القيامة من هذا الأمير حين يبدو الفضائح مع أنه كان لا يقبل من أميره هدية ولا يأكل له طعاماً مدة صحبته له، فبأي وجه يرى الفقير فضله على الأمير؟ بل لو تأمل الفقير لوجد نفسه أكثر كبراً من الأمير الذي يزوره، كما مرت الإشارة إليه آنفاً. وقد دخل علي بعض الأمراء من الصناجق زائراً فقلت (٥١ب) له: ألكم حاجة؟ فقال: نعم حاجة مهمة. فقلت له: ما هي؟ فقال: نظرت الليلة في صفاتي الخبيثة فوجدتها أخبث من صفات الكلاب، فتسألون الله تعالى لي[٤٢٤] أن يمن علي بصفة من صفاتهم، انتهى. فلينظر الفقير الذي يرى نفسه على الأمير في نفسه هل قالت مثل القول لأمير زارها وسألته في مثله أم لا يعرف حاله؟ انتهى. وسمعته يقول: يجب على الفقير إذا تردد إليه أحد من أمير أو غيره أن يحمله على المحامل الحسنة، كأن يحمله على أنه ما تردد إليه إلا ليحسن إليه بتعليم علم أو أدب أو ليبره بشيء من أمور الدنيا دون العكس، وأن تردده إليه وزيارته له محض فضل منه. ومتى رأى نفسه أهلاً لأن يتردد أحد إليها أو يزورها فقد خرج عن طريق القوم وانخرط في سلك المتكبرين. وسمعته يقول: يجب على الفقير شهود الكمال في كل من صحبه من أمير أو غيره، فإن تردد إليه رأى ذلك فضلاً منه، وإن لم يتردد إليه[٤٢٥] وجب حمله على أنه ما انقطع عن زيارته إلا لكثرة شهوده له في قلبه، فاكتفى بمشاهدته القلبية بما زاد على الجزء البشري عن رؤية ذاته بالبصر الظاهر، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إذا أكثر أحد من زيارتكم أو تركها بالكلية فاحملوه على المحامل الحسنة، كأن تحملوه في كثرة زيارته على كثرة محبته لكم وإن قصد بكثرة الزيارة[٤٢٦] (٥٢أ) زوال ما عندكم من الكبر ومداواتكم حين شهد منكم التكبر، كما أنه يجب عليكم أن تحملوه في ترك زيارته لكم على أنه شهد كمالكم وغنائكم عن زيارة مثله لما عندكم من العقل والعلم وهضم النفس، فرأى زيارته لكم كالعبث، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وتأدبوا مع أميركم ولا تروا نفسكم[٤٢٧] عليه في وقت من الأوقات قياماً بواجب حقه كما درج عليه سلفكم، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي سكوتي إذا شاورني أميري عن أمر يتعلق بمقام أحد من أقراني من كمال أو نقص، كما إذا قال لي إن: فلان أرسل يقول لي: استند إلي أنا أحمل حملتك وأخرجك من الحبس أو أحميك من أحد يسعى على وظيفتك مثلاً، فهل يقدر هذا على مثل ذلك حتى أستند إليه أم لا؟ فإن الفقير إذا قال: نعم أو لا،

[٤٢٢] ما بين المعقوفتين زيادة من ج.
[٤٢٣] د: فضيحتي.
[٤٢٤] «لي» ساقط من د.
[٤٢٥] «رأى ذلك فضلًا منه وإن لم يتردد إليه» ساقط من د.
[٤٢٦] «على كثرة محبته لكم وإن قصد بكثرة الزيارة» ساقط من ج.
[٤٢٧] د: نفوسكم.

فربما أخطأ فكان السكوت أولى. وربما حمل الأمير الفقير إذا قال له: فلاناً ليس بأهل لذلك على الحسد ومحبة انفراده هو[٤٢٨] بصحبته، فيحصل عنده ازدراء له.

وكان أخي أفضل الدين إذا سأله أحد من أصحابه عن مثل ذلك يرد الأمر إليه ويقول له: أنت[٤٢٩] تحسب اعتقادك، فلا أقول لك: أي ولا لا. وكذلك فعلت مع أمير له نحو عشر سنين كسيحاً حين قال لي: إن الفقير فلاناً قال لي: إن أعطيتني مائة دينار خلصتك من الكساح في (٥٢ب) هذا الوقت، فهل يقدر على مثل ذلك حتى أعطيه؟ فقلت له: أنت عند اعتقادك. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وقوموا بواجب حق إخوانكم في غيبتكم حسب طاقتكم، ولا تحبوا الانفراد بصحبة أميركم دونهم تندموا حين تنزل به مصيبة ويطلب منكم رفعها فلم تقدروا، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم تزكيتي نفسي عند أميري وذكر ما يرفعني عن مقام أقراني عنده، فإن الأمير ربما سفه عقلي فعدم النفع بي، بل أكتم عنه[٤٣٠] التحدث بما أعطاني الله تعالى من الزهد والورع والعفة والعلم حسب طاقتي حتى يكون هو الرافع لدرجتي من نفسه حين يشاهد مني أعمالاً وأحوالاً لم يجدها عند غيري. وهذا أمر قل من يتفطن له من الفقراء المغفلين فيصير يمدح نفسه بالعلم والعمل أول اجتماعه بالأمير ولا يلتفت إلى ما يرتب على ذلك من تزكية النفس والسعي في انطفاء نور الإخوان عند الأمير وهو جهل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تزكوا نفوسكم عند الأمير الذي تصحبونه فربما تبادر ذهن الأمير إلى نسبتكم لخفة[٤٣١] العقل، بل اكتموه مقامكم وافعلوا بين يديه الأفعال الزكية المرضية من زهد وورع وخشية وخوف من الله حتى يكون[٤٣٢] الأمير هو الذي يزكيكم، إما بنور حصل له في قلبه، (٥٣أ) وإما بكثرة تزكية الناس لكم. ثم إذا زكاكم فإياكم أن توافقوه على تلك التزكية، بل اهضموا نفوسكم كل الهضم بغير علة نفسانية كما درج عليه الصادقين قبلكم. وسمعته يقول: إذا علمتم من أميركم زيادة الاعتقاد فيكم كما هضمتم نفوسكم، فاظهروا له بعض الصفات التي تؤذن[٤٣٣] بتكبركم دفعاً للرياء والإعجاب من باب ارتكاب أخف المفسدتين. وسمعته يقول: إذا صحبتم أميراً فإياكم أن تجرحوا[٤٣٤] أحداً من أقرانكم عنده خوفاً أن يصرف وجهه إليه دونكم، فإن الحق تعالى ربما جازاكم بمن يجرحكم[٤٣٥] عند الأمير حتى يصير أحدكم عنده كخرقة الحيض في القذارة والدنس. فإن الله تعالى حكم عدل وعليكم بذكر محاسن إخوانكم عند الأمير

[٤٢٨] أ: وهو.
[٤٢٩] «أنت» مكرر في ب.
[٤٣٠] أ: عن.
[٤٣١] أ: لحقه.
[٤٣٢] أ: لا يكون.
[٤٣٣] أ: توذون.
[٤٣٤] ب ج: تخرج.
[٤٣٥] ب ج: يخرجكم.

حسب طاقتكم تخرجوا من صحبته سالمين غانمين محفوظين من تجريح أحد من أعدائكم فيكم عنده إن شاء تعالى، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان[٤٣٦] واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة فرحي بتحويل أميري عني بعد شدة الاعتقاد التي كانت لي في قلبه كما مرت الإشارة إليه، وهو مقام عزيز لا يتحقق به إلا من كان زاهداً في الدنيا وشهواتها وقليل ما هم. وقد ادعى بعض الإخوان هذا المقام مع أميره حين كان شديد الاعتقاد فيه حتى أنه كان يدخل على عياله بغير إذن، فلما تحول (٥٣ب) اعتقاد الأمير فيه واجتمع على غيره ظهر عليه الحزن والتكدر قهراً عليه. فقلت: أين ادعاؤك الصحبة لله؟ فلو أنك كنت صادقاً في زهدك في الدنيا لم تتغير منك شعرة زائدة على الجزء البشري لأجل اعتقاد الأمير عنك. فما درى ما يقول. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وإياكم أن تدعوا مقام فرحكم بتحويل اعتقاد أميركم فيكم قبل أن تحكموا مقام الزهد في الدنيا والعفة عن شهواتها خوفاً أن يتغير عليكم الحكم فتفتضحوا، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم بدأتي بالتعرف بأمير أو قاض دخل بلدي عملاً بما درج عليه السلف الصالح في ذلك، اللهم إلا أن يخبرني من أثق به أن ذلك الأمير وذلك[٤٣٧] القاضي قد عزم على الاجتماع بي، فحينئذ يكون بدأتي بالسلام عليه والتعرف به أولى من وجوه لا تخفى على حاذق.[٤٣٨] وقد فعلت بهذا الخلق مرات مع باشاة[٤٣٩] مصر ودفاترها وقضاة عساكرها، فلا أزور أحداً منهم إلا بعد أن يرسل لي يسألني الإذن في الاجتماع به وبعد أن أقول له: أرسلولي قاصدكم في الوقت الذي تريدون الاجتماع بي، خوفاً أن أذهب إليه في وقت لا يريدون الاجتماع بي فيه فأرجع في حياء وخجل، بخلاف ما إذا أرسلوا لي قاصدهم فإني أذهب إليه حينئذ وأقول له: أنا فلان الذي كنتم عزمتم (٥٤أ) على زيارته وقد أتيت لكم بما كان يحصل لكم مني أو ذهبتم إلي. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تبدأوا بالتقرب بأحد من الولاة إلا بطريق شرعي، فقد كان السلف الصالح يقولون: من علامة عقل الرجل أن لا يتعرف لمن لا يعرف وأن ينكر معرفة من يعرفه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي مسارقتي[٤٤٠] لأميري في النصح بطريق خفي لا يكاد يلحق به الحاضرون خوفاً أن أخجله بين الناس إذ النصح من لازمه إلحاق النقص والجرح بالمنصوح عند كل حاذق. ومن هنا قالوا: من نصح[٤٤١] أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن نصحه جهراً فقد نصحه وشأنه، انتهى. وربما نفرت نفس الأمير من الفقير إذا فتح باب اطلاع الناس على معايبه التي سترها الله عليه طول عمره وقال ولو في نفسه: ما كان لي حاجة باجتماعي بهذا الفقير فإنه هتكني بين أعدائي. فليحذر الفقير الذي ينصح الأمير من أن يلحق أحد بنصحه له ولينصحه سراً، والحمد لله رب العالمين.

[٤٣٦] «أيها الإخوان» ساقط من ب ج.
[٤٣٧] المقصود: أو ذلك.
[٤٣٨] «على حاذق» ساقط من د.
[٤٣٩] ج: باشات.
[٤٤٠] ج: مسارقتي.
[٤٤١] أ: نصحه.

ومما من الله تعالى به علي عدم إجابتي أميراً أو عاملاً إلى صحبتي إلا إن علمت من نفسي أن الله تعالى قدرني على حمايته ممن يزيد في خراج بلاده أو جهاته السلطانية. فإن لم يقدرني الله على ذلك لم أجبه للصحبة إذ لا فائدة في التجاء (٥٤ب) الأمير والعامل للفقير إلا أن يحميه بدعائه وتوجهه إلى الله ممن يؤذيه بغير حق، لاسيما من يزيد[٤٤٢] في خراج البلاد أو الجهات التي تحت يده، فإن ذلك ضرراً على الأمير وعلى من زاد عليه وعلى الرعية.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يصحب أميراً أو عاملاً أو غيرهما من حواشي السلطان إلا إذا علم من نفسه القدرة بإذن الله على حمايته ممن يزيد في جهاته أو يريد أخذ وظيفته، كما جرت عليه عادة الأشياخ الذين مضوا. فربما أراد أحد أن يؤذي أحداً من أصحاب أحدهم فيجد عليه سوراً من حديد لا باب له مكتوباً عليه [اسم][٤٤٣] شيخ ذلك الأمير، كما وقع لسيدي مدين مع بعض الأمراء الذين صحبوه وصار يكرر قوله تعالى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانا﴾[٤٤٤] فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تجيبوا أميراً أو عاملاً إلى الصحبة إلا إذا قدركم[٤٤٥] الله على حمايته من الآفات المعلقة في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي مراعاة خاطر أميري مثل شعرة واحدة من جلد ثور ومراعاة مصالح رعيته بمثل بقية الشعر من ذلك الجلد خلاف ما عليه بعض الفقراء المغفلين، فيراعون رعية أميرهم بشعرة واحدة من جلد الثور ويراعون أميرهم بمثل بقية شعره. فيحتاج (٥٥أ) صاحب هذا المقام إلى أن يكون زاهداً في الدنيا دائراً مع مرضات الله لا مع مرضات الخلق، وإلا فمن لازمه تقديم مرضات أميره على مرضات[٤٤٦] رعيته.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: يحتاج من يطلب [أن][٤٤٧] يكون ميزان عدالة بين الأمير الذي يصحبه وبين المظلومين من رعيته إلى علم وافر وسياسة تامة وإحكام مقام الزهد في الدنيا، وإلا فربما وقع في الجور والمشي بالأغراض النفسانية، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وادخلوا إلى هذا المقام من بابه الذي ذكرناه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي مراعاة حفظ مقامي عند الأمير الذي أصحبه إذا كان قليل الفهم والمعرفة لأحوال الفقراء الصادقين. فإذا أرسل لي هدية من حلال وعلمت أن الله تعالى قسمها لي، فلا أبادر إلى قبولها لكن أردها إليه وأمسك قلبه عن التصرف فيها لغيري وقاية له عن التعب والعبث، فإنه لا بد من وصولها إلي على ما[٤٤٨] أعطاه كشفي. وهذا أولى ممن يبادر إلى الأخذ لما فيه من إظهار سقاطة النفس وشرهها.

[٤٤٢] أ: يريد.
[٤٤٣] زيادة من ب ج.
[٤٤٤] يوسف، ٦٥.
[٤٤٥] ب: أقدركم.
[٤٤٦] د: تقديم.
[٤٤٧] زيادة من ج.
[٤٤٨] «على ما» ساقط من د.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا أعطاكم أمير شيئاً من الدنيا وعرفتم حفظ مقامكم عنده من النقص بأخذه، فخذوه وكلوا منه وانتفعوا به إذا كان حلالاً، (٥٥ب) لاسيما إذا كنتم أحوج إليه من غيركم. فإن كان فيه شبهة أو كان غيركم أحوج إليه منكم فردوه عليه واستريحوا من ورطته، انتهى.

وكان أخي أفضل الدين إذا أعطاه أمير شيئاً ليفرقه على الفقراء لم يأخذ لنفسه منه شيئاً، وربما خلط عليه شيئاً من ماله وفرقه وأظهر أنه كله من مال الأمير، وربما لاث به بعض الناس ونسبه إلى أنه اختلس منه شيئاً لنفسه فيبتسم عند ذلك ويظهر على وجهه السرور لأجل إسراره الصدقة. وهو أمر لا يفعله إلا من يراعي وجه الله الكريم فقط دون الخلق.

ورأيت سيدي علياً الخواص رحمه الله لا يقبل هدية أمير رآها حلالاً إلا بعد توجهه إلى الله أن أحداً من الأقران لا يعلم بها خوفاً من وقوعهم في الإثم بلوثهم به وخوفاً على العامة من اتباعهم له في ذلك بغير علم، فيكتب من الأئمة المضلين، انتهى. وسمعته رضي الله[449] عنه يقول: إذا خفتم من العجب على أنفسكم إذا أطبق الناس على جلالتكم ورفعوا مقامكم بكثرة ورعكم وزهدكم في هدايا الأمراء وغيرهم، فمن العقل تظاهركم بالقبول لها ثم صرفها سراً إلى المحاويج إلى مثلها. فكما أن من العقل إذا رأيتم الناس قد أطبقوا على عدم الورع وكثرة قبول هدايا الأمراء أن تردوا[450] هداياهم قياماً بواجب الشرع، فإن الورع ركن من أركان الدين. (٥٦أ) فإذا مالأ[451] الناس على هدمه ضعف مراعاة خوف الإعجاب من الرد، ولكن يحتاج صاحب هذا المقام إلى علم وافر واجتهاد تام يرجح به أحد الجانبين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم ترجيحي لأميري في المحبة على عدوه إلا بطريق شرعي. فإن كان أحدهما ظالماً على الآخر كنت مع المظلوم منهما، وإن كان أحدهما أكثر طاعة لله كان أحب إلي من الآخر. وهو خلق غريب لا يصح إلا لمن فطم عن الدنيا وشهواتها وتعفف عن مال الأميرين.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من شرط الفقير الصادق أن لا يدخل في صحبة[452] أمير إلا بعد أن يشرط عليه أن لا يحجر عليه في محبة عدوه أو كراهة صديقه، فيوالي من والاه ويعادي من عاداه بغير طريق شرعي، لأن مقام الفقير يجل عن دخوله في تحجير أمير عليه من غير غرض شرعي. بل يجب على الأمير أن يطلق الأمر للفقير [و][453] لو لم يطلب منه الفقير [ذلك، فقد يرى الفقير][454] أن إظهار المحبة لعدو أميره أرضى عند الله وأقرب إلى تحصيل الوفاق بينهما. فإن أحد الأميرين إن لم يكن ينزه الفقير عن المشي بالعصبية والأغراض النفسانية، فليس للفقير أن يصحبه لعجزه حينئذ عن أن يوافق بينهما، بل يحتاج هو إلى واسطة يصلح بينهما وبين من نسبه إلى العصبية.

[449] «رضي الله» ساقط من ج.
[450] أ: يرد.
[451] ج د: تمالأ.
[452] أ: صحبته.
[453] ساقط من أ.
[454] ما بين المعقوفتين زيادة من ب ج.

وسمعت (٥٦ب) سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من لم يكن أحذر من الغراب فليس له أن يتوسط في الصلح بين خصمين. فإن من شرط المصلح بين الناس أن يظن كل من الخصمين أنه معه على خصمه وأنه يحبه أكثر منه من حسن سياسته، كما أشار إليه قوله تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[٤٥٥] فإن الله تعالى لم يرد عليهم قولهم: إنا معكم، وإنما رد عليهم صفة الاستهزاء بقوله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٤٥٦] فلولا الاستهزاء لكان قولهم: إنا معكم مداراة[٤٥٧] وهي محمودة شرعاً، بخلاف المداهنة. وقد فرق العلماء بينهما بأن المداراة تطيب خاطر الناس بإسقاط الإنسان شطراً[٤٥٨] من دنياه والمداهنة تطييبه لخواطرهم بشطر من دينهم، وذلك مذموم شرعاً.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يجيب أميراً إلى الصحبة إلا إن كان الأمير يعتقد محبته له كمحبته الوالدة، فإنها لا تشير على ولدها بشيء تراه يحصل له به سوء أبداً. فإن لم يكن كذلك فلا ينبغي له[٤٥٩] صحبته لكونه يرجح[٤٦٠] عقله ومعرفته بالأمور حينئذ على عقل الفقير ومعرفته، وينسب الفقير إلى أنه مغفل لا يدري ما يراد منه. وسمعته يقول: كل أمير لا يعتقد في الفقير أنه أعرف منه بأمور الدنيا والآخرة وأعرف بمرضات الله وأبعد عن الحظوظ النفسانية، فليس (٥٧أ) للفقير صحبته لتصرم حباله ولو على طول، انتهى.[٤٦١] وسمعته يقول: من جهل الفقير إظهار التعصب لأميره على عدوه بغير طريق شرعي، إذ الفقير الصادق لا يمشي قط بالعصبية بين اثنين وإنما هو دائر مع مرضات الله، فكل من كان منهما أكثر طاعة لله كان معه بكل شعرة في جسده، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وزنوا كل من صحبتموه من الأمراء بهذا الميزان لتعرفوا ربحكم من خسرانكم في صحبته، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً للصحبة إلا إن غلب على ظني أنه لا يريد التحجير علي في إظهاري[٤٦٢] محبة عدوه ومدحه وكثرة الدعاء له، كما مرت الإشارة إليه قريباً، فإن الفقير دائر مع مرضاة الله لا مع الأغراض النفسانية، فإن رأى أميره ظالماً كان عليه أو عدوه ظالماً كان عليه وإن رأى[٤٦٣] الأمير بالعكس كان مع المظلوم منهما، وربما ضحك في وجه الظالم وهو يتوجه إلى الله تعالى في عزله[٤٦٤] وكفه عن ظلمه بالقلب والقالب. فعلم أنه متى غلب على ظني أنه يطلب مني عدم محبة عدوه والثناء عليه لم أصحبه ولو كان على

[٤٥٥] البقرة، ١٤.
[٤٥٦] البقرة، ١٥.
[٤٥٧] أ: مدارة.
[٤٥٨] أ: سطر.
[٤٥٩] «له» ساقط من د.
[٤٦٠] ج: ترجح.
[٤٦١] في د زيادة: والله أعلم.
[٤٦٢] ج: إظهار، د: إظهاره.
[٤٦٣] «أميره ظالماً كان عليه أو عدوه ظالماً كان عليه وإن رأى» ساقط من ج.
[٤٦٤] «عزله» ساقط من ج، وهناك بياض.

عبادة الثقلين، لأن منصب الفقراء يجل عن أن يكون أحد منهما تحت حكم أحد من أبناء الدنيا فيما يريدونه من الحظوظ النفسانية.

وسمعت سيدي علياً الخواص (٥٧ب) رحمه الله يقول: إياكم أن تدخلوا في صحبة أمير وهو يرجح محبة الذهب على التراب للأغراض النفسانية إلا إن كان يدخل تحت حكمكم. ومتى طلب منكم أن توالوا[٤٦٥] من والاه وتعادوا من عاداه بغير طريق شرعي، فارفضوه وابعدوا عن صحبته. وهذا خلق غريب لا يقدر على العمل به إلا من أحكم مقام الزهد في الدنيا وصار جميع أبنائها الذين يعرفونه تحت طاعته لما يرون من علو مقامه وكثرة ورعه وعفته. وأما من يحب الدنيا فمن لازمه غالباً عدم انقيادهم له لشهودهم أنه كأحدهم في محبة الدنيا لاسيما إن كان الأمير الذي صحبه يحسن إليه، فإن الفقير يصير تحت حكمه كآحاد عبيده. وقد صحبني أمير فطلب مني أن أظهر الكراهة لعدوه، فقلبت ذلك وصرت أظهر محبته والدعاء له بأن الله تعالى يجعله من أكابر أوليائه، حتى أصلح الله حالهم وجاء إلى[٤٦٦] الأمير وأظهر محبته ودخل تحت طاعته وكأن تلك العداوة لم تكن، وهي سياسة يجب العمل بها على كل فقير، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي مسارقة[٤٦٧] الأمير الذي صحبني بالكشف له عما انطوت عليه ذاته من الخبائث شيئاً فشيئاً حتى يصير يرى نفسه من جملة الفسقة الذين يخشى عليهم الخسف والمسخ، وذلك ليستريح في نفسه ويدخل الراحة على كل من صحبه (٥٨أ) ويخرج عن مقام المتكبرين تخلقاً بأخلاق أئمة العدل من[٤٦٨] السلف الصالح. فقد كان بعضهم يرى عدم الخسف به والمسخ لصورته من أكبر نعم الله عليه، وكان إذا رأى من عبده نقصاً وسوء أدب يقول: ما أشبهك بحال سيدك مع مولاه جل وعلا. وكانوا يمنعون عبيدهم أن يقوموا بين أيديهم ويظهرون الكراهة لذلك حتى كان عبيدهم لا يقوموا لهم إذا مروا بهم لما يعلمون من شدة كراهتهم للقيام لهم. وكان أحدكم يصب الماء على يد عبده بعد الأكل، فإذا منعه عبده من ذلك يقول له: قال رسول الله ﷺ: سيد القوم خادمهم، فلا تمنعني مما يجعلني سيداً عليك، فيرضى العبد.[٤٦٩] وإن وقع أن عبده صب على يد سيده الماء عكس هذا المشهد وشهد السيادة لعبده عليه، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا صحبتم أميراً فإياكم أن تقروه على محبة التعظيم له والقيام بين يديه فيتبوأ بذلك مقعده من النار كما ورد في الصحيح من قوله ﷺ: من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار، انتهى. فعلق ﷺ دخوله النار وربط ذلك بمجرد محبته للقيام بين يديه، وإن لم يقوموا فليكن الأمير الذي يحب أن يقوم الناس بين يديه على حذر من دخول النار، (٥٨ب) ولا يخرج عن ذلك إلا إن صار يكره القيام له أشد الكراهة، انتهى. وسمعته يقول: إذا غلب على ظنكم محبة أحد للقيام له لغير غرض

[٤٦٥] أ: تولوا.
[٤٦٦] ج: إلي.
[٤٦٧] ج: مشارقة.
[٤٦٨] «من» مكرر في أ.
[٤٦٩] د: فيرضى لعبده بذلك.

شرعي ولم تخافوا شره حرم عليكم القيام له وصرتم شركاء له في الإثم، وإن غلب على ظنكم محبته للقيام له[٤٧٠] بغرض شرعي، فقوموا له ولا حرج، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تصحبوا أميراً صغي إلى قول النصابين له: إنك من الصالحين وأنت عندنا أصلح من غالب مشايخ هذا الزمان. فإن من صغي إلى مثل ذلك عدم الانتفاع بمشايخ عصره من أمثالكم وفسد حاله بالكلية، كما رأيناه من بعض الأمراء المتعبدين بالصدقات والخيرات[٤٧١] كبناء[٤٧٢] المساجد ونحو ذلك، انتهى. وقد[٤٧٣] فعلت بهذا الخلق كثيراً مع[٤٧٤] الصناجق والكشاف ومشايخ العرب، فلم أزل أسارق أحدهم بتعليمه التواضع وأكشف عما في ذاته من الخبائث التي لو اطلع الناس عليها لرجموه. وهو خلق لا يقدر على العمل به من الفقراء إلا قليل، وغالبهم لا يكاد ينطق بكلمة واحدة تكشف لأميره عن شيء من عيوبه لفساد نيته التي دخل بها في صحبته، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي إلا بعد أن أخبره أن البلايا والمحن أسرع[٤٧٥] إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه، فإن انشرح إلى ذلك[٤٧٦] صحبته وإلا تركته. وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي صلى الله (٥٩أ) عليه وسلم: يا رسول الله إني أحبك. فقال: إن كنت تحبني فاعد للفقير تجفاف[٤٧٧] أي يثق به، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه، انتهى. والفقراء على الأخلاق النبوية، فكل من صدق في محبتهم جاءته البلايا والمحن ونقصت درجاته الدنيوية وكملت درجاته الأخروية، بخلاف من لم يصدق في محبتهم فإن الدينار بها صبت عليه صباً عقوبة له على قلة محبته لمن يرشده لمصالح دنياه وآخرته. وهذا أمر يخفى على كثير من الأمراء فيزداد محبة في الفقير إذا اتسعت عليه الدنيا أيام صحبته له وترتحل[٤٧٨] محبته من قلبه إذا ضاقت عليه الدنيا أيام صحبته،[٤٧٩] وهو جهل وغرور.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من شأن الفقير الصادق أن يحمي كل من صحبه عن الدنيا وشهواتها كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة تخلقاً بأخلاق الله عز وجل. فقد ورد: أن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه، الحديث. وكما أن الحق جل وعلا إذا أحب عبداً صب عليه البلاء صباً، فكذلك الفقير إذا أحب الأمير يصير يفرح بنزول البلايا والمحن والمصائب به محبة فيه وطلباً لعلو درجاته في الآخرة. فليدخل الأمير الصادق في صحبة الفقير وهو على حذر من تحول (٥٩ب) النعم

[٤٧٠] «في الإثم، وإن غلب على ظنكم محبته للقيام له» ساقط من ج.
[٤٧١] د: الخيرات والصدقات.
[٤٧٢] أ: كابناء.
[٤٧٣] «وقد» ساقط من ج.
[٤٧٤] «مع» ساقط من ب.
[٤٧٥] ج: وأسرع.
[٤٧٦] ج د: لذلك.
[٤٧٧] ج د: تجفافا.
[٤٧٨] ج: ويرحل.
[٤٧٩] أ: محبته.

الدنيوية عنه بدعاء الفقير فيما بينه وبين الله. فإنه ربما ضحك في وجه الأمير وأراه أنه يحب له ما يحب[٤٨٠] هو لنفسه من الدنيا، والحال أن قلبه متوجه إلى الله في حرمانه من شهوات الدنيا رحمة به وطلباً لخفة حسابه في الآخرة. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واصدقوا في محبة الفقير إن طلبتم كثرة الأجر الأخروي، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى صحبتي إلا إن بايعني على الصبر على ما يؤذيه به أعداؤه [و][٤٨١]على عدم إظهار الشماتة بعدوه إذا أنزلت به مصيبة، فإن لم يبايعني على ذلك لم أصحبه. وذلك لعلمي بأنه يطلبني بنصرته على أعدائه، وأنا أعلم وأتحقق أن من لم يصبر على أعدائه ولا عن إظهار الشماتة بهم لا يكون الحق تعالى معه، ومن لم يكن الحق معه فهو مخذول. فإن الله تعالى ذكر أنه مع الصابرين يعني الذين لم يقابلوا من آذاهم[٤٨٢] بالأذى ولم يضجروا ولم يساموا من طول صبرهم على العبادات التي كلفهم الله تعالى بها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى[٤٨٣] يقول: من قابل عدوه بالأذى ولو بالدعاء عليه فيما بينه وبين الله خلفت[٤٨٤] عنه النصرة الإلهية وكان الشيطان وليه، ولا ينبغي لعاقل أن يصحب من كان الشيطان وليه دون الله عز وجل، انتهى. وسمعته (٦٠أ) يقول: كل فقير صحب أميراً وسامحه بمقابلة عدوه بالأذى وإظهار الشماتة به إذا نزلت به مصيبة فقد كلف نفسه بصحبته له شططاً ولا يقدر يساعده بذرة واحدة على عدوه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واشرطوا مثل ذلك على كل أمير صحبتموه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي كوني أطعم الأمير الذي صحبني كلما ورد علي وأكسوه من ثيابي كل قليل ولا أذوق له طعاماً ولا ألبس له ثياباً إظهاراً لشرف نفوس الفقراء الصادقين وإعلاماً بأن لهم اليد على الأمراء دون العكس، وهو خلق غريب في هذا الزمان. وغالب من يصحب الأمراء يكون بالعكس من ذلك، فيأكل من طعام الأمير ويلبس من ثيابه دون العكس. وقد ألبست من الأمراء والمباشرين والتجار والكشاف ومشايخ العرب ما لا أحصي من الأموات والأحياء، فمن الأموات جماعة يزيدون على مائة وخمسين نفساً فمنهم الأمير محمد الدفتردار والأمير اسكندر الكاشف بالغربية ومحمد بن بغداد وعامر بن بغداد وعبد الله بن بغداد،[٤٨٥] ومن الأحياء جماعة يزيدون على مائة منهم الأمير عثمان الباشاة ببلاد الحبشة كسوة صوفاً أهداها لي السلطان سليم، ومنهم الأمير حسن الصنجق ناظر دشيشة الخاصكية، ومنهم الأمير خضر أمير الحاج كسوته (٦٠ب) مرقعتي لما سافر إلى بلاد السلطان، ومنهم الأمير حسن بن بغداد كسوته جبة حمراء، ومنهم الأمير محمد رأس كتاب ديوان الجيش، ومنهم الأمير محمد بن داود. وأما كسوة من صحبني من الفقهاء والفقراء والتجار والمباشرين وشيوخ البلاد فلا أقدر أحصيها فلله الحمد على ذلك. فإنه أمر قل أن يقع من فقير في هذا الزمان

[٤٨٠] د: يحبه.
[٤٨١] زيادة من ج د.
[٤٨٢] «من آذاهم» ساقط من د.
[٤٨٣] «تعالى» ساقط من د.
[٤٨٤] ج د: تخلفت.
[٤٨٥] «وعامر بن بغداد وعبد الله بن بغداد» ساقط من ب ج.

وغالب الفقراء بالعكس من هذا الخلق، فيأكلون أطعمة الأمراء وهداياهم ويكتسون من ثيابهم ولا يكسون أحداً منهم ثوباً واحداً إلا في النادر.[٤٨٦] فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني إذا تعففت عن مال أمير أشرط عليه أن لا يعطي أحداً من أصحابي[٤٨٧] أو أولادي شيئاً على وجه الإكرام لي من غير علمي، فإن حكم ذلك حكم قبولي بره وإحسانه على حد سواء من حيث المنة. فإنه لولا وجودي ما أعطاهم شيئاً من ذلك فكأني لم أتورع عن ماله. وهذا قد يقع في مخالفته كثير من الفقراء[٤٨٨] المغفلين فيصير كل شيء لم يقبله من الأمير يقبله أولاده وأصحابه، وربما شاركهم فيما يأخذونه من الأمير باطناً كما عليه النصابون. فليحذر الفقير من مسامحته أصحابه في مثل ذلك، وليعلم الأمير أنه متى أعطى أصحابه شيئاً من الدنيا (٦١أ) بغير إذنه نقص صحبته. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا[٤٨٩] عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي عدم تخصيصي الشفاعة عند أميري بأصدقائي دون أعدائي خوفاً على نقص أجر أميري، ولو كان ذلك مخالفة أغراضي النفسانية. بل أنا بحمد الله أرى الشفاعة عنده في عدوي آكد من شفاعتي لصديقي تبعاً لمن أدركته من المشايخ كالشيخ محمد الشناوي رحمه الله، فكان يقول: كل يوم أحتاج فيه إلي عدوي فهو عندي [يوم][٤٩٠] عيد، انتهى، لاسيما إن كان عدوي مظلوماً. وهذا خلق يخل به كثير من الفقراء، فربما خفت عليه الشفاعة عند أميره في صديقه دون عدوه، وهو علامة على نقص الإيمان، إذ المسلمون كلهم في الحق عند المؤمن على حد سواء، ولا ينبغي به ترجيح أحد منهم في المحبة إلا بوجه شرعي خارج عن حكم الطبع.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من كمال الشفاعة أن ترجع الظلامة بالكلية كما يفعله الكشاف ومشايخ العرب من حبسهم شخصاً من البلد حتى يعمر أهلها الخارجون منها أو يروون أرضها بالنيل [أو حتى][٤٩١] يزرعوا أو حتى يغلقوا الخراج ونحو ذلك. فإن الفقير ربما ينتفع في هذا المحبوس عند أميره فقبل شفاعته وأفرج عنه ثم أمسك مكانه شخصاً آخر وحبسه رهينة. فمثل هذه الشفاعة (٦١ب) ناقصة، وكأنه لم يقبل به شفاعة، اللهم إلا أن يكون المحبوس الذي قبلت شفاعة الفقير فيه أولاً ذا عيال أو فقير والثاني[٤٩٢] قاطع طريق أو تارك صلاة ونحو ذلك، كما عليه أهل الفساد. فمثل ذلك لا بأس به كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب الأخلاق، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً إلى الصحبة إذا طلبها مني إلا إن غلب على ظني أنه يراني في مقام غناء النفس كبعض الملوك وأكثر لأن بعض الملوك ربما مات وهو يطلب المزيد في الدنيا، والفقير قد وقف

[٤٨٦] أ: النار.
[٤٨٧] د: أصحابنا.
[٤٨٨] «كثير من الفقراء» مكرر في أ.
[٤٨٩] في ب زيادة: ذلك أيها الإخوان.
[٤٩٠] زيادة من ج.
[٤٩١] زياد من ج، أ: ويزرعوا، و«حتى» ساقط من د.
[٤٩٢] ج: أو الثاني.

على حد القناعة فلا يطلب مزيداً عليها. ولذلك[٤٩٣] ورد: القناعة كنز لا ينفد، أي يفرغ ويفني، مع أن من شأن الفقير أن لا يرى في الدنيا شيئاً يصح دخوله في ملكه مع الله أبداً، كما مرت الإشارة إليه. فلذلك امتنع منه طلب المزيد من الدنيا فوق حاجته، فلا فرق عنده بين كون جميع أموال الدنيا في يده أو في يد أربابها على حد سواء. ومن هو كذلك فهو أغنى نفساً من غالب الملوك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة كون الأمير يعرف مقام الفقير في غناء النفس أن لا يحمل همه إذا رآه ضيق المعيشة هو وعياله ومتى حمل له هماً أو أرسل له شيئاً من نقد أو طعاماً أو ثياباً، فهو لم يعرف (٦٢أ) مقام الفقير في غناء النفس فاستحق بذلك نقص عقد[٤٩٤] الصحبة، فلا يلومن[٤٩٥] إلا نفسه إذا طرده الفقير عن صحبته لأجل ما أرسله إلى زاويته أو بيته من الهدايا والافتقادات لأن الفقير ما طرده إلا بعد حصول أمارات شهوده نقص الفقير، وإنما ترك الدنيا وضاقت عليه المعيشة اضطراراً لا اختياراً. وسمعته يقول: متى غلب على ظن الفقير اعتقاد الأمير فيه أنه لم يرد الدنيا إذا عرضها الناس عليه إلا رياء وتصنعاً أو ليصطاد به ما هو أكثر منها كما عليه النصابون والشحاذون، فطرد الفقير له واجب لانحطاط مقامه عنده، انتهى. وهذا خلق قد يخفى على كثير من الفقراء والأمراء، فيظن الفقير أن الأمير إنما افتقده بشيء من الدنيا لعلو مقامه عنده، ويظن الأمير بالفقير أنه ما[٤٩٦] يزداد محبة فيه إلا[٤٩٧] إذا افتقده بشيء من الهدايا والصدقات وكلاهما يخطئ[٤٩٨] في ظنه. فإن الفقير الصادق يظن في الأمير أنه لولا نقص مقامه عنده ما عرض عليه الدنيا التي خرج عنها وعن محبتها من أول قدم وضعه في الطريق، فلو أنه كان يرى كماله وزهده في الدنيا ما أرسل له شيئاً منها، كما أن الأمير لو كان يظن في الفقير أنه يزداد كراهة فيه إذا أرسل له شيئاً من الدنيا ما أرسل له ولا دخل عليه هماً ولا غماً بها، انتهى. وسمعته (٦٢ب) يقول: من[٤٩٩] علامة جهل الفقير ومحبته للدنيا أن يزداد في الأمير[٥٠٠] محبة كلما أحسن إليه، ومن علامة كثرة علمه وزهده وورعه[٥٠١] أن يزداد كراهته في الأمير كلما أرسل إليه شيئاً من الهدايا، انتهى. وسمعته يقول: من علامة صدق الأمير في محبة الفقير أن لا يرسل له شيئاً من الدنيا إلا لضرورة شرعية، خوفاً عليه أن يتدنس بذلك ويخرج عن مقام[٥٠٢] محبته ومحبة الله له كما أشار إليه حديث: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما [في][٥٠٣] أيدي[٥٠٤] الناس يحبك الناس. وقد قالوا: حكم الأمير إذا صحب الفقير حكم

[٤٩٣] ج: كذلك.
[٤٩٤] د: عهد.
[٤٩٥] د زيادة: الأمير.
[٤٩٦] «ما» ساقط من ج.
[٤٩٧] «إلا» ساقط من ج.
[٤٩٨] ج: مخطيء.
[٤٩٩] «من» ساقط من د.
أ: الفقير.
ب: زهده وورعه وعلمه.
د زيادة: ذلك.
زيادة من ب.
أ: أيد.

المريد الصادق مع شيخه، فكما أن المريد الصادق يغار على قلب شيخه أن يتدنس من الدنيا وشهواتها فيعدم النفع به، فكذلك الأمير الصادق من شأنه أن يغار على قلب شيخه أن يتدنس بما أرسل إليه من الدنيا عكس حال الأمير الكاذب في المحبة، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أجيب أميراً للصحبة إلا إذا غلب على ظني أنه لا يعتمد على واسطة غيري من أقراني بينه وبين الله تعالى. ومتى غلب على ظني أنه يعتمد في دوام ولايته مثلاً ودخوله فيها على غيري أو على وزن المال للولاة في دوام ولايته مثلاً أو دخوله فيها على غيري أو على (٦٣أ) وزن المال للولاة،[٥٠٥] لا أجيبه للصحبة أبداً طلباً لخلاصي ولخلاصه. بخلاف ما إذا جعلني واسطة له في توليته[٥٠٦] وظيفة مثلاً فإني أخلص ذمته منها بإذن الله تعالى حسب طاقتي، وأحل عقدتها من حضرة السماء قبل حضرة أهل الأرض، فيكون الولاة والرعية كلهم سائلون[٥٠٧] الله تعالى وسائلون الولاة أن يولوه[٥٠٨] بلا وزن فلوس، فلا يغرم إلا فلوس[٥٠٩] حلاوة الخلعة وحلاوة أهل الطبل خاصة الذين يزفونه إلى بيته لا غير. كما وقع لي مثل ذلك في ولاية الأمير محمد بن داود بن عمر عكس حال غيره من مشايخ العرب، فإنه حلف لي بالله تعالى أنه ليس معتمداً إلا على الفقراء دون الولاة ولم يزل يغرم للولاة المال من حين ولي[٥١٠] إلى وقتنا هذا، فتبين لي بذلك عدم صدقه في إظهاره لنا اعتماده على جعل الفقراء واسطة في ولايته.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل أمير ادعى أنه معتمد في ولايته على الفقراء ووزن في طريق ولايته مالاً أو زاد أحد عليه في مال خراج بلاده فهو كاذب في دعواه، وإنما هو معتمد على أبناء الدنيا وبذل الرشوة. فإياكم وصحبة مثله فإنه عار عليكم في الدنيا والآخرة، انتهى.[٥١١] فاعلموا ذلك أيها الإخوان.

ومما من الله تعالى به علي عدم ركوني الطبعي إلى الأمير الذي (٦٣ب) أصحبه وإنما أركن إليه الركون الشرعي، ولذلك لم يحصل لي أبداً تشويش إذا عزل ذلك الأمير أو حبس أو ضرب وزالت عنه النعمة، ولا قيل لي قط بعد عزله مثلاً أين ودائع الأمير التي أودعها عندك، عكس ما يقع لغالب الناس الذين يصحبون الأمراء ويركنون إليهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص [رحمه الله][٥١٢] يقول: يحصل الأذى لمن يصحب الأمراء[٥١٣] بقدر ركونه إليهم، فلو أن إنساناً صحبهم وحصل له تكدر[٥١٤] أو هم وغم وقال: أنا لم أركن إليهم، فكذبوه. فإن تكدره

«في دوام ولايته مثلًا أو دخوله فيها على غيري أو على وزن المال للولاة» ساقط من د.
أ: لتوليته.
د: سائلين.
ج: تولوه.
ج د: الفلوس.
ج: يولي، د: تولى.
«انتهى» ساقط من د.
ساقط من أ.
د: الأمير.
أ: نكد.

وغمه وهمه يغمز على ركونه إليهم قلة وكثرة، فمن ركن كثيراً حصل له الهم كثيراً ومن ركن[٥١٥] إليهم قليلاً أصابه الهم قليلاً، وهي ميزان تطيش على الذر. وقد استنبطنا هذا الخلق من قوله تعالى ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسكُمُ النَارُ﴾[٥١٦] وإن كانت الآية واردة في الكفار ولكن قد تشمل الذين ظلموا نفوسهم بالمعاصي من الموحدين، ويؤيد ذلك أيضاً الحس والتجربة. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واصحبوا الأمراء الذين يقعون في ظلم العباد من غير ركون بالطبع إليهم إن أردتم السلامة من تبعات صحبتهم، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي أني لا أحب الأمير الذي يهدي إلي الحلال اليسير من الدنيا إذا احتجت إلى مثل ذلك وترخصت إلى[٥١٧] قبول هدايا أميري أكثر ممن يهدي إلي الكثير،[٥١٨] لأن من أهدى (٦٤أ) إلي اليسير فقد سد خلتي ومن زادني من الدنيا فقد فتح علي باب الطغيان. وفي القرآن العظيم ﴿كَلا إِن الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٥١٩] وفي الحديث: في ذم الدنيا قليلها يكفي وكثيرها لا يغني.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة الفقير الصادق أن يحب كل من منعه من الدنيا أكثر ممن يعطيها له لأنه احتاط له ولأخيه، بخلاف من أكثر له من الدنيا فإنه منهور[٥٢٠] في حق نفسه وفي حق أخيه، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي سد الأبواب التي تصرف وجوه الناس إلي أكثر من أقراني حسب طاقتي، وإذا خفت من زيارة أمير لي لأجل شهرتي بالعلم والصلاح مثلاً، توجهت إلى الله عز وجل في أن يستر علمي وصلاحي عنه حتى لا يزورني. ولو بأن يقبض[٥٢١] عدواً يحط علي من[٥٢٢] عنده ويكثر في ذكر نقائصي رحمة بي وبه. فإني لست بعالم ولا صالح عند نفسي ولا لي قوة لتحمل شدائد الأمير التي يطلبها مني إذا اعتقدني وتردد إلي، بل ولا مشاركته[٥٢٣] في ذلك. وقد تردد[٥٢٤] شخص من أصحابي إلى بعض دفاتر مصر وباشاتها فقلت له: ما سبب ترددك للباشاة وللدفاتر؟ فقال: بلغني أنه يحب العلماء والصالحين فأحببت التعرف به. فقلت له: ولأي (٦٤ب) شيء تجعل أنت نفسك[٥٢٥] من العلماء الصالحين حتى أنه يحبك؟ فما درى ما يقول وخجل مني. فقال له ولدي عبد الرحمن: قل لوالدي: أنا ما ترددت إليه إلا لمحبته في العلماء والصالحين بقطع النظر عن كوني من العلماء والصالحين، فقال لي ذلك، فقلت له في أذنه: ليس هذا مقامك. فخجل ثانياً لأن هذا المقام لا يكون

د: أو ركن.
هود، ١١٣.
ج: في.
د: الكثيرة.
العلق، ٦.
: تهور.
في ب زيادة: لي عنده، ج: يقيض لي، د: يقيض.
«من» ساقط من ب د.
د: شاركته.
أ د: وقد تردد الي.
د: نفسك إنت.

إلا لمن أحكم مقام الزهد في الدنيا وصار دائراً مع مرضان الله لا مع أغراض نفسه واكتفى بعلم الله فيه ولم يطلب مقاماً في قلوب العباد وآثر إخوانه بالجاه الذي له في القلوب. وقد فعلت بهذا المقام مراراً حين عرفت عزم الأمير مصطفى باشا زبيد على زيارتي هو والأمير محمد الدفتردار، فتوجهت إلى الله تعالى في صرف قلبهما عن زيارتي إلا بنية صالحة ليس فيها تبعة علي ولا عليهما في الدنيا والآخرة، فلم يبق[٥٢٦] لهما زيارتي إلى وقتي هذا. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وإياكم أن تتظاهروا بالعلم والصلاح للأمراء والأكابر إلا وأحدكم متحفظ من الفتنة خوفاً أن يزوركم على اعتقاد العلم والصلاح فيكم، وأحدكم دون ما يعتقد لأجله في مقام العلم والصلاح، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي شدة خوفي على وقوع أميري بسببي في نقص دينه بطريق خفي، وذلك كأن أسأله[٥٢٧] شيئاً من الدنيا لفقير وأنا لا أعلم هل (٦٥أ) ينشرح صدره لذلك أو ينقبض، فيحصل له نقص دين إن أُعطى شيئاً بسيف الحياء وعدم ثواب إن منع. وربما تحولت عنه النعمة بسبب منعه، إذا كان الفقير شديد الحاجة غيرة من الله تعالى لذلك الفقير أو بسبب دعاء الفقير عليه ولا يخفى ما في ذلك من الإخلال بحق صحبة الأمير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: بلغنا أن الحق جل وعلا يرسل لبعض من خوله في نعمته بعض الفقراء المحتاجين ويلهمهم الإلحاح عليه في طلب شيء يثقل عليه بذله في ذلك الوقت، فيكون منعه للفقير سبباً لتحويل النعمة التي عليه كما وقع لابن الزرازيري بصعيد مصر. وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير صحب أميراً أن يسأله شيئاً من الدنيا لفقير إلا إن غلب على ظنه انشراح قلب الأمير لذلك وفرحه به، وإلا فترك السؤال أولى. وهذا أمر قد يخفى على كثير من الفقراء المغفلين الذين يصحبون الأمراء، فإن أحدهم ربما سأل أميره شيئاً لفقير فاستحى الأمير من رده وأعطاه بسيف الحياء من غير أن يتفطن الفقير لذلك، فسأل الأمير ثانياً وثالثاً فثقل على الأمير ونفرت نفسه منه، وربما تكرر من الأمير إعطائه للفقراء[٥٢٨] كلما سألوه فيه بواسطة شيخه واشتهر بذلك، فهرعت إليه الخلق فضجر وسئم وغضب على (٦٥ب) شيخه ولو بالباطن لقصور نظره. فإن الفقير لو كان شديد النظر لنظر إلى عاقبة ذلك وكف عن سؤال الأمير في كل شيء لم يغلب على ظنه انشراحه به من سائر نوافل الصدقات بخلاف واجباتها، فإنه لا يراعي انشراحه فيها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ينبغي لكل فقير صحب أميراً أن لا يسأله الدنيا لأحد ثاني مرة إلا إن رآه فرح وتهلل وجهه في المرة الأولى، وإلا فلا ينبغي له سؤاله ثانياً لأن الشارع ﷺ وصف الصدقة المقبولة بأن تكون نفس صاحبها طيبة بها وعينه بها[٥٢٩] قارة، ومن سأل أميره شيئاً لفقير ولم يغلب على ظنه كون نفسه به طيبة وعينه به قارة فقد عرضه لسوء المعاملة مع الله، انتهى. وسمعته يقول: إذا سألكم فقير أن تسألوا له أميركم في شيء من الدنيا وخفتم عدم انشراح الأمير بذلك فأعطوه أنتم ما يسأل[٥٣٠] وتعففوا عن سؤالكم

[٥٢٦] أ د: يبق.
[٥٢٧] أ: كان مياله.
[٥٢٨] ج: للفقير.
[٥٢٩] «بها» ساقط من د.
[٥٣٠] د: سأل.

لغيركم، ولو بأن تعطوه ثيابكم الزائدة عن ضرورتكم من عمامة وجوخة ومضربة ونحو ذلك، انتهى. وقد فعلت بحمد الله بهذا الخلق مراراً لا تحصى، فإذا سألني فقير أن أسأل له إخواني الأغنياء من الأمراء وغيرهم أعطيه ثيابي ولا أسأل له أحداً ممن غلب على ظني عدم انشراحه بذلك.

وهذا كان سبب شدة اعتقاد مولانا شيخ الإسلام (٦٦أ) عبد الرحمن قاضي العسكر في وتقديمي على كثير من أقراني حين حكى له بعض المديونين أني أعطيته جوختي الجديدة لما أراد بعض أصحاب الدين حبسه، ثم لما عملت لي جوخة أخرى بدلها أراد جماعة أن يحبسوه فأعطيتها له. فقال قاضي العسكر: هذا رجل قد انفرد في هذا الزمان بالعفة وعظم المروءة ولا أعلم له مشاركاً في مثل ذلك. انظروا إلى عظم[٥٣١] مروءته كيف يعطي المحتاج ثيابه ويتعفف عن سؤاله الخلق خوفاً أن يردوه فيحصل له الخجل ولهم الإثم، انتهى. وسمعته يقول: إياكم أن تدعوا أنكم من القوم ويشح أحدكم على فقير بشيء سألكم فيه مع كونه أحوج إليه منكم، فقد قالوا: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تسألوا أميركم شيئاً لفقير إلا إذا علمتم منه شدة فرحه لذلك وكثرة شكره لكم على ذلك السؤال، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تعالى به علي كثرة إرشادي للأمير الذي صحبني وتعليمي له الأدب مع جميع [أهل][٥٣٢] خرقة الفقر[٥٣٣] ولو كان أحدهم من أكبر أعدائي عرفاً، حتى أني لا أقره على ترجيحه لي في المقام على أحد منهم إلا بطريق شرعي، وهو مقام عزيز. وغالب الناس يسكت[٥٣٤] عن تعليم أميره الأدب مع أقرانه بل على الوقيعة في أعراضهم، كما مرت الإشارة إليه، وذلك مما يخرج به المؤمن إلى درجة الفسق.

(٦٦ب) وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا صحبكم أمير فعلموه الأدب مع من يبغضكم من أقرانكم فضلاً عن من يحبكم ولا تقروه على سوء أدب مع أحد منهم، فإن في ذلك ضرراً على دينكم وعلى دين أميركم. ولا تتركوا تعليمه الأدب إلا إذا بلغ فيه إلى حد يستحي من الله أن يقابل فقيراً أو يقبل يده أو يرسل له السلام لكثرة ما يشهده في ذاته ولسانه من الدنس والرجس ويقول في نفسه: كيف أواجه أحداً من أهل الله بوجه ولسان قد عصى ربه؟ انتهى. ومما رأيته على هذا القدم من قضاة العساكر القاضي درويش والقاضي نور الدين قاضي الخانقاة السرياقوسية، ومن الأمراء الأمير سليمان أغاة العزب[٥٣٥] الآن. فإنه قال لي: ادع الله لي أن يرزقني خلقاً من أخلاق الكلاب فإني نظرت في أخلاقي فوجدتها أخبث من أخلاق الكلاب،[٥٣٦] انتهى. فإذا وصل أميركم إلى هذا الحد من الأدب مع الفقراء فاتركوه إن شئتم أو رقوه إلى ما هو أعلى من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

أ: أعظم.
ساقط من أ.
: الفقراء.
ج: ربما يسكت.
٥٣٥ ب: المغرب، ج: الغرب.
«فإني نظرت في أخلاقي فوجدتها أخبث من أخلاق الكلاب» ساقط من ج.

خاتمة في ذكر جملة من أدب الأمير مع الفقير ذكرناها تتميماً للفائدة فكما تأدب الفقير مع الأمير كذلك ينبغي أن يتأدب الأمير مع الفقير. إذا علمت بذلك فأقول وبالله التوفيق:

من أدب الأمير مع الفقير أن يراه في عينه أعظم حرمة من بعض ملوك الدنيا كما تقدمت (٦٧أ) الإشارة إليه أول هذا القسم، وإن قدر أنه أحسن إلى الفقير أو جماعته بالمال الجزيل يراه في عينه أحقر ما يكون بالنظر لما يطلبه[٥٣٧] من الفقير من الأخذ بيده في الشدائد وكثرة توجهه إلى الله تعالى في حفظه من الآفات التي تصيبه في جسمه ودينه ودنياه. فإن من شأن الفقير إذا صحب أميراً أن لا يفارقه حتى يجاوز[٥٣٨] الصراط، فليحذر الأمير في[٥٣٩] شهوده[٥٤٠] فضله على الفقير بما يرسله إلى زاويته مثلاً من قمح أو عدس أو عسل أو جبن ونحو ذلك، فإن ذلك بالنسبة لما يتحمله الفقير من أجله في الدنيا والآخرة كذرة من تراب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تطلبوا من فقير سرعة قضاء حوائجكم وأحدكم مستهين بجنابه فإن ذلك خطأ وجهل، فإن سرعة قضاء الحوائج إنما تكون[٥٤١] تبعاً لشدة تعظيم الفقير وشدة الاعتقاد فيه بحيث تصير كل شعرة فيكم تشهد له بأن الله تعالى لا يرد دعائه في شيء طلبه منه، فإن حصل لكم ذلك فاطلبوا منه سرعة قضاء حوائجكم، وإلا فلا تلومون إلا أنفسكم، انتهى. وسمعته يقول: مقام الشيخ يجل عن أن يرى عظمة مقامه عند الله وإنما هو دائماً يشهد نفسه من جملة العصاة المطرودين عن الله تعالى، فمن أراد من فقير قضاء حاجة عند الله فليعتقد ولايته وعظمته، وإلا فلا (٦٧ب) يصح أن يُقضى له على يده حاجة ولو كان من الأقطاب. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وعظموا شيخكم ثم اطلبوا منه قضاء حوائجكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يتحكم عليه بأن يقبل هديته أو يأكل من طعامه أو يشرب من شرابه أو يلبس من لباسه أو يتطيب من طيبه أو يشم من ريحانه أو يتدهن بدهنه أو يركب من مركوبه أو يتفرج معه في بستان أو يوصي عليه السلطان ونحو ذلك لما فيه من سوء الأدب. وقد شم بعض الفقراء ريحاناً من يد أميره، فقسا قلبه مدة طويلة وصار لا يحن إلى موعظة ولا يتلذذ بعبادة.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لا يجوز لأمير أن يتحكم على فقير، إنما الواجب عليه هو أن يكون الفقير متحكماً عليه بطيبة نفس وانشراح قلب منه، حتى لو أراد الفقير أن يضع على ظهر الأمير بردعة ويركبه كالحمار وجب على الأمير الرضا بذلك، كما وقع لسيدي يوسف العجمي مع الأمير[٥٤٢] شيخون صاحب المدرسة العظيمة بالقرب من الرميلة. وبلغنا عن سيدي الشيخ محمد الحنفي المدفون بزاويته في سويقة السباعين أن الأمير ططر قاني مرتبة السلطان شعبان كان إذا دخل لزيارة الشيخ يأمره الشيخ بأن ينزع ثيابه ويملأ الميضأة

ج د: يطلبه هو.

[٥٣٨] أ: يجاور.

د: من.

ج: شهود.

[٥٤١] د: يكون.

«مع الأمير» ساقط من ب.

وبيوت الخلاء من البئر، وكان الأمير (٦٨أ) شيخون ينشرح بذلك ويقول: كل يوم استخدمني الشيخ فيه أعده يوم عيد. وكان السلطان شعبان إذا نزل لزيارة سيدي محمد هذا ووجد الباب مردوداً يقف على الباب ولا يطرقه، ويصير يبذل رجلاً برجل حتى تخرج جارية الشيخ أو عبده فيقول لها: أعلمي سيدي أن عبدك شعبان على الباب. فتارة يأذن له في الدخول وتارة يقول للجارية: قولي له بأن سيدي لا يجتمع بأحد في هذا الوقت، فيقبل عتبة باب الشيخ ويرجع إلى القلعة، انتهى. وتقدم في الكتاب أن الواجب على الأمير إذا طلب منه شيخه[٥٤٣] طعاماً أو شراباً أو لباساً أن لا يبادر إلى إعطائه له خوفاً على الشيخ من تناول الشبهات التي لا يسلم طعام الأمراء أو شرابهم أو لباسهم منها غالباً. بل يتمهل ويقول: العبد وما يملك لسيده ولكني أغار عليكم من التدنس بمثل طعامي أو شرابي أو لباسي والرأي لسيدي بعد ذلك. فإن رجع الفقير عن طلبه ذلك منه فذاك وإلا أعطاه ما طلب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً[٥٤٤] أن لا ينفك عنه ليلاً ولا نهاراً بل يربط نفسه عليه، فلا يفارقه في شيء من الحضرات الإلهية التي يدخلها طلباً لحفظه من الآفات. فقد قال العارفون: من ادعى صحبة ارتباطه بشيخه وأصابته آفة من الآفات فكذبوه، فإن قلب الشيخ دائماً في (٦٨ب) حضرة الله عز وجل وأهل الحضرة لا يصح أن ينزل عليهم بلاء انتقام ما داموا[٥٤٥] مشاهدين لربهم. وكذلك[٥٤٦] من تعلق بهم من المعتقدين وإن وقع أن أحدهم نزل عليه بلاء، فإنما يكون ذلك حين حجب عن شهوده ربه وخرج عن الحضرة، انتهى.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: لا يصح أن ينزل على مريد بلاء ما دام مرتبطاً بشيخه حسن الاعتقاد فيه، فإن حل رباطه منه أو تردد في ولايته وصلاحه فقد عرض نفسه لنزول البلاء عليه، كما أن الولي لا يصح أن ينزل عليه بلاء ما دام مشاهداً لكونه بين يدي ربه وهو تعالى ينظر إليه أبداً، فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا انفكت رابطته،[٥٤٧] انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء[٥٤٨] وفتشوا نفوسكم في صحة اعتقادكم في الفقير الذي تطلبون قضاء حوائجكم، فإن رأيتم في قلوبكم الجزم بولايته وصلاحه فاطلبوا منه قضاء الحوائج، وإلا فاتركوه رحمة به وأدباً منكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يرمي حملته كلها عليه إذا وقع في شدة من مرض أو عزل أو مصادرة ونحو ذلك، بل يتوجه هو بكليته إلى الله في دفع ذلك ويسأل الفقير المساعدة له فيها فقط، كما عليه الكمل من الرجال. وقد قالوا: من أرمى حملته على غيره وطلب الراحة في نفسه فهو من قسم النساء، وإن كانت له لحية (٦٩أ) كبيرة، كما أشار قوله تعالى ﴿الرِجَالُ قَوامُونَ عَلَى النسَاءِ﴾[٥٤٩] ومما وقع أن أخي أفضل الدين رحمه الله

: شيخه منه.
د: ومن أدب الفقير الأمير أيضاً مع الفقير.
أ: دامو.
د: ولذلك.
ب: رباطته.
د: الإخوان.
النساء، ٣٤.

رأى نفسه قد مات وهو حامل نصفه وسيدي علي[٥٥٠] الخواص حامل لنصفه الآخر، فقص ذلك عليه فقال: يا أفضل الدين كن رجلاً واحمل عني نصفك الآخر، انتهى.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إياكم أن تتحملوا عن أميركم جميع الشدة التي نزلت به بقصد الرحمة له والشفقة عليه فتسيئوا الأدب في حقه وتلحقوه بالنساء في العجز والكسل والنقص، بل أؤمروه بالتوجه إلى الله تعالى في دفع تلك الشدة عن نفسه وبذل وسعه في دفعها، ثم احملوا عنه ما عجز عنه يقيناً أو ظناً، كما جرى عليه الأشياخ في حق مريديهم،[٥٥١] انتهى. وسمعته يقول: من تهور الفقير أن يبادر لحملة الأمير من غير نظر للعواقب في حقه وحق نفسه فإنه ربما أضر بجسم نفسه ودين الأمير، وربما كان الأمير لا يستحق المساعدة في دفع تلك الشدة عنه لكونه مرتكباً كبيرة أو مصراً على صغيرة من زنا ولواط وشرب خمر وظلم لرعيته[٥٥٢] من الفلاحين والباعة في قطع[٥٥٣] شيء من حقوقهم أو أخذ شيء زائد على حقه منهم. وربما كان كثير الحسد لأقرانه ويذكرهم بالنقائص من ورائهم ويؤذيهم بلسانه من أمامهم ويخرج بعض الصلوات عن وقتها ويتفرج في البساتين (٦٩ب) ويجامع النساء ويأكل الحلوى والفواكه أيام توجه الفقير إلى الله في تحمل حملته، كما هو الغالب في أهل الجور من الأمراء، فليكن الأمير أو الفقير حاذقاً مراعياً لحق الصحبة وآدابها فلا يضر أحدهما بنفسه ولا بأخيه، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأحد لحقته شدة أن يتكل على إخوانه في دفعها لما في ذلك من ثقل المنة على كل من كان له مروءة. وقد سأل رجل رسول الله ﷺ المراقبة له في الجنة فقال: اعني على نفسه بكثرة السجود، انتهى. فانظر كيف أرشده ﷺ إلى كثرة المروءة وأن لا ينزل بنفسه[٥٥٤] إلى الكسل والراحة ويجعل كل[٥٥٥] على غيره، انتهى. وسمعته يقول: من شأن أهل المروات أن يتوجهوا إلى الله تعالى في دفع الشدائد عن نفوسهم ولا يطلبوا من الخلق مساعدتهم، إلا بقدر ما في أحدهم من الجزء البشري الذي يغلب عليه طلب النصرة والمساعدة من الخلق لغفلته عن ربه عز وجل. ومن هنا قالوا: يجب على العبد أن يعمل على تحصيل مقام شهود أن جميع ما ينصره به الخلق هو من جملة نصرة الحق جل وعلا ببادئ الرأي من غير تفكر ولا تأمل، كما عليه الأنبياء وكمل ورثتهم. وإنما قال السيد عيسى عليه الصلاة والسلام[٥٥٦] مع كماله وعصمته من أنصاره إلى الله أي مع الله طلباً لاستعمال (٧٠أ) الوسائط من غير وقوف لحصول الثواب لهم لا غير، فإنه

أ: عليا.
أ د: مريدهم.
: الرعية.
: بقطع.
ج: نفسه.
د: كله.
د: عليه السلام.

يتعين أن يرى نصرتهم له من [جملة][٥٥٧] نصرة الله عز وجل. فإن لله تعالى الفعل بالوسائط[٥٥٨] والفعل[٥٥٩] بلا واسطة، كما أشار إليه قوله تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[٥٦٠] مع قوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾[٥٦١] الآية، انتهى. وسمعته يقول: من جهل الأمير رمي حملته على شيخه من غير مساعدة له لاسيما إن كان شيخه يأكل من طعامه ويقبل بره وإحسانه، فإنه لا يقدر على تحمله شيئاً من حملة أميره، كما تقدمت الإشارة إليه نقلاً عن مولانا السلطان سليمان بقوله: كل فقير أكل شيئاً من طعام الملوك والأمراء ذهبت قوة توجهه إلى الله تعالى وخرج عن أهلية الشفاعة عند الله تعالى في غيره. فاعلموا ذلك أيها الإخوان من الأمراء والفقراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطلب منه أن يكون معه على خصمه بالقهر والغلبة، فإن ذلك جهل وقلة سياسة وسبب لتحريك عمل الخصم[٥٦٢] المكائد. وإنما الواجب عليه أن يعرض قضيته على الشيخ ليمشي بينه وبين خصمه بالسياسة والحكم بينهما بما لا يقهر أحد الخصمين، فإن الخصم إذا خذل وقهر لا بد أن يشرع في عمل الحيل والمكائد حتى يقهر عدوه ويخذله ويأخذ ثأره منه، كما هو الغالب من فعل الأعداء مع بعضهم بعضاً. ولو أن الأمير كان سلم أمره للفقير (٧٠ب) ولم يطلب منه التعصب معه على خصمه، لربما توجه إلى الله تعالى فقضى بينه وبين خصمه بما لا يقهر واحداً منهما. وليتأمل الأمير في قصة إبليس مع آدم عليه الصلاة والسلام يظهر له صحة ما قلناه. فإن إبليس لما أمره الحق جل وعلا بالسجود لآدم وأبى أخرجه الحق تعالى من الجنة قهراً عليه وطرده من حضرته، فصار إبليس كلما تذكر ما كان فيه من النعيم يأخذ في تدبير الحيل على دخوله[٥٦٣] في الجنة ثانياً ليأخذ ثأره من آدم، حتى كان ما كان من دخوله في فم الحية ووسوسته لآدم في أكله من الشجرة حتى خرج الآخر من الجنة. ولو أن إبليس لم يحصل له قهراً بإخراجه من الجنة بسبب عدم سجوده لآدم ما كان دبر حيلة حتى دخل بها ثانياً. فالعاقل من طلب من الله أن يقضي بينه وبين خصمه بقضاء لا يقهر[٥٦٤] خصمه بل ينشرح [له][٥٦٥] ويرضى به، فإن الله على كل شيء قدير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: العاقل من لا يفرح بقهره لعدوه وخذلانه خوفاً أن يعمل له المكائد ويقهره كما قهره، فإن العدو إذا خذل في مرة وقهر دبر المكائد ضرورة ليأخذ ثأره من خصمه، كما هو مشاهد بين الأعداء من الأمراء والفقهاء والمباشرين ومشايخ العرب والفلاحين وغيرهم. فاعلموا ذلك

زيادة من ج.
د: بالواسطة.
ج: فالفعل.
التوبة، ١٤.
الأنفال، ١٧.
«الخصم» ساقط من ج.
: دخول.
ج: بقهر.
زيادة من ج.

أيها الأمراء ولا تخالفوا إشارة شيخكم تندموا، فإنه ميزان عدالة بين الناس (٧١أ) لا يميل مع أحد بالأغراض النفسانية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٥٦٦] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطالبه بمساعدته في حصول ولاية لا خلاص له فيها شرعاً، كما لا ينبغي له أن يطلب منه التوجه إلى الله في دوام الولاية التي هو فيها، إلا إن كانت لا تلحقه بها تبعة، وهذا أعز من الكبريت الأحمر في هذا الزمان.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يطلب من شيخه المشي مع جميع أغراضه الدنيوية فإن مقام الشيخ يجل عن مثل ذلك، وإنما الواجب عليه المشي مع أغراض الشيخ حتى لو قال له: اعزل نفسك من هذه الولاية، وجب عليه طاعته في ذلك، لاسيما إن كانت لا خلاص له فيها وهناك من هو أولى بها منه أو مساوياً له، انتهى. وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير أن يساعد أميراً أو شيخ عرب أو عاملاً على ولاية في هذا الزمان، إلا إن علم صلاح نيته وإن قصد بها تخفيف المظالم عن الرعية وحفظ أموالهم ودمائهم وحريمهم من أهل البغي والفساد. ومتى علم أو غلب على ظنه أن مقصوده بتلك الولاية جمع المال والتبسط في المآكل والمشارب[٥٦٧] والمناكح والمراكب، فلا ينبغي له مساعدته فيها بل ربما حرم عليه ذلك، فإن[٥٦٨] هذا التبسط لا يوجد غالباً إلا من كثرة الظلم والبلص والجرائم.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: (٧١ب) حكم الأمير حكم القاضي، فمتى زادت أمواله وأمتعته ومآكله ومشاربه[٥٦٩] أيام ولايته عما كانت عليه قبل ولايته، فاحكموا عليه بالظلم والجور وكثرة البلص وأخذ الرشوة. وفي كلامه أيضاً: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص، انتهى. ثم بتقدير عدم الظلم والجور، فمن أين حصلت له الوسعة في الرزق فما هناك إلا قبول الهدايا من الرعية وأرباب الحوائج؟ وفي الحديث الصحيح: هدايا العمال غلول، ومعلوم أن الغلول حرام كما يشهد له الآيات والأخبار.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: ليحذر الفقير من مساعدة الأمير على تحصيل ولاية في هذا الزمان، فإن الغالب على الأمراء فساد نيتهم في طلب الولايات ولا يكاد أحد منهم يطلب ولاية إلا وهو يقصد المشي على طريقة من كان قبله في الظلم، فمن ساعد أميراً في مثل ذلك كان شريكاً له في خزي الدنيا وعذاب الآخرة، انتهى. وسمعته يقول: كل أمير طلب من الشيخ أن يساعده في توليته ولاية لا خلاص له فيها فقد استحق الطرد عن صحبة الشيخ، إذ الواجب على الشيخ أن يتوجه إلى الله في منع الأمير من تلك الولاية أو عزله منها إن كانت في يده، ومتى ساعد الأمير في ذلك فقد غشه وغش نفسه، انتهى. وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير أن يساعد أميراً على تحصيل ولاية إلا إن علم منه (٧٢أ) صلاح نيته فيها ما كان يقصد بتوليته الأخذ بيد المظلومين وكف الظالمين إكراماً لأمة محمد ﷺ. ومتى كان قصده بها التبسط في الدنيا ومكايدة الأعداء والفرح

[٥٦٦] ج: آداب.
[٥٦٧] د: المأكل والمشرب.
[٥٦٨] «مساعدته فيها بل ربما حرم عليه ذلك، فإن» ساقط من ج.
[٥٦٩] أ د: مشربه.

بالحكم مع الغفلة عن الحقوق الواجبة عليه في ولايته، فلا ينبغي لأحد مساعدته بلسانه ولا بقلبه،[٥٧٠] انتهى. وسمعته يقول: كل فقير غلب على ظنه فساد نية أميره[٥٧١] في ولايته حرم عليه مساعدته فيها ولو بالدعاء، كأن يقصد بتلك الولاية مكايدة الأعداء وتنفيذ غضبه في خواص أصحاب الأمير الذي كان قبله ومصادرتهم بغير حق. وفي وصية الخضر عليه السلام لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إياك أن تنفذ غضبك النفساني فيمن أقدرك الله عليه: فيقض[٥٧٢] الله لك بحكم العدل من ينفذ غضبه فيك ممن لا تقدر عليه. قال يا نبي الله: زدني. قال: إياك أن تمد يدك إلى مال رعيتك وتأخذه بغير حق فيذهب الله هيبتك من قلوبهم ويبغي بعضهم على بعض فلا تقدر على كفهم. قال يا نبي الله زدني: فقال: إياك أن تكون ولياً لله في العلانية وعدواً له في السر، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه ولا تطلبوا من شيخكم المساعدة على تحصيل ولاية أو الدوام فيها إلا إن كان قصدكم بها وجه الله أو الدار الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يرسل له ولا لفقراء (٧٢ب) زاويته شيئاً من الأطعمة والملابس إلا إن طلب الفقير منه ذلك، لاسيما ليالي الجمع والأعياد. فإن طعام الأمراء المتخذ من علوفاتهم وزراعاتهم لا يسلم من الشبهة غالباً، فما ربحه[٥٧٣] من قصده الثواب بذلك الطعام أو اللباس ربما خسره من جهة ظلمة[٥٧٤] الباطن التي حدثت من ذلك الطعام أو اللباس، بل ربما رجح ضرر تلك الظلمة على نفع ذلك الطعام أو اللباس، أو لم يكن من ضرره إلا عدم تمكين الفقير دخول حضرة الله في صلاة وغيرها بسبب أكلهم ذلك الطعام أو لبسهم ذلك الثوب[٥٧٥] والقلنسوة كما جرب، ويكون على علم الأمراء أن الفقير الصادق لا يرد شيئاً من أموال الأمراء إلا[٥٧٦] لمصلحة ترجع على الأمير والفقير، كما أنه لا يقبل شيئاً إلا لمصلحة تعود[٥٧٧] عليهما،[٥٧٨] والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٥٧٩] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يكون له التفات إلى غيره من مشايخ بلده أو إقليمه مثلاً ولو علت مقاماتهم في الولاية، فيرى اجتماعه بشيخه أنفع من اجتماعه بكل شيخ ولو كانوا أقطاباً، فإن من التفت إلى غير شيخه ثم طالبه بقضاء حوائجه فقد أخطأ الطريق وكلف شيخه شططاً، كما تقدمت الإشارة إليه في الكتاب مراراً.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: قد بنى الله عز وجل الأمور على التوحيد، فكما لم يكن للعالم إلهان ولا للرجل قلبان (٧٣أ) ولا للمرأة زوجان كذلك لا يكون للمريد شيخان لما في ذلك من بطء السير

ج: بقبله.
٥٧١ د: أمير.
د: فيقيض.
ج: ر... مع بياض.
٥٧٤ ب: ظلمه.
د: الثياب.
«الأمراء إلا» ساقط من ج د.
ج: هو.
٥٧٨ أ: عليه.
ج: آداب.

وكثرة الحقوق. وفي رسالة الشيخ أبي مدين التلمساني رحمه الله: ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب من غيرها، فاشهد كمال شيخك ثم اطلب منه حاجتك. فإن الأشياخ على الأخلاق الإلهية، فكما أن الحق جل وعلا لا يغفر أن يشرك به يعني في الميل إلى سواه بغير إذنه، فكذلك الأشياخ رضي الله عنهم. وسمعته يقول: اجعلوا محبة ربكم وسط قلوبكم ومحبة نبيكم مما يليها ومحبة شيخكم مما يلي نبيكم، فأما نبيكم[٥٨٠] فهو الواسطة العظمى بين الله وبين عباده، وأما شيخكم فهو الواسطة العظمى بينكم وبين نبيكم، فكما لا يقدر أحد من أقطاب أن يستغني عن واسطة رسول الله ﷺ بينه وبين ربه، فكذلك المريد لا يقدر يمشي خطوة واحدة في طريق الحق بغير واسطة شيخه، انتهى. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وسمعته يقول: طلب الخضر عليه السلام الصحبة من بعض المريدين فأبى وقال: إن شيخي لم يحوجني إلى مصاحبة أحد غيره، انتهى. وطلب سيدي الشيخ محمد الشناوي من شيخه أبي الحمائل[٥٨١] السروي رحمه الله أن يأذن له في زيارة أحد من أولياء عصره. فقال: يا محمد إذا كنت لا أملأ عينك فكيف جعلتني شيخاً لك؟ فما زار أحداً من الأشياخ (٧٣ب) حتى مات شيخه لا من الأحياء ولا من الأموات، انتهى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: متى علم الفقير أن نفس أميره تميل إلى غيره من الأقران وجب عليه طرده أو تجديد صحبته، لاسيما إن كان بايعه على عدم الالتفات إلى سواه أول دخوله في صحبته. وقد جرب الأشياخ والمريدون فوجدوا الشركة في محبة الأشياخ توقفهم عن السير عكس حالهم حال توحيدهم للشيخ. وسمعته يقول: من طلب من فقير حاجة مع شركته أحداً معه في الانقياد فقد كلف الشيخ شططاً. فقد قالوا: تقيد[٥٨٢] على شيخك ثم اطلب منه حاجتك. فإن الله تعالى عز وجل أقسم بعزته وجلاله في بعض الكتب الإلهية أنه لا يطلب عبد من عبيده حاجة من عبد آخر إلا وكان تعالى عند ذلك العبد، فيقضي تلك الحاجة ليلا يخجل عبده. وهذا من وسع الكرم الإلهي كما تقدم بيانه في تفسير قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾[٥٨٣] الآية، فإن الحق تعالى إذا كان عند السراب الذي لا حقيقة لوجوده وإنما هو وهم، فكيف بالإنسان الكامل المتقيد بالشريعة في علمه وعمله واعتقاده؟ فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٥٨٤] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يكلفه لتأدية شهادة في قضية وقعت بين يديه (٧٤أ) تتعلق بأمور الدنيا لاسيما عند حكام السياسة، لأن منصب الشيخ يجل عن مثل ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير صحب شيخاً وأوقع بحضرته شيئاً من المعاملات الدنيوية أن يكلفه أن يشهد بها ولو كانت مائة ألف دينار وأكثر إلا إذا انشرح قلب الشيخ لذلك. ومتى كلفه الأمير للشهادة بها عند الحكام[٥٨٥] من غير انشراح قلب فقد أساء الأدب معه، وتبين بذلك قلة

«مما يليها ومحبة شيخكم مما يلي نبيكم، فأما نبيكم» ساقط من ج.
ج: أبي ممايل.
ج: تقبل.
النور، ٣٩.
ج: آداب.
د: الحاكم.

تعظيمه للشيخ وشدة عظمته للدنيا وعدم استحقاقه لصحبة الأشياخ، انتهى. وسمعته يقول مراراً: قلوب الفقراء الصادقين مغفلة[٥٨٦] عن أحوال أهل الدنيا، فإياكم أن تشهدوا أحداً منهم بمال، فيضيعه عليكم بنسيانه تلك الشهادة وقلة ضبطه وكثرة استهانته بالدنيا وشهوده أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة. قال: وقد دعا شخص بعض الفقراء في عصر سيدي إبراهيم المتبولي إلى شهادة بألف دينار عند حاكم فزجر سيدي إبراهيم ذلك الشخص وقال له: تدعوا[٥٨٧] فقيراً إلى حاكم لأجل أمر من أمور الدنيا؟ فقال: إنها ألف دينار. فقال له الشيخ: [الألف دينار][٥٨٨] لا تعادل خطوة يخطوها الفقير فيها لوث عند الأخصام بعرضه[٥٨٩] وانتهاك لحرمته. فإذا كان هذا في آحاد الفقراء[٥٩٠] فكيف بالشيخ المتصدر لإرشاد[٥٩١] (٧٤ب) الخلائق؟ فالعاقل من أجل شيخه عن تحميله شهادة في قضية وقعت بين يديه من أمور الدنيا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٥٩٢] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يتكدر من الفقير إذا لم يكرمه بقيام ولا تقديم طعام بعد أن كان يقوم له ويخرج له أطايب الطعام، بل الواجب عليه أن ينشرح لمثل ذلك أكثر من الإكرام[٥٩٣] لأن الفقير ربما كان يكرمه أولاً[٥٩٤] على وجه التأليف له، فلما علم منه صدق المحبة لم يحتج إلى الإكرام له بقيام أو تقديم طعام. وقد فعلت مثل ذلك كثيراً مع الكشاف ومشايخ العرب حتى ربما قدمت إلى أحدهم الكسرة اليابسة فأكلها بانشراح، وذلك لعلمي بأن الأمراء في غنية عن مثل طعام الفقراء وإنما يأكلون عندهم تبركاً بطعامهم. وكثيراً ما أصب لأحد العسل على بلاط البيت فيأكل منه تشبهاً بالفقراء والمساكين الذين لا يجدون إناء يأكلون فيه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان من الأمراء وانتحلوا[٥٩٥] الأجوبة الحسنة للفقراء الذي تصحبونهم ولا تحملوهم على مثل ما تحملون بعضكم بعضاً عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٥٩٦] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يدخل في صحبته حتى يشهد صدق نفسه في المحبة له والارتباط به بحيث لا يقدر أحد من شياطين الإنس والجن يدخل بينه وبين الشيخ بما يقع به تغيير قلب لأحدهما. (٧٥أ) ومتى ادعى أمير الصدق في ذلك ثم وقع بينه وبين الفقير تغيير خاطر فهو غير صادق في دعواه، [و][٥٩٧] إيضاح[٥٩٨]

أ: مغفله.
ج: يدعوا.
زيادة من ج.
د: لعرضه.
د: الناس.
٥٩١ أ: أشاد.
ج: آداب.
٥٩٣ «من الإكرام» ساقط من د.
أ: أو.
ب: استحلوا.
ج: آداب.
٥٩٧ زيادة من د.
أ: أيضا.

ذلك أن الأمير مرتبط[٥٩٩] بحضرة الفقير والفقير مرتبط[٦٠٠] بحضرة الله، فمتى دخل أحد من شياطين الإنس والجن في تلك الحضرة احترق وذاب، فلا يتم له مقصوده من الوسوسة بما يغير أحدهما على الآخر. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واصدقوا في الارتباط بشيخكم لتسلموا من الآفات، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٠١] الأمير مع الفقير أيضاً أن يصدق معه في طلب المناصب الدنيوية لوجه الله عز وجل، حتى أن الفقير يساعده عليها ولو بالدعاء ويتخلص هو والأمير من تبعتها. ومتى كان في قلب الأمير طلبها للأغراض النفسانية وأظهر للفقير خلاف ذلك، فقد أساء الأدب مع الفقير في استعماله في الحظوظ الخسيسة.[٦٠٢] وربما مقت الفقير الأمير بذلك تبعاً لمقته الله تعالى من حيث طلبه استعمال الفقير في الأمور المذمومة، فإن الله تعالى يغار على قلوب أوليائه أن يرى فيها اشتغالاً بغير ما أذن لهم فيه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يلبس على شيخه ويدعي أنه مخلص في توليته وظيفة من الوظائف الدنيوية كالكشف ومشيخة العرب والعمالة، فإن الفقير ربما حجب عن شهود فساد نيته[٦٠٣] فساعده اعتماداً على (٧٥ب) ظاهر قوله: والله ما أريد بهذه الولاية إلا تخفيف المظالم عن الرعية وأكف ظلم بعضهم عن بعض دون توسعي بالمآكل والمشارب والملابس والمراكب ونحو ذلك، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب والنفاق مع الشيخ، فليكن الأمير على حذر من أن يظهر للشيخ خلاف ما في قلبه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٠٤] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يدعوه إلى حضور وليمته إلا إن كان الفقير ينشرح لذلك، فمن دعا[٦٠٥] شيخه إلى حضور وليمته مع انقباض قلب الشيخ من ذلك فقد أساء الأدب معه، لاسيما إن جمعت الوليمة أقران الفقير الذين لا يتورعون عن الأكل من مثل تلك الوليمة التي ربما لا تسلم من الشبهة. فإنه إن وافق أقرانه على الأكل فقد خرج عن الورع، وإن امتنع من الأكل فقد تميز عنهم وحصل لهم الخجل بأكلهم. وربما تحركت نفوسهم إلى الطعن فيه وحمله على أنه ما امتنع من الأكل إلا بقصد التميز عن الأقران في ذلك المجلس، وربما تحركوا للوقوع في عرضه وذكر نقائصه[٦٠٦] التي كانت مستورة عن الناس مع أن تلك الصفات التي ظهرت لهم منه ربما كانت هي صفاتهم، وكان الشيخ كالمرآة لهم. ومعلوم أن الإنسان لا يرى في المرآة إلا صورة نفسه لا صورة المرآة، انتهى.

أ: يرتبط.

٦٠٠ أ: يرتبط.

ج: آداب.

٦٠٢ أ: الخسيسة.

٦٠٣ ب ج: فساد نية الأمير.

٦٠٤ ج: آداب.

٦٠٥ أ: ادعى.

٦٠٦ د: نقائضه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله (٧٦أ) يقول: لا ينبغي لأمير أن يدعو فقيراً إلى وليمة عرسه أو ختانه أو غيرهما من الولائم التي تجتمع[٦٠٧] فيها أخلاط الناس من العلماء والأمراء والمباشرين والتجار إلا إن علم انشراح قلب الشيخ بالحضور، فإن للفقير[٦٠٨] ساعات لا يسع قلبه فيها غير الله والإقبال على طاعته. وإن كان ولا بد من دعائه إلى تلك الوليمة بنية صالحة، فليذكر ذلك على وجه العرض عليه لا الأمر، فإن شاء الشيخ يحضر وإن شاء امتنع. وسمعته يقول: لا ينبغي لشيخ أن يأكل من طعام أميره لا سراً ولا جهراً لما في ذلك من تدنس قلبه من الأكل من طعامه لنقص مقامه في الورع عن الأشياخ. هذا إن خلا أكله من لوث أقرانه به فكيف إذا لاثوا به؟ فالأولى عدم حضور ولائم الأمراء مطلقاً إلا لمصلحة شرعية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٠٩] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطلب منه الدخول في صحبته إلا إن كان مطهراً من سائر الخبائث والفواحش الظاهرة والباطنة، إما بصفاء الفطرة التي فطره الله عليها، وإما بالتوبة النصوح. ومتى طلب صحبة الشيخ وهو مرتكب شيئاً من الفواحش فقد عرض نفسه للمقت لاستهانته بجناب الفقير بصحبته له مع الدنس والنجاسة. وربما رأى الفقير أنه لا يطهر الأمير إلا العزل من وظيفته التي هو فيها وخراب دياره أو نزول بلاء (٧٦ب) عليه في جسده، كالحب الفرنجي الذي يذوب جسمه مع ضربان المفاصل الذي تمنعه من لذة الأكل والشرب والجماع والنوم، فتوجه[٦١٠] إلى الله عز وجل في تطهيره بمثل ذلك محبة فيه وشفقة على دينه. فليكن الأمير على حذر من صحبة الفقير مع الدنس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦١١] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يصغي إلى قول عدو الفقير فيه ونسبته إلى النقائص، ومتى علم الأمير من نفسه الإصغاء إلى قول عدو شيخه فيه فقد أساء الأدب ووجب عليه تجديد الصحبة، لأن من شأن من يصغي إلى تنقيص الناس لأخيه أن تتشكل[٦١٢] تلك النقائص في ذهنه، فلا يصير يقدر على دفعها من ذهنه ويحرص أن يرى شيئاً من الكمالات متشكلاً[٦١٣] في ذهنه فلا يقدر. ومعلوم أن صحبة الأمير لمثل هذا الفقير ضررها أكثر من نفعها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا تغير اعتقاد أمير في شيخه فالواجب على الأمير أن يخبر الشيخ بذلك ليداويه من هذا المرض أو يطرده عنه بسياسة وحسن عبارة، كأن يحسن له صحبة أحد من أقرانه ويصرح برفع مقامه عليه وأنه[٦١٤] لا يصلح أن يكون تلميذاً له فلعله يتحول عنه إليه ويستريح هو من شره.

[٦٠٧] ج: يجتمع.
[٦٠٨] ج: للفقراء.
[٦٠٩] ج: آداب.
[٦١٠] أ: فأتوجه.
[٦١١] ج: آداب.
[٦١٢] ب ج د: يتشكل.
[٦١٣] ب: مستسلما.
[٦١٤] «وأنه» مكرر في ب.

ولكن ينبغي لكم أيها الإخوان إذا حسنتم[٦١٥] اعتقاد الأمير في غيركم أن تسألوا الله [تعالى][٦١٦] لذلك (٧٧أ) الفقير الذي تحول أميركم إليه أن يحفظه من آفات تلك الصحبة ليلا تقعوا في سوء الأدب في حق أخيكم وجركم إليه الآفات، انتهى. وسمعته يقول: إياكم أن تحسنوا اعتقاد أحد من الأمراء في أحد من أقرانكم إلا لمصلحة ترجح على تنفيركم ذلك الأمير عنه فتكونوا دائرين مع المصالح لا مع الأغراض النفسانية. وكما أحطتم[٦١٧] لأنفسكم فاحتاطوا لأخيكم واسألوا الله تعالى له الحفظ من الآفات، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦١٨] الأمير مع الفقير أيضاً أن يرفع مقامه عن مقام آحاد الفقراء الذين لا قدم لهم في مقام التحقيق كالنصابين والشياطين عن طريق الاستقامة المعروفة بين القوم، وإن راج[٦١٩] أمرهم عند أبناء الدنيا وقدموهم في المقام [على][٦٢٠] المحققين. ومتى رأى الأمير مقام شيخه ناقصاً عدِم النفع بصحبته ووجب على الشيخ طرده عن صحبته.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على الأمير الذي يصحب الفقراء أن يكون حاذقاً يفرق بين الصالح والطالح ليزيد في اعتقاد الصالح وينفر من الطالح. ومن أقرب العلامات الدالة على الصالح أن يكون عالماً عاملاً متورعاً عن أموال غالب الخلق، زاهداً في الدنيا، متقشفاً في مأكله وملبسه ومنكحه ومركبه ومسكنه وغير ذلك من سائر ما يتنعم به الناس في هذه الدار، وحكم الطالح بالعكس من ذلك.

وسمعت سيدي (٧٧ب) علياً الخواص رحمه الله يقول: من أقوى علامة على ولاية العبد وصلاحه تورعه عن أموال الولاة جملة وتحمله هومهم جملة، فلا تكاد تراه عند عزل أميره أو مرضه أو حبسه أو الترسيم عليه[٦٢١] آكلاً ولا شارباً ولا متبسماً[٦٢٢] إلا لضرورة شرعية قياماً بواجب حق صحبته. وكل من ادعى الصلاح عند أمير وقبل منه بره وإحسانه ثم وجد قلبه فارغاً من تحمله شيئاً من هومه، فهو نصاب كاذب في دعواه، انتهى. وسمعته يقول: لا ينبغي لأمير أن يقنع في اعتقاده في شيخه أنه كآحاد الناس [في الصلاح فيظلمه][٦٢٣] ويسيء معه الأدب ويعدم النفع به، فإنه الصادق متى علم من الأمير أنه يساوي بينه وبين من هو دونه كالنصابين الكذابين في دعوى الطريق نفر قلبه من الأمير، ولم ير استحقاقه لأن يحمل أحد عنه شيئاً من هومه لعدم اعتقاده الكمال في الفقير، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ورجحوا شيخكم على أقرانه إن طلبتم أن يأخذ بيدكم في الشدائد،كما مر في هذه الخاتمة، والحمد لله رب العالمين.

٦١٥ ب: حسيتم.
٦١٦ زيادة من ب.
٦١٧ ب ج: أحفظتم.
٦١٨ ج: آداب.
٦١٩ ج: زاج.
٦٢٠ زيادة من ج.
٦٢١ في د زيادة: والتفتيش عليه.
٦٢٢ «ولا متبسمًا» ساقط من د.
٦٢٣ ب: في ظلمه.

ومن أدب[٦٢٤] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يكتم عنه شيئاً من المال الذي اكتسبه أيام ولايته التي هو فيها إذا سأل الفقير عن ذلك فيقول: حصل لي كذا وكذا من الزرع وكذا وكذا من الجرائم والبلص وكذا وكذا من الجعائل وكذا وكذا (٧٨أ) من الهدايا ونحو ذلك. ومتى كتمه شيئاً من ذلك فقد خان في الصحبة وقل انتفاعه به.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يكتم عن شيخه شيئاً من أمواله التي اكتسبها أيام ولايته، وذلك ليدعوا له بالبركة في الحلال ويأمره بردها إن كانت من الجرائم والبلص والخوف[٦٢٥] والمغارم التي لا تجب على رعيته. ثم إن قدر أن ذلك الأمير لم يتيسر له رد تلك الأموال إلى أربابها، وجب عليه أن يسأل الفقير في الشفاعة له عند الله وعند المظلومين ليخفف عنه الإثم إذا قبل الله شفاعته. وهذا أمر يغلب على الأمراء كتمه عن الفقير، فربما يسرع بهلاكهم وذهاب أموالهم وخراب ديارهم مجازاة لهم على ما فعلوه من ظلم العباد والبلاد، ولو أنهم كانوا أخبروا الفقير بما اكتسبوه على جاه الولاية لربما أخبرهم[٦٢٦] عن أخذ المظالم حسب طاقتهم. وسمعته يقول: لا ينبغي للأمير أن يكتم أحواله المتعلقة بولايته عن شيخه فيظلم العباد والبلاد ويدعي أنه من أهل العدل ثم إذا أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة يدخل تحت ذيل الشيخ ويقول له: احملوا حملتي. فإن ذلك من أعلى طبقات سوء[٦٢٧] الأدب مع الشيخ، إذ الشيخ إنما هو موضوع لتحمل الزلقات التي يزلقها الأمير في حين من الدهر. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واصدقوا مع شيخكم (٧٨ب) ولا تكتموه شيئاً من أحوالكم وأموالكم،[٦٢٨] فيدعو[٦٢٩] لكم بالبركة فيها إن كانت حلالاً أو يكفكم عنها إن كانت حراماً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٣٠] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يرى له فضلاً عليه بما يرسله إلى زاويته من نحو عدس وقمح وسمن وغنم ونحو ذلك في حين من الزمان، كما مرت الإشارة إليه. فإن الفقير قد بايعه بالروح على تحمل شدائده، فجميع ما يرسله الأمير من الهدايا بالنسبة لما يتحمله عنه من الشدائد كحصاة من الأرض. فليكن الأمير على حذر من خطور منته على شيخه فضلاً عن استقرارها في قلبه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٣١] الأمير مع الفقير أيضاً إذا طرده الفقير عن صحبته أن لا يبرح عن بابه ولا يجتمع بغيره من الفقراء ولو على غير وجه المكايدة له. فقد قالوا في المثل السائر: من لا خير له في قديمه فما له خير في جديده. وإيضاح ذلك أن حكم الأمير مع الفقير كحكم المريد مع الشيخ فللشيخ الطرد وعليه هو التقرب بكل[٦٣٢] ما يميل قلب الشيخ إليه. ومتى طرد الشيخ الأمير فلم يتأثر لذلك، وجب على الشيخ نفض يده منه لعدم انتفاعه به.

٦٢٤ ج: آداب.
٦٢٥ ج: الحوق.
٦٢٦ في هامش د: أوقفهم.
٦٢٧ د: سيئ.
٦٢٨ في د زيادة: دائمًا.
٦٢٩ د: ليدعو.
٦٣٠ ج: آداب.
٦٣١ ج: آداب.
٦٣٢ أ: فكل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: للفقير أن يظهر العزة على الأمير وعلى الأمير الخضوع والذلة[١٣٣] له حسب همته وطاقته. وسمعته يقول: من أدب الأمير مع الفقير أن لا يبرح عن (٧٩أ) بابه ولو طرده، فإن المحب لا يصرفه عن محبوبه صارف ولا ترده السيوف والمتالف. قال: وكل أمير قوي اعتقاده في شيخه حين أقبل الناس عليه وضعف عند إدبارهم عنه وشدة إنكارهم عليه فلا ينبغي للفقير صحبته لقلة اعتقاده في الفقير وقلة محبته له. وسمعته يقول: كل أمير كان اعتقاده في شيخه بحكم التقليد للناس فهو سيء الأدب معه لتزلزله في اعتقاده ومحبته، انتهى. وهذا الأمر قد غلب على الأمراء في هذا الزمان فلا يكاد أحدهم يجد في قلبه داعية لاعتقاده في شيخ إذا رأى كثرة اعتقاد الناس فيه، فإن رآهم أدبروا عنه وأنكروا عليه فارقه بقلبه، وإن وقع أنه تردد لزيارته فهو بحكم النفاق والنية الفاسدة، كخوف عتب الناس عليه إذا انقطع عن زيارة شيخه. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعتقدوا في شيخكم ولو أنكر عليه أهل الأرض جميعاً ما دمتم تشهدون استقامته في أحواله على الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[١٣٤] الأمير مع الفقير أيضاً أن يوفي جميع ما كان وعد به الشيخ قبل ولايته من الوصية بأصحاب الشيخ من الفلاحين والباعة والسوقة وغيرهم، فلا يطلب منهم أن يزنوا شيئاً من المغارم التي تؤخذ من أهل الفساد إكراماً للشيخ وخروجاً من النفاق. فإن من علامة (٧٩ب) المنافق أنه إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا ائتمن خان، هذا في أصحاب الشيخ فكيف بالشيخ؟ فإنه يجب على الأمير إذا زرع شيخه أرضاً عليها مغارم أن يتحمل تلك المغارم عن شيخه ولا يحوجه أن يسأله في رفعها وأنه يزنها عنه، فإن منصب الشيخ يجل عن مثل ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل أمير ادعى شدة الاعتقاد في شيخه ثم أحوجه إلى الوصية على أصحابه فهو غير صادق في الاعتقاد، إذ الواجب على المعتقد أن ينتصر لكل من نسب إلى الشيخ ولا يحوج[١٣٥] الشيخ إلى السؤال له في ذلك بلفظ أو كتابة. وسمعته يقول: ليحذر الأمير كل الحذر من أن يطلب من أصحاب شيخه شيئاً من المغارم التي يقدر هو على دفعها أو وزنها عنهم قياماً بواجب حق الشيخ. ومتى أحوج الشيخ إلى الوصية على أصحابه فقد خرج عن سياج الأدب، انتهى. وسمعته يقول: لا[١٣٦] لوم على الأمير في عدم تخفيف المظالم عن أصحاب شيخه إلا فيما يقدر عليه، كأن ترجع[١٣٧] تلك المغارم إلى منفعته هو، أما ما لا قدرة له[١٣٨] على دفعه كالمغارم السلطانية التي جرت العادة بها، فلا لوم عليه فيها، انتهى. وسمعته يقول: أقل مراتب الشيخ في شفاعته عند الأمير في مظلوم أن لا يرد شفاعته إلا في أمر يصلح أن يرد فيه شفاعة مثل الباشاة مما يشهد العقول (٨٠أ) بعجزه عن قبول شفاعته فيه، ومتى قبل شفاعة الباشاة في أمر لو شفع فيه الشيخ لم يقبله فقد

[١٣٣] د: الذل.
[١٣٤] ج: آداب.
[١٣٥] ج: يخرج.
[١٣٦] أ: لولا.
[١٣٧] ب: يرجع.
[١٣٨] ب: له هو.

أساء الأدب مع الشيخ، انتهى. وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير أن يصحب من الأمراء إلا من يرفع مقامه فوق مقام الأمراء كلهم، فإن مقام الشيخ يجل عن أن يساويه أحد من أبناء الدنيا. وهذا أمر قد صار عزيز الوجود وغالب الناس يعظمون من انتسب إلى الأكابر من أبناء الدنيا أكثر من تعظيمهم لمن انتسب إلى الله ورسوله، انتهى. وقد جهدت أنا في النقباء الذين [كانوا][٦٣٩] عندي في الزاوية أن يعتنوا بالفقير الذي يجيء زائراً إلي كما يعتنون بأبناء الدنيا فلم يجيبوني إلى ذلك لغلبة حب الدنيا على قلوبهم. وكثيراً ما أراهم إذا جاءني أحد يزورني من أبناء الدنيا يتزاحمون على الدخول به إلي رجاء أن يكون معه دنيا يفرقها عليهم، عكس حالهم مع الشريف أو الأعمى الفقير إذا جاء يزورني فربما [يجلس][٦٤٠] من بكرة النهار إلى العصر ولا أحد منهم يعلمني به ولا يستأذن في دخوله إلي استهانة بجنابه. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعرفوا مراتب الفقراء وارفعوا مقامهم على مقام الأمراء في الاحترام والإكرام[٦٤١] أكثر مما تفعلون مع الأمراء إكراماً لمن انتسبوا إليه نسبة خاصة وهو الله ورسوله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٤٢] الأمير مع الفقير أيضاً (٨٠ب) أن يزداد محبة وتعظيماً كلما أكثر من الشفاعة عنده في المظلومين، فإن الشيخ إنما يريد بذلك كثرة الثواب للأمير في الآخرة وإدخال السرور عليه في قبره مجازاة له على فعله مع رعيته، فطوبى لمن[٦٤٣] أطاع شيخه وويل لمن خالفه.

وسمعت سيدي أفضل الدين رحمه الله يقول: يدخل الله تعالى على الأمير في قبره من الهم والغم أو من الفرح والسرور بقدر ما أدخل على رعيته، فليحذر الأمير من رد شفاعة الفقير عنده في مظلوم طال حبسه وهمه وحزنه مثلاً، فإن الحق جل وعلا ربما أدخل عليه نظير ذلك في قبره جزاء وفاقاً، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يحوجه إلى التعب في تحصيل شيء من أغراضه الدنيوية، بل الواجب عليه أن يقول للفقير: أسألك بالله أن لا تساعدني على شيء من أغراضي النفسانية بل أشكر فضلك إذا عارضتني فيها، فإني أستحي من الله أن أستعمل فقيراً في الأمور الخسيسة التي ينقص مقامي بها عند ربي. وذلك ليدخل على قلب الشيخ الراحة ثم إن شاء أتعب نفسه في التوجه في قضاء حوائج الأمير إن شاء أراحها. ولما صحب السلطان قايتباي سيدي إبراهيم المتبولي قال له: يا شيخ إبراهيم والله ما صحبتك للدنيا وإنما صحبتك لتأخذ بيدي في عرصات القيامة، وإني أستحي أن (٨١أ) أستعمل أحداً من أولياء الله في شيء من أمور الدنيا، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضا أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه، فليحذر الأمير كل الحذر من أن يمكن فقيراً ينكر على شيخه يدخل داره فضلاً عن كونه يجالسه ويبشه في وجهه تخلقاً بأخلاق الله عز وجل. فإن

[٦٣٩] زيادة من ج.
[٦٤٠] أ: يجس، والتصويب من ج د.
[٦٤١] أ د: الاكترام.
[٦٤٢] ج: آداب.
[٦٤٣] أ: لن.

الشيخ واسطة بين الأمير وبين حضرة الله عز وجل، فمن عادى الشيخ فقد عادى الله[٦٤٤] ولا ينفعه عمل، كما أشار إلى ذلك حديث: يؤتى بعبد يوم القيامة ومعه حسنات كأمثال الجبال فيأمر الحق تعالى به إلى النار. فتقول الملائكة: يا ربنا كيف تدخله النار مع كثرة هذه الأعمال الصالحة التي معه؟ فيقول الله عز وجل: اذهبوا به إلى النار فإنه كان لا يوالي من والاني ولا يعادي من عاداني، انتهى. فكما أن الحق تعالى لم يقبل من هذا العبد شيئاً من الأعمال الصالحة لكونه لا يوالي من والاه ولا يعادي من عاداه، فكذلك الشيخ لا ينبغي له أن يتعطف على الأمير الذي يوالي من عاداه تخلقاً[٦٤٥] بأخلاق الله عز وجل. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واهجروا عدو شيخكم ليأخذ بيدكم في الشدائد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطلب منه أن يحمل حملته في الشدائد التي تصيبه في الدنيا والآخرة إلا إن كان تائباً من جميع المعاصي (٨١ب) الظاهرة والباطنة ليلا يكلف الشيخ شططاً. وكيف ينبغي للشيخ أن يحمل حملة من كان الله تعالى غير راضٍ منه بل ساخطاً عليه؟ هذا من أشق[٦٤٦] شيء يكون، فليتب الأمير[٦٤٧] إلى الله تعالى من سائر الزلات الظاهرة والباطنة ثم يسأل الشيخ في أن يحمل حملته. ومتى طلب منه أن يحمل حملته من غير توبة فقد استعمله في غير محل. ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب معه، فإن المصر على المعاصي من زنا ولواط وشرب خمر وبلص ونهب وأخذ جرائم ونحو ذلك إنما يستحق التشديد عليه. قال الله تعالى ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٦٤٨] فكل شيخ لم يفتش حال أميره في صحة التوبة فليس له أن يدخل في حملته، بل ربما أخذه الحق بذلك. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وتوبوا إلى ربكم من كل ذنب ليصح لشيخكم أن يأخذ بيدكم في الشدائد كما عليه غالب الناس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يتزلزل اعتقاده في الشيخ إذا وعده بتولية ولاية في وقت ثم أبطأت عن الوقت الذي عينه، لأن الشيخ قد يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة وستين لوحاً التي هي في المرتبة دون اللوح المحفوظ والقلم الأعلى، فما أخبر به الأمير عن تلك الولاية في الوقت الذي عينه له إلا بحق، ثم أن الحكم تغير بعد ذلك ومحي تعيينه ذلك الوقت (٨٢أ) وكتب غيره. فلو أن الأمير سأل الشيخ في وقت التغيير لأخبره به، ولكنه لم يسأله فضبط القول الأول عليه دون الثاني.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لشيخ أن يكاشف أحداً بوقوع أمر من الأمور في المستقبل إلا إن كان مطمح[٦٤٩] بصره اللوح المحفوظ، فإن كان مطمح بصره ألواح المحو والإثبات فلا ينبغي له أن يكاشف أحداً بذلك خوفاً من أن لا يقع ما أخبره به، فيسخر الناس به ويلوثون[٦٥٠] بأهل الخرقة، انتهى.

---

[٦٤٤] في ج د زيادة: ومن عادى الله.
[٦٤٥] «تخلقا» ساقط من ب.
[٦٤٦] د: أشقى.
[٦٤٧] «الأمير» مكرر في ب.
[٦٤٨] الأعراف، ١٦٨.
[٦٤٩] في هامش ب: يطمح.
[٦٥٠] أ: يلوثوا.

وسمعته يقول: كل أمير طلب من شيخه أن يكاشفه في الأمور المستقبلة فقد أساء الأدب وأخل بحقوق الصحبة، فإن قال قائل: ما صورة اطلاع العارف على اللوح المحفوظ؟ فالجواب أن له حالتين، تارة يخرق بصره الحجب حتى يقرأ ما فيه، وتارة يعرف ما فيه بارتسامه في قلبه، لأن القلب إذا انجلى صار كالمرآة الكرة فلو قوبلت بالوجود العلوي والسفلي لارتسم كله فيها، فالمدار في ذلك على قوة البصر وضعفه واتساعه وضيقه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: اللوح المحفوظ قد كتب الله فيه جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة لا يتغير شيء كتب فيه ولا يتبدل،[٦٥١] فمن انجلى قلبه من الكدورات البشرية فقد اطلع على جميع الكوائن التي ترتسم في قلبه من مقابلته اللوح المحفوظ قلة وكثرة بحسب (٨٢ب) ما يصل إليه بصره، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يسأله أن يلبسه شيئاً من ملبوسه كجبة وقلنسوة إلا إن كان بلغ مقامه في كثرة الورع والأعمال الصالحة والتطهير من جميع الأدناس الظاهرة والباطنة. وذلك ليلا يظلم الجبة أو القلنسوة بنزعها من محل طاهر نقي ووضعها على محل تدنس بالمخالفات والقاذورات، كما أن الشيخ لا ينبغي له أن يجيب الأمير إلى ذلك مع تدنس الأمير فيكون شريكاً له في ظلم ذلك الملبوس.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يطلب من شيخه أن يلبسه شيئاً من ملبوسه إلا على التبرك بأن بعضه عنده من غير لبس تعظيماً لخرقة شيخه، بل لو خلع الشيخ من ذات نفسه شيئاً من ملبوسه على الأمير لكان الأدب من الأمير أن يرده ويقول للشيخ: إني أغار على ملبوسكم أن يكون على جسد متدنس بالمعاصي كجسدي. ثم إن عزم عليه الشيخ في قبوله وأكد[٦٥٢] عليه في ذلك فمن الأدب قبوله على وجه التعظيم، ولبسه حال الطاعات ونزعه حال المعاصي والغفلات، إلا أن يقصد بلبسه حال المعاصي وقايته من الآفات المعلقة[٦٥٣] بركة صاحبه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يخاف من تغير (٨٣أ) خاطره عليه أشد من [خوفه من][٦٥٤] تغير خاطر والده لأن أبا الروح أعظم حرمة وآكد حقاً من أب[٦٥٥] الطين. وإيضاح ذلك أن أبا الطين غاية أمره أنه كان محلاً لك قبل بروزك من العدم إلى الوجود، وأبو الروح أقل مراتبه أنه آخذ بناصيتك بإذن الله إلى طريق الهدى والاستقامة، ولا شك أن ذلك أفضل ممن كان محلاً لتكوينك الطيني فقط، اللهم إلا أن يكون أبو الطين من أهل الطريق فإنه يكون أفضل من أبي الروح فقط لاجتماع الفضيلتين فيه.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: ليحذر الأمير كل الحذر أن يجالس عدو شيخه الذي يحط عليه ويذكره بالنقائص خوفاً أن يتغير اعتقاده في شيخه بكلام ذلك العدو [فيبطل نفعه منه بالكلية، لاسيما إن كان ذلك العدو][٦٥٦] من النصابين الكذابين في الطريق ويريد من الأمير أن يتلمذ له، فإنه يتمزق بالكلية فلا

[٦٥١] ب: يتغير.
[٦٥٢] د: وأكثر.
[٦٥٣] «إلا أن يقصد بلبسه حال المعاصي وقايته من الآفات المعلقة» ساقط من د.
[٦٥٤] ما بين المعقوفتين زيادة من ب ج.
[٦٥٥] ب: أبا.
[٦٥٦] ما بين المعقوفتين زيادة من ج د.

هو بقي على صحبة شيخه واعتقاده ليأخذ بيده في الشدائد ولا ذلك العدو يقوم مقامه في ذلك. وهذا أمر يقع فيه كثير من الأمراء الذين [لا][٦٥٧] يفرقون بين الفقراء الصادقين وغيرهم، فإياكم أيها الأمراء ومجالسة أعداء شيخكم إلا أن تكونوا[٦٥٨] متحفظين من سماع قولهم في عرض شيخكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يكتمه شيئاً من زلاته التي وقع فيه[٦٥٩] ولو لم يسأله الفقير عن ذلك كما هو شأن المريدين، وذلك لأنه إذا ذكرها (٨٣ب) للشيخ فإما أن يرشده إلى التوبة والإصلاح أو يشفع له عند الله بأن يغفرها له أو يؤخر عنه العقوبة والمؤاخذة أو ليحفظه من وقوعه في نظيرها في المستقبل بمراعاته له، بخلاف ما إذا كتمها عن الشيخ فإنه ربما يدوم على الإصرار ولا يجد أحداً يرشده إلى التوبة ولا يسأل الله له المغفرة ولا يؤخر [عنه العقوبة].[٦٦٠] وهذا أمر قد كثرت خيانة الأمراء فيه لشيخهم ويقول أحدهم في نفسه: حيث ما ستر الله عليك ولم يطلع على زلاتك أحداً من خلقه، فلا عليك من كتمان ذلك عن الناس الذين ربما يزدرونك بوقوعك في المعاصي ويعارونك بها. وغاب عنه أن ذلك لا يكون إلا في غير الشيخ لأن العاصي كالمريض والشيخ كالطبيب، وإذا كتم المريض مرضه عن الطبيب عدم المداواة إلى أن يموت أو يزداد عليه المرض، بل لو تأمل الأمير لوجد الشيخ أرحم به من والدته وأستر له من نفسه، فمن كتم عن شيخه شيئاً فما قام بواجب حقه ولا حق نفسه. وسمعته يقول: لا ينبغي لأمير أن يستحي من ذكر نقائصه لشيخه كما يقع فيه الجهلة، بل يذكرها له ليداويه فيها إما بالتوبة والمغفرة وإما بأن يسأل الله أن يمن عليه بالتوبة على الفور كلما وقع في ذنب. وهذا أمر قل أن يقع من الأمراء الغلبة الحياء الطبيعي عليهم دون الحياء الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب[٦٦١] الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يعاهده على تخفيف المظالم (٨٤أ) عن رعيته إلا إن علم من نفسه الصدق ليلا[٦٦٢] يمقته الشيخ بإذن الله إذا بلص الرعية ونهب أموالها وحبسها و[٦٦٣]ضربها بغير حق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الأمير في معاهدته شيخه[٦٦٤] على تخفيف[٦٦٥] المظالم حسب طاقته أن يدخل تلك الولاية ذا مال من نقود وثياب ودواب وبساتين ودور، فيصير فقيراً منها ضيق المعيشة لا مال له، كما ذكره الإمام الشافعي في حق القاضي بجامع أن كلا منهما يشتغل بمهمات الناس وينسى مهمات نفسه من مكاسب الدنيا، فلا يصير له همة إلى زراعة ولا إلى تجارة من كثرة عياله ومصارفه. ولفظ الإمام الشافعي: من تولى القضاء ولم يفتقر فهو لص، فيقاس عليه الأمير. وقد بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كان له من الثياب ألف زيق فباعها كلها ووضعها في بيت المال، فما مضى عليه عدة أشهر

[٦٥٧] ساقط من أ.
[٦٥٨] ج: يكون.
[٦٥٩] والصحيح: فيها.
[٦٦٠] ما بين المعقوفتين زيادة من ج د.
[٦٦١] ب: آداب.
[٦٦٢] أ: افلا.
[٦٦٣] ب: أو.
[٦٦٤] ج: لشيخه.
[٦٦٥] د: تخفيفه.

إلا وصار له قميص واحد، إذا أراد غسله يمكث في داره عرياناً[٦٦٦] ليس عليه إلا خرقة تستر عورته حتى يجف ثوبه. وكذلك فعل مع زوجته فاطمة بنت عبد الملك فأدخل ثمن جهازها كله حين باعه في بيت المال برضائها وصار لها قميص واحد كزوجها.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: كل أمير عاهد شيخه على تخفيف المظالم إذا ولي ولاية ثم ازدادت (٨٤ب) أمتعة داره من ثياب وأوان ودواب ونحو ذلك فهو علامة خيانته في العهد. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وإياكم أن تزداد أمتعتكم إذا دخلتم في الولاية وتزعمون أن ذلك ببركة شيخكم، فإنه كالحق الذي أريد به الباطل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يسأله أن يساعده على تولية ولاية قد تزاحم الناس عليها وإن كان ولا بد فليقل للشيخ: يا سيدي ادع الله عز وجل أن يولي على المسلمين من سبق في علمه أنه يكون أشفق عليهم من غيره، فكل من أجاب الله دعاء الشيخ في حقه كان أولى وأفضل. ثم إن وقع تولية غير ذلك الأمير الذي كان سأل الفقير ربه في توليته فمن الواجب عليه الانشراح بذلك دون الانقباض، إذ هو خير الرجلين أو الرجال الذين كانوا يتزاحمون علي تلك الولاية. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وإياكم أن تظنوا بشيخكم أنه يرجحكم على غيركم في الولاية أو يرجح غيركم عليكم بالهوى والحظوظ النفسانية، فإن ذلك جهل منكم بمقام شيخكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطلب من الفقير قضاء حاجة عند الله أو عند الخلق إلا وهو في غاية الذل والانكسار وإظهار الفاقة والحاجة إلى مثل ذلك، فإن الفقير على الأخلاق الإلهية دارج، فإن لم ير عند صاحب الحاجة (٨٥أ) ذلاً وانكساراً وافتقاراً وإلا لم يسرع بقضاء حاجته. فليحذر الأمير من أن [يسأل الفقير أن][٦٦٧] يتوجه إلى الله عز وجل في قضاء حاجته وهو مظهر للغنى عن تلك[٦٦٨] الحاجة وعدم الفاقة، فإنها ربما تعسرت عليه لفتور عزمه وقلة أدبه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ينبغي لأمير أن لا يسأل شيخه حاجة إلا وهو في غاية الذل والمسكنة وإظهار شدة الفاقة والحاجة إليها، فإن الأشياخ إنما[٦٦٩] نصبوا أنفسهم للأخذ بيد اللهفان الذي استغاث بهم بخلاف غير اللهفان الذي لم يستغث[٦٧٠] بهم، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وذلوا في حضرة أشياخكم واظهروا الفاقة إليهم في كل شدة ليأخذوا بيدكم، وإذا وقف الشيخ وجماعته يدعون لكم فقوموا معهم كأحدهم وأنتم في غاية الذل ليسرع الحق في قضاء حاجتكم، والحمد لله رب العالمين.

[٦٦٦] د: عرياناً في داره.
[٦٦٧] ما بين المعقوفتين زيادة من ج.
[٦٦٨] أ: ذلك.
[٦٦٩] أ د: ربما.
[٦٧٠] أ: يستغيث.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يحمل[٦٧١] كله عنه فلا يسأله أن يساعده في كل حوائجه، وإنما يسأله في الأمور المهمة فقط عند عجزه عنها يخفف منة الشيخ عليه ويتصف بمقام الرجولية. فإن كل أمير احتاج إلى مساعدته في مهماته فهو من قسم النساء ليس له في كمال الرجولية نصيب. وقد قالوا: الكامل هو من عاش في خفارة[٦٧٢] أعماله الصالحة لا من عاش في خفارة[٦٧٣] شيخه أو إخوانه، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص (٨٥ب) رحمه الله يقول: ليحذر الأمير كل الحذر أن يطلب من شيخه أن يشارك في جميع ما ينوبه من الشدائد، وإنما الأدب أن يطلب منه المساعدة له في كل شيء عجز عنه العجز الكلي. قال: وليحذر الأمير أيضاً من أن يحمل الشيخ حملته ويذهب هو إلى تناول الشهوات من أكل وشرب وجماع وتفرج في البساتين والأنهار ويقول: إن شيخي قد أغناني عن مشاركته فيما حملته له. فإن ذلك من علامة الفشل وقلة المروءة، بل كما امتنع الشيخ من تناول الشهوات وحبس نفسه عنها حتى صار يحس بجسمه كأنه محشو ناراً فكذلك يكون الأمير، بل يتأكد عليه ذلك أكثر من الشيخ لأن الحاجة له والشيخ إنما هو مساعد له فيها. فاعلموا ذلك أيها الأمراء[٦٧٤] واحملوا حملتكم عن شيخكم أدباً معه وشفقة عليه ليتصف أحدكم بمقام الرجال دون مقام النساء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يأمنه على عياله وحرمه[٦٧٥] لو وقع أنه اختلى بهن فلا يخطر في باله أنه ينظر إلى إحداهم بشهوة ولا غيرها، ومتى خطر ذلك بباله فقد أساء الأدب مع الشيخ إذ المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وعيالهم، ومن لم يأمن شيخه على مثل ذلك فقد أخرجه عن مقام كمال الإيمان وعدم النفع به ووجب عليه التوبة وتجديد الصحبة. (٨٦أ) فاعلموا ذلك أيها الأمراء وقوموا بواجب حق شيخكم وأمنوه على أنفسكم وعيالكم بطريقه الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطلب منه أن يكلم من هو فوقه من الأمراء والوزراء[٦٧٦] أن يبقوه في تلك الولاية التي هو فيها أو ينقلوه إلى أعلى منها أو يترك التفتيش عليه إذا شكت منه رعيته، لأن الشيخ يجل مقامه عن مثل ذلك لأن ذلك ليس من شأنه. وقد يكون الأمراء والوزراء في تدبير يعود نفعه على الأمة ضد ما سأل فيه الأمير شيخه فيسيء الأدب معهم، فالواجب على الأمير أن يفوض أمره إلى الله ثم إلى شيخه، فإن رآه يفعل شيئاً فذاك، وإلا سكت خوفاً من لوث الأمراء والوزراء بعرض الشيخ وقولهم لأي شيء أدخل هذا الشيخ نفسه في أمور السلطنة والولاة، وكان الواجب عليه ملازمة زاويته والإقبال على ما هو بصدده من تربية الفقراء وإرشادهم وتهيئات أمر معاشهم.

[٦٧١] د: لا يحمل.
[٦٧٢] ج: حفارة، د: حقارة.
[٦٧٣] ج: حفارة، د: حقارة.
[٦٧٤] د: الإخوان.
[٦٧٥] ج: وخدمه.
[٦٧٦] ب: والاوزرا.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يطلب من شيخه أن يكلم الباشاة[٦٧٧] أو السلطان على تولية أحد من أصحابه كشفاً أو التزاماً أو مشيخة عرب على بلاد صيانة لشيخه عن اللوث بعرضه، وعن إضافة الفساد الذي يقع ممن والاه إليه. بل الواجب على الأمير أن يقول لشيخه الساذج[٦٧٨] المغفل إذا (٨٦ب) سعى عند الولاة في تولية كاشف أو شيخ عرب: يا سيدي لا تسعى في مثل ذلك ورُد الأمر إلى ولاة الأمور، فإني أخاف أن يقع ممن يسعون في توليته فساد فيضيفه الولاة إليكم [ثم][٦٧٩] لا يعودون[٦٨٠] يقبلون لكم[٦٨١] شفاعة، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يلح عليه في سعيه له على وظيفة كان وعده بها، بل يصبر ويلازم الأدب مع الشيخ حتى يتحرك هو لسعيه له من قبل نفسه بإذن الله. فإن الأمور مرهونة بأوقاتها التي يريد الحق تعالى إظهارها فيها، وهو الذي يعبر العلماء عنه بالقدر ويؤخرونه عن القضاء في النطق فيقولون: الأمور كلها بقضاء وقدر. فالقضاء قديم والقدر هو الوقت الذي يظهر فيه المقضي فكما تأخر المقضي في النطق به عن القضاء فكذلك تأخر في الظهور.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ربما وعد الفقير الأمير بولاية ثم رأى بعد ذلك أن حرمانه منها أولى لما فيها من التبعات مثلاً فصار يسأل الله عز وجل في تعسرها عليه رحمة به وشفقة عليه، فليسلم الأمير في مثل ذلك للفقير، انتهى. وسمعته يقول: ربما ألح الأمير على الفقير في سؤاله الحق تعالى له في تولية وظيفة فوراً ليستريح[٦٨٢] من الحاجة عليه وقال: لا بد من توليتك أي (٨٧أ) بظهرك[٦٨٣] عني إذا قمت من مجلسي. فظن الأمير أنه يقول له: لا بد من توليتك لتلك الوظيفة، فصار يلح على الشيخ في أمرها بغير حق، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واحذروا أن تسألوا شيخكم في مساعدتكم في الولاية في هذا الزمان لو كان وعدكم بها، فقد يتغير اجتهاده ويصير يتوجه إلى الله في حرمانكم منها رحمة بكم وشفقة عليكم وعلى دينكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يمتثل أمره إذا أمره بالإحسان إلى أعدائه فضلاً عن الصبر على إيذائهم له، فإنه لا يأمر الأمير إلا بما هو خير له في دينه ودنياه، لاسيما إن كان الأعداء أقارب للأمير وأعرف بدسائس ولايته وربما يأخذ[٦٨٤] من رعيته بغير علم السلطان ونوابه، فإنه يتأكد على الأمير كل التأكيد أن يتحمل إيذائهم له بعد الإحسان إليهم ليلا يفتضح، اللهم إلا أن يحصل بمثل ذلك رد الحقوق إلى أربابها فلا[٦٨٥] نظر[٦٨٦] إلى

[٦٧٧] ب: الباشا.
[٦٧٨] أ: سادج.
[٦٧٩] زيادة من ج.
[٦٨٠] ج: لا يعودوا.
[٦٨١] ج: إليكم.
[٦٨٢] أ: لتسريح.
[٦٨٣] ب: بطردك.
[٦٨٤] ج: وبما يأخذه.
[٦٨٥] «فلا» مكرر في أ.
[٦٨٦] ب: ننظر.

فضيحته. وقد تساهل بعض الأمراء في مثل ذلك ولم يحسن إلى أقاربه، فأعلموا[٦٨٧] أولي الأمر[٦٨٨] بجميع ما كان يأخذه من رعية من الظلم والمغارم الهوائية فكان سبباً لعزله وخراب دياره، ولو أنه كظم غيظه وأحسن إلى أعدائه ولو بغير طيبة نفس لكان أخف عليه مما وقع له. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وبادروا إلى امتثال أمر شيخكم لكم بالإحسان (٨٧ب) إلى أعدائكم تفلحوا،[٦٨٩] والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً [أن] [٦٩٠] لا يدخر عنه شيئاً يطلبه منه من نقود وطعام وثياب ونحو ذلك إذا كان من مذهب الفقير قبول الهدايات من الأمراء وأكل طعامهم، فإن الفقير لا يطلب من الأمير شيئاً بالأصالة إلا لمصلحة تعود على الأمير دونه هو.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يدخل في صحبة فقير إلا بعد أن يحكم الفقير في نفسه وماله ويفوض أمره إليه تفويضاً مطلقاً فيعتق من شاء من عبيده ويقف ما شاء من أملاكه، ومتى لم يكن كذلك فلا ينبغي لفقير أن يجيبه إلى الصحبة، انتهى.

وقد رأيت شيخنا الشيخ محمد السروي رحمه الله وقد جاء إليه جماعة القاضي شمس الدين بن عوض يطلبون منه أن يحمل حملته حين عزله السلطان الغوري وأسلمه للعقوبة. فقال لهم: أجمعوني عليه فلما أدخلوه على الشيخ وهو في الجنزير قال له: اخلع لي ثيابك وعمامتك واجعل في وسطك فوطة واخرج على تلك الهيئة إلى بيتك وأنا أحمل حملتك. فتوقف في ذلك وحك أذنه، فأخذ الشيخ قدرة كبيرة ورماها من طاقة بيته في الخليج [الحاكمي][٦٩١] وقال: يا حملة ابن عوض اذهبي إلى غيري. فعاقبوه تلك الليلة بحلق رأسه وإلباسه قحفاً ملاناً خنفساً وربطوه من تحت لحيته وغلوا يديه من خلفه، (٨٨أ) فصار الخنفس يحفر في دماغه والدم سائل على وجهه حتى كاد يهلك من ذلك. فعرضوا أمره على سيدي محمد المذكور فقال: يستأهل مثل ذلك كيف يشح علي بثياب اكتسبها من حرام وشبهة وتصير شراميط ويشح على من يحمل عنه هذه العقوبات؟ فبلغ ذلك القاضي شمس الدين المذكور فأرسل إليه تلك الثياب ومثلها معها فلم يقبلها منه الشيخ وقال: ذلك الوارد الصحيح زال وما بقي إلا التغفل في التحمل، وذلك لا يدفع عنه شيئاً، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وأعطوا شيخكم كلما طلب إن كنتم تعتقدون فيه الولاية والصلاح، وإياكم أن ترسلوا له شيئاً بغير سؤال فقد لا يكون محتاجاً إلى مثله. فإن الفقير لا يتناول شيئاً من شهوات النفوس إلا عند الحاجة الشديدة ويرى قبول كل شيء لم يحتج إليه ملحقاً بالعبث[٦٩٢] مع ما في رده من فتنة التميز عن الأقران، والحمد لله رب العالمين.

[٦٨٧] في ب د زيادة: بذلك.
[٦٨٨] أ: الأمراء، ج: أيها الأمراء، والتصويب من د.
[٦٨٩] ج: تفلحون.
[٦٩٠] ساقط من أ.
[٦٩١] أ د: الحاكم.
[٦٩٢] أ د: بالغيث.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يرد له شفاعة في مظلوم عرفاً إلا بما يرد به شفاعة السلطان فمن دونه من الأمراء من الأعذار[٦٩٣] الصحيحة التي لا تلبيس[٦٩٤] فيها، فإن حرمة الفقير كحرمة بعض ملوك بل أعظم لمن عقل واستبصر من حيث نور القلب والقرب من حضرة الرب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: (٨٨ب) لا ينبغي للأمير أن يبادر إلى قبول شفاعة الفقير إلا بعد أن يحقق منه الحذق والتبصر، فإن لم يكن كذلك كالفقراء المغفلين عن أحوال الخلق فللأمير عدم قبول شفاعته، لكن بعد أن يبين للفقير وجه كون ذلك المظلوم عنده ظالماً في نفس الأمر ليلا يتعب قلب الفقير. وسمعته يقول: من أدب الأمير إذا شفع عنده الفقير في أحد من الفلاحين الذين نهبت أموالهم وحملوهم خراج البور والمتسحبين من البلد، فليبادر إلى قبول شفاعته ويستغفر الله ويتوب إليه ولا يجوز له رد شفاعته خوفاً عليه من المقت وتحويل النعم عنه كما عليه مشايخ العرب والكشاف. وسمعته يقول: كل أمير صحب فقيراً أو ادعى شدة اعتقاده فيه ثم رد بعد ذلك شفاعته، فقد نقص عهد الصحبة ووجب على الفقير طرده إن لم يتب من ظلمه للعباد على الفور. وهذا أمر قد صار في الأمراء أعز من الكبريت الأحمر، فلا يكاد أحد منهم يقبل شفاعة فقير فيمن أخذوا ماله وحملوه ما لا يطيق من الخراج والمغارم أبداً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يعتقد أن عقل الفقير أتم من عقله وإشارته أتم من إشارته، وذلك حتى لا يخرج عن إشارة الفقير له في فعل أو ترك، بل يسلم قياده له كما يسلم المريد قياده لشيخه. وهذا أمر قد صار (٨٩أ) أعز من الكبريت الأحمر في الأمراء ولذلك تعسوا وانتكسوا من كثرة مخالفاتهم للفقير الذي صحبوه. فإنه كالرئيس للمركب والأمير كواحد من النوتية[٦٩٥] فما داموا يسمعون إشارة الرئيس فالمركب سالم من الآفات، فإذا خالفوه فقد تعرضوا للهلاك. فليكن الأمير الذي يصحب الفقير على حذر [فإن][٦٩٦] الهالك من الأمراء إذا صحب الفقراء أقل من السالم لعدم سماعه إشارته، فإن لذة الأمر والنهي وناموس الإمارة[٦٩٧] قد يغلب على الأمير فينسب الفقير إلى التغفل عن أحوال الخلق ويخالف إشارته. ولو أن الأمير لم يصحب الفقير وفعل بجهله لكان أمره أخف، فإنه لا يسع الفقير[٦٩٨] إلا أن يجرد النصح للأمير حتى يصير له عذر صحيح يعتذر به وحينئذ يقع له الهلاك في المخالفة. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يغير ما كان عاهده عليه من عدم تنفيد غضبه في كل من قدر عليه من أعدائه لاسيما حاشية الأمير الذي كان قبله في تلك الوظيفة، فإن كل من نفد غضبه بغير حق في أحد من أعدائه ربما قيض الحق تعالى له من ينفد غضبه فيه ممن لا يقدر هو على دفعه جزاء وفاقاً.

[٦٩٣] أ: أعزار.
[٦٩٤] أ: تلبس.
[٦٩٥] د: النواتية.
[٦٩٦] زيادة من ج د.
[٦٩٧] د: الإشارة.
[٦٩٨] ب: لفقير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من سخافة عقل الأمير أن ينفد غضبه في جماعة الأمير الذي كان قبله في تلك الوظيفة التي هو فيها ويخرجهم من ديارهم ويأخذ أموالهم، ثم يطلب من شيخه (٨٩ب) أن يرد عنه من ينفد غضبه فيه من أعدائه، بل الواجب عليه أن لا يعرض لشيخه بأن يرد عنه شيئاً من جزاء أعماله الرديئة أبداً، بل يرى جميع ما يقابله الحق تعالى به بعض ما يستحق. وتقدم في وصية الخضر عليه السلام لعمر بن عبد العزيز أن تنفيد غضب الأمير في أحد من رعيته بغير حق يقطع حبله عن حضرة ربه عز وجل، فلا يكون له ناصر من الخلق أبداً، لاسيما إن أخذ أموالهم وأكثر من حبسهم وضربهم بغير حق. فالعاقل من الأمراء من احتمل الأذى من رعيته وسامحهم وعفا عنهم ولم يقابلهم بشيء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يمرض لمرضه ويحزن لحزنه ويفرح لفرحه ويعادي من عاداه ويوالي من والاه، ويمتنع من إرسال هدية له لما قام في باطنه من علمه بكراهة الفقير لذلك، ولا يحتاج أن يعلمه الفقير بذلك لشدة الارتباط الباطني بينه وبينه، كما مر في آداب الفقراء مع الأمراء. فمتى مرض الفقير أو حزن أو فرح أو عاداه أحد أو والاه، ولم يعلم الأمير بذلك ولا مرض ولا حزن ولا والى ذلك الموالي ولا عادى ذلك المعادي، فهو علامة على عدم الارتباط بينه وبين شيخه. وهذا الأمر أعز من الكبريت الأحمر في هذا الزمان، فلا يكاد يتحقق به إلا أفراد من العارفين. وممن صحبني وكان يمرض لمرضي (٩٠أ) ويحزن لحزني ويفرح لفرحي ويوالي من أوالي ويعادي من أعادي من غير أن يعلمه أحد من الخلق بذلك الأمير يوسف بن أبي إصبع رحمه الله. وربما أخبره [أحد][٦٩٩] من خواص عبيده بشفائي فأعتقه فرحاً بشفائي رحمه الله. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يرى توليته للوظائف التي لا خلاص له فيها بواسطة شيخه، فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ، فإن الصادق لا يصح منه مساعدته أحد في شيء من الولايات التي لا خلاص له فيها، بل من شأنه مدافعته الأقدار المعلقة وردها عن صاحبه بخلاف الولايات التي يغلب[٧٠٠] على العبد فيها الخلاص، فإن للأمير إضافة المساعدة فيها إلى الشيخ.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ليحذر الأمير كل الحذر من إضافة المساعدة له في الوظائف التي لا خلاص له فيها لأن مثل ذلك [إنما يضاف][٧٠١] إلى النفس والشيطان أو غيرهما من ولاة الزمان. فإن الشيخ لا يدخل في ولاية أمير إلا إذا لم يكن له فيها تبعة، فيحل عقدتها بإذن الله تعالى من الحضرات السماوية، فتصير الرعية وولاة الزمان يسألونه في تلك الولاية ويقبلون رجله ليتولاها، فلا يغرم في طريق توليته لها شيئاً من الدنيا إلا على وجه الحلاوة لحاشية الولاة عادة في نظير (٩٠ب) الخلعة والطبل. ومتى غرم شيئاً من الدنانير زائداً على ذلك أو لم تسأله الرعية ولا الولاة في توليتها ولا ينبغي إضافتها إلى الشيخ. وليعلم الأمير أن من علامة كل من كان سبباً في ولايته أن يكون سبباً في عزله، فكما أقدره الله تعالى على التولية كذلك يقدره

[٦٩٩] ساقط من أ.
[٧٠٠] أ د: تغلب.
[٧٠١] أ د: إيضاف.

على العزل. وهذا أمر قد يخفى على كثير من الأمراء فربما كانت ولاية أحدهم وعزله على يد الشيخ ثم يضيف ذلك [بالجهل][٧٠٢] إلى غيره من الولاة، وغاب عنه أن الولاة الظاهرين نواب للفقراء في الحكم بين الناس ولا عكس. وقد استند بعض كشاف القليوبية إلى بعض الفقراء حتى ولاه فيها ثم أضاف ذلك إلى غيره، فعزل لوقته على يد الباشاة الذي كان مستعزاً به وأتى معه من بلاد الروم عقوبة له على إضافته الأمور بغير أهلها. ثم أنه جاء إلى الفقير واعتذر إليه فلم يقبله الفقير تأديباً له، انتهى. وسمعته يقول: يجب على الأمير إذا استند إلى شيخ أن يرى جميع الإقبالات والنعم المتوجهة إليه من السلطان فمن دونه إنما هي [من][٧٠٣] بركة الشيخ، وإن وقع أن الولاة تغيروا عليه وأدبروا بقلوبهم عنه فإنما ذلك بواسطة تغير قلب الشيخ عليه بذنب وقع فيه، فليكن على الحذر من تغير قلب شيخه أكثر حذر من تغير قلوب الولاة فإنهم تبع للشيخ. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تضيفوا إلى شيخكم المساعدة في ولاية (٩١أ) إلا إذا سلمت من التبعات وتوليتم فيها بغير بذل مال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يرى نفسه قد استغنى عن نصحه وإرشاده له في ساعة من ليل أو نهار، بل يجب عليه استصحاب شهود عوجه بل فسقه اللغوي أو الشرعي، فإنه قل أمير يسلم من ارتكاب ما يفسقه شرعاً أو لغة. فليحذر الأمير من الإصغاء إلى من يمدحه ويصفه بالإصلاح بحكم الضد مما يصفه به شيخه، فإنه هلاك لدينه. وقد بلغني كثرة الثناء الحسن عن بعض الأمراء فاجتمعت به في شفاعة فوجدته في غاية العوج وسوء الطوية، فنظرت إلى أمره فوجدت تلك الإشاعة إنما أشاعها الشحاذون الذين يشحذون منه القمح والأرز والعدس وغير ذلك مما يبلصه من الفلاحين بحكم العوائد التي أحدثها أمراء الجور قبله، فبينت له نقائصه فلم يدخل أذنه شيء منها، فسألت الله له الصلاح[٧٠٤] وأن يبعده عن قرناء السوء. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واقبلوا نصح شيخكم لكم وصدقوه في كل ما يضيفه إليكم من النقائص وبادروا بالتوبة من ذلك والاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يستعجله بإعطائه الوظيفة التي كان وعده بولايتها وهي في يد الغير فإن الفقير الصادق لا يكذب، (٩١ب) ولو قدر أن الحق تعالى لم يعطها له في اليقظة أعطاها له في النوم حتى لا يوقع[٧٠٥] وليه في الكذب، كما وقع للشيخ الدباس من مشايخ سيدي عبد القادر الجيلي. فإن بعض التجار شاوره[٧٠٦] في السفر فقال له: إن سافرت ذبحك اللصوص وأخذوا مالك، فسافر التاجر ثم رجع بماله سالماً، فظن بعض الناس عدم صدق الشيخ، فقال لهم الشيخ: اسألوه هل وقع له الذبح وأخذ المال في منامه أم لا؟ فقال لهم: نعم رأيت في المنام أنهم ذبحوني وأخذوا مالي. فقال الشيخ: إني سألت الله تعالى أن يحول ذلك في المنام ففعل، انتهى.

[٧٠٢] زيادة من ج.
[٧٠٣] زيادة من ج.
[٧٠٤] ج: الإصلاح.
[٧٠٥] د: يقع.
[٧٠٦] أ: شاوروه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي للأمير أن يشك في شيء وعده به الفقير فإنه لا بد أن يقع ذلك ولو بعد خمسين سنة وأكثر. وقد مثلوا الولاية في يد الغير بالمولود في بطن أمه [فإنه][٧٠٧] غير[٧٠٨] ممكن خروجها من يد ذلك الغير حتى تنتهي المدة التي سبق في علم الله وجود تلك الولاية في يده، انتهى. فيلكن الأمير على ثقة من وعد شيخه بحصول ولايته مثلاً لكن بالصبر والأدب وعدم الاستعجال، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يذكر لأحد من الأمراء ما يراه منه (٩٢أ) من الكرامات والخوارق فإنه بمثابة من يكشف سوءة شيخه للناس ليروها كما هو مقرون بين الصادقين.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على كل أمير أن يستر عورة شيخه فلا يذكر لأحد من أقرانه ما يراه منه من الكرامات والخوارق، فكما يتأثر العوام من الناس ممن كشف سؤاتهم الظاهرة كذلك يتأثر الفقراء الصادقين ممن يكشف للناس كمالاتهم الباطنة فإنها كسوءة عندهم لما في ذلك من الآفات التي تطرق الفقير إذا أحدق الأمراء عيوبهم إليه. وفي كلام سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله: حكم الفقير في هذه الدار من حيث ظهور كمالاته فيها كالجالس في بيت الخلاء، فإن رد عليه الباب قضى حاجته وخرج مستور السوءة، وإن فتح الباب عليه فقد كشف سوءته وهتك حرمته ولعنه كل من مر عليه، انتهى. فظهور كمالات الفقير في هذه الدار كمن جلس في بيت الخلاء مع فتح الباب وسترها حكم من جلس في بيت الخلاء والباب مردود عليه، عكس حال غالب الناس فإنهم يعتقدون أن ظهور كمالات [من باب ستر عوراتهم][٧٠٩] مطلقاً وهو قصور نظر، والكامل من نظر بالعينين ورأى ظهور كمالاته بعين ونقصها بعين. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واستروا عورة شيخكم في هذه الدار بكتم (٩٢ب) ما ترونه منه من الكمالات عن جميع أقرانكم إلا لضرورة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يتكدر إذا حط عليه في المجالس ونسبه إلى الجور والظلم وتبرأ من صحبته ولو بغير سبب ظاهر، لأن مرتبة الفقير الصادق تجل عن الكذب فليفتش الأمير نفسه فإنه يجد الشيخ هنا صادقاً فيما وصفه به من الجور والظلم إن شاء الله تعالى.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: من أدب الأمير أن يزداد محبة في الفقير كلما حط عليه وتبرأ منه وبالغ في نصحه ولم يداهنه، وكل أمير تكدر من مثل ذلك وجب على الفقير طرده من صحبته لظهور أنها صحبة لغير الله عز وجل، اللهم إلا أن يريد الفقير بدوام صحبته التمكن من تقويم عوجه فلا بأس بدوام الصحبة، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

٧٠٧ زيادة من المحقق.
٧٠٨ «غير» في هامش أ، وساقط من ج د.
٧٠٩ زيادة من ج د.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يمكنه من أكل لقمة واحدة من طعامه ولو أن الفقير غفل وأكل ناسياً غيرة على جناب شيخه أن يتدنس باطنه بطعامه ويضعف توجهه إلى الله تعالى في قضاء حوائجه. ومتى مكنه من أكل لقمة واحدة من طعامه فقد خان صحبته كما مر بسطه في الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يرضى بتوجه الفقير (٩٣أ) في عزله أو حبسه أو ضربه إذا ظلم وجار وقتل النفس وتعدى حدود الله، وأن يجري[٧١٠] مثل ذلك مجرى المقادير الجارية عليه من الحق تعالى بلا سبب يعرفه، فإن لم يرض بذلك فلا أقل من الصبر، فإنه ليس بعد عدوم الصبر إلا السخط على أقدار الله[٧١١] والضجر منها، وذلك حرام بالإجماع.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على الأمير أن يعتقد أن الفقير أشفق عليه من نفسه وأنه لا يتوجه فيه إلى الله إلا فيما علم أنه ينفع الأمير في دينه ودنياه. وسمعته يقول: من أدب[٧١٢] الأمير مع الفقير أن يزداد فيه محبة كلما رأى سهامه المسمومة متوجهة إليه في ظلمات الليالي إذا ظلم وجار، فإنه يريد بذلك تطهيره أو تخفيف الإثم عنه[٧١٣] بالموت، وقد قال ﷺ: وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك[٧١٤] غير مفتون. فما دعا الفقير على الأمير بالموت إلا محبة فيه، فليكن الأمير فرحاً مسروراً بدعاء شيخه عليه إذا لم يصح به توبة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن لا يطلب منه حصول ولاية أو دوامه فيها إلا إذا كان على قدم العدل لا يقع منه جور في وقت من الأوقات أو كان أصلح من غيره، وهذا أمر أعز من الكبريت الأحمر،[٧١٥] وما بقي في ولايات هذا الزمان غالباً إلا الظلم (٩٣ب) والجور وكثرة الآثام. فكل أمير طلب من شيخه مساعدته فيما يحصل له به الإثم فقد خان الصحبة، إذ الفقير من شرطه أنه لا يحب للأمير إلا ما يحبه لنفسه. ومعلوم أن الولاة لو عرضوا على الفقير مشيخة عرب أو عمالة أو كشفاً أو وزراً أو حسبة وبذلوا له على ذلك مالاً جزيلاً لم يجبهم إلى ذلك. ولو علم من نفسه المشي على العدل أخذ بالاحتياط لنفسه[٧١٦] فقد تتخلف عنه العناية ويقع في الظلم والجور وأخذ أموال الناس بالباطل. وإذا كان هذا قد يقع مع الفقير فكيف بالأمير؟

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كما أخل الفقراء بحقوق صحبة [الأمراء فكذلك أخل الأمراء بحقوق صحبة][٧١٧] الفقراء وما بقي غالباً إلا الكذب والنصب والتلبس[٧١٨] من الجانبين وإن وقع أن أحدهما ادعى الصدق، فذلك نادر، والحمد لله رب العالمين.

[٧١٠] أ: يجرى.
[٧١١] «الله» ساقط من ب.
[٧١٢] ب: آداب.
[٧١٣] ج د: عليها.
[٧١٤] د: فاقبضنا.
[٧١٥] ج: أمر عزيز.
[٧١٦] «المشي على العدل أخذ بالاحتياط لنفسه» ساقط من ج.
[٧١٧] ما بين المعقوفتين ساقط من أ.
[٧١٨] ج د: التلبيس.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يرضى بحكمه فيه كما يرضى العبد بحكم سيده، ومتى لم يرض الأمير بحكم الفقير فيه فليس للفقير صحبته لخروجه عن سياج الأدب. وكلامنا مع الفقير الصادق الزاهد في الدنيا الذي لا يقبل من أميره صدقة ولا هبة ولا هدية، أما الكاذب فليس على الأمير الرضا بحكمه فيه لعدم استحقاقه لمثل ذلك. بل ربما ظهر للأمير كذبه ونصبه فضربه وحبسه على وجه التأديب له، كما وقع لصاحبنا الأمير يوسف (٩٤أ) بن أبي إصبع مع بعض النصابين. فإنه قد كان اعتقده كل الاعتقاد من باب إحسان الظن به وصار يعمل له ولائم وصار يدعو إليها الفقراء والذاكرين والمداحين ويتبرك به ويمسح وجهه بثوبه، ثم ظهر أنه نصاب ليس فيه رائحة الصلاح فمده وضربه ضرباً مبرحاً وحلق رأسه ونزع منه عمامة[٧١٩] الصوف. فالعاقل من اعتبر وفتش صاحبه قبل أن يدخل في صحبته من أمير أو فقير، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً رضاه بمنعه من التردد إليه وإظهار النفرة من ذلك وكثرة الزجر له إذا خالف وتردد. ولا ينبغي له أن يسأل الفقير عن سبب منعه له من التردد فقد يكون إخباره [بذلك][٧٢٠] يؤدي إلى مفسدة أو تنقيص مقام أحد من أقرانه، كما إذا علم الفقير من أقرانه تهييج حسد له على تردد ذلك الأمير إليه، فمنعه التردد صيانة لدين أخيه عن النقص. فإذا قال الفقير للأمير: أنا ما منعتك إلا خوفاً على تغير قلب أخي الفلاني فقد فتح له باب تنقيص أخيه المذكور ونسبه إلى الحسد[٧٢١] والغيرة النفسانية. فكان من الأدب للأمير عدم سؤاله عن علة منعه من التردد إليه، وكان من أدب الفقير كذلك عدم ذكر تلك العلة وفاء بحق صاحبه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: (٩٤ب) الأمير مع الفقير كعبد السوء مع سيده الكريم الواسع الخلق، فلا يزجر الأمير إلا على فعله ما فيه مفسدة، كما لا يزجر السيد عبده إلا على ما خرج فيه عن سياج الأدب. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أن لا يقع منه ازدراء له في نفسه إذا شكا له من ضيق المعيشة عليه وعلى عياله، فقد يكون الفقير إنما شكا له من ضيق المعيشة عليه وعلى عياله ليفتح له باب الرضا عن الله والقناعة باليسير من الرزق إذا وقع أن الله تعالى ضيق عليه المعيشة. فكان الشيخ يقول للأمير: انظر إلى حالي من الضيق واصبر على ذلك كما صبرت. ومن كان هذا مشهده فلا يجوز للأمير ازدراؤه بل الواجب عليه تعظيمه والتأسي به. فإن الفقير قد خرج من[٧٢٢] محبة الدنيا بما زاد على الجزء البشري من أول دخوله في محبة طريق القوم وصار كل يوم لا يجد فيه غداء ولا عشاء كأنه يوم عيد عنده، وكل يوم تتسع عليه فيه الدنيا كأنه يوم مصيبة عنده، بل قال لي أخي أفضل الدين: إن فقد ولدي العزيز وزوجتي الصالحة وذهاب مالي أحب إلي من حدوثهم بعد فقدهم، انتهى. فليحذر الأمير كل الحذر من خطور ازدراء مقام الفقير إذا شكا له من ضيق المعيشة، والحمد لله رب العالمين.

[٧١٩] أ: عمامه.
[٧٢٠] زيادة من ج.
[٧٢١] د: نسبته الحسد.
[٧٢٢] د: عن.

ومن أدب الأمير مع الفقير أيضاً أن يعرض عليه كل قليل أفخر ما عنده (٩٥أ) من النقود والملابس والمطاعم والمشارب إظهاراً لشدة محبته له وبياناً لكونه[٧٢٣] لا يدخر عنه شيئاً من نفائس أمواله، فعلى الأمير العرض وعلى الفقير الرد.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ينبغي للأمير أن يبين لإخوانه[٧٢٤] مقام الشيخ في زهده وورعه مع سؤال[٧٢٥] الله عز وجل أن يحفظ شيخه من الآفات التي تتولد من ظهور علو المقام، وما ألذها من معاملة [الأمير يعرض والشيخ يرد][٧٢٦] بخلاف ما إذا كان الأمير بالعكس، فإنه في غاية القبح لما فيه من رائحة بخل الأمير وعدم ورع الفقير وكثرة سقاطة نفسه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعرضوا على شيخكم أنفس أموالكم، ولو علمتم منه الرد جزماً إظهاراً لقربه[٧٢٧] بين الأقران، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أن يخلص النية كلما أراد الخروج إلى زيارته فلا يكون الباعث له على تلك الزيارة علة دنيوية أو أخروية، كأن يساعده على تولية وظيفة أو يأخذ بيده في شدائد يوم القيامة وأهوالها، ومتى خرج لعلة دنيوية أو أخروية فقد أساء الأدب مع الفقير وخرج عن كمال المروءة وآداب الصحبة.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من طلب من الأمراء أن يصحب فقيراً فلا يجعل ذلك لعلة دنيوية ولا أخروية بل يصحبه خالصاً لوجه الله الكريم، وهناك تقضى حوائج الأمير في الدارين بسرعة لفقد العلل فإنها تبطئ بقضاء الحوائج وتحول (٩٥ب) بين العبد وبين سرعة قضائها كما جرب. وهذا أمر أعز من الكبريت الأحمر لا يكاد يوجد في أمير، وغالب الأمراء إنما يصحب الفقير لعلة دنيوية أو أخروية ولا يخفى ما في ذلك من النقص، والحمد لله رب العالمين.

ومن أدب الأمير مع الفقير أن لا يطالب شيخه بالقيام بشروط الصحبة إلا إن علم الأمير من نفسه في أقواله وأفاعله[٧٢٨] وعقائده وأنى[٧٢٩] له بذلك، كما أنه لا يطالبه بحصول ولاية على يده إلا إن علم أن تلك الولاية مقسومة له في الأزل لئلا يكلف شيخه شططاً فتكون مطالبته له بها إنما هو على سبيل إظهار الفاقة والحاجة، كما يسأل العبد ربه في حوائجه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: قد يعارض أصحاب النوبة الشيخ في توليته أميره ولاية سبق منهم تعيينها لأحد ممن يعتقدهم من الأمراء وغيرهم، فلا ينبغي للأمير مطالبة شيخه بها فإنه تحت حكم أصحاب النوبة في ذلك، لاسيما إن كانت لا تسلم من التبعات كما مر تقريره مراراً، انتهى. وسمعته يقول: قل من فقراء الزمان من يعرف أنه تحت حكم أصحاب النوبة في ذلك، فربما سعى في تولية أمير بغير إذنهم فلم يقدر

٧٢٣ أ د: كون، والتصويب من ج.

٧٢٤ أ: لاخونه , ج: لأنه.

٧٢٥ ب: رسول، ج: رسوال.

٧٢٦ ب: بعرض والشيخ يرد.

٧٢٧ د: لرتبته.

٧٢٨ ج: أفعاله.

٧٢٩ ج: أتى.

على إيصالها إليه بحيلة من الحيل. ولو أنه عرف أنه تحت حكم أصحاب النوبة لكان سألهم في ذلك وانتظر ما يقع منهم من تولية أو عدمها كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب إرشاد المغفلين من الفقراء (١٠٠أ)[٧٣٠] إلى شروط صحبة الأمراء وهو كتاب نفيس لا يستغنى من يصحب الأمراء عنه، والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخر ما فتح الله تعالى به علي من آداب صحبة الفقراء مع الأمراء وعكسه بحكم الإيجاز والاختصار، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ونفع به مؤلفه وكاتبه وسامعه والناظر فيه، وأوصي جميع الإخوان إذا من الله تعالى على أحدهم بالعمل بما في هذا الكتاب أن يشكر فضل ربه عليه ولا يفتخر على أحد ممن لم يقسم له العمل به أو بشيء منه، كما عليه المريدون الذين لم يفطموا عن الرعونات البشرية على يد الأشياخ الصادقين الغواصين على دسائس النفوس، عملاً بقول السيد عيسى عليه الصلاة والسلام: إنما الناس قسمان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله على العافية والحمد لله وحده[٧٣١]. يقول مؤلفها[٧٣٢] عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني[٧٣٣] ثم المصري: قد كان الفراغ من تسويد هذه الرسالة[٧٣٤] في سابع وعشرين رمضان المعظم قدره سنة إحدى[٧٣٥] وخمسين وتسعمائة، والحمد لله رب العالمين.[٧٣٦] وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة المباركة في يوم الخميس العشر في شعبان المبارك سنة اثنا عشر ومائة وألف بقلم الفقير إلى الله الكافي فتح الله بن الحاج أبو بكر بن صافي الحلبي الشافعي القادري غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولمن طالع فيه ودعا لهما بالمغفرة آمين.[٧٣٧]

[٧٣٠] ورقات ٩٦أ – ٩٩ب بياض في أ.

[٧٣١] «والحمد لله وحده» ساقط من ب ج.

[٧٣٢] ب ج: قال ذلك وكتبه مؤلفه.

[٧٣٣] ب ج: قال ذلك وكتبه مؤلفه، د: قال ذلك مؤلفه عبد الوهاب الشعراني تغمده الله بالرحمة والرضوان ونفعنا ونفع المسلمين ببركاته.

[٧٣٤] «المصري قد كان الفراغ من تسويد هذه الرسالة» ساقط من ب ج، د: وكان الفراغ من هذا الكتاب يوم الأربعاء ثامن عشر شهر صفر الخير سنة عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إليه الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير إبراهيم بن بدر الدين الشهير بالإمام الزجاجي سامحه الله ومن يدعوا له بالسماح والتجاوز عن الثبات وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

[٧٣٥] ج: أحد.

[٧٣٦] في ب زيادة: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير، و» والحمد لله وحده» ساقط من د.

[٧٣٧] كتب في هامش أ: مقابلة بحسب الطاقة بحمد الله وعونه. ب: ووافق الفراغ من كتبه يوم ستة عشر من شوال سنة إحدى وتسعين ومائة وألف من هجرته عليه الصلاة والسلام على يد كاتبه أحوج الورى وخدم (كذا) الفقراء محمد بن محمد الماجري نسباً المالكي مذهباً الأشعري اعتقاداً غفر الله له ولوالديه ولأشياخه ولجميع المسلمين، والحمد لله رب العالمين، انتهى. ج: وكان الفراغ من تعليق هذه الرسالة المباركة على يد أفقر العباد وأحوجهم إليه العبد الفقير المقر بالعجز والتقصير الراجي عفو ربه الكريم بالعفو والغفران من جميع ذنوبه وزلاته، علي مسعود بن أحمد بن وناس المسالتي غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم بالمغفرة لنا لجميع المسلمين، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ما دامت السموات والأرض، والحمد لله وحده ولا نبي بعده اللهم آمين. تأريخ يوم الخميس سابع محرم سنة [بياض] وثمانين ومائة وألف.

بداية مخطوط أ

(١أ)

نظر فيه العبد الفقير عبد القادر ابن الشيخ عبد السلام في سنة ١١٨٥

قد تملكه العبد الفقير السيد عبد الباقي المصري

[مختصر كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء]

(١٠١أ) بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين،

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا محمداً ﷺ عبده ورسوله إلى جميع المكلفين، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، صلاة وسلاماً بدوام رب العالمين، آمين.

وبعد فهذه رسالة اختصرتها من كتابي[١] المسمى بإرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء. وكان الباعث لي على تأليفها ما بلغني من مزاحمة فقهاء هذا الزمان وفقرائه على مصاحبة الأمراء من غير معرفتهم بشروط الصحبة، حتى أن بعضهم صار يكره كل من شاركه في صحبة ذلك الأمير الذي سبقه إلى صحبته. ولو أنهم كانوا يعرفون شروط صحبته وما يلزمهم من الواجبات، لما تزاحموا على أمير قط، كما ستراه إن شاء الله تعالى في هذه الرسالة. ولكن ذلك كله تصديقاً لرسول الله ﷺ في قوله: لا تقوم الساعة حتى يتغاير العلماء على صحبة الأمراء كما يتغاير الناس على النساء، انتهى. وفي كلام الإمام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لا ينبغي لعالم أن يدخل على أمير ولو بقصد نصحه، فإن الأمراء لا يصبرون على سماع النصح من العلماء، انتهى. (١٠١ب) وقد دخل أبو عبد الله الأصمعي رحمه الله على هارون الرشيد يوماً فقال له: ما حاجتك يا أبا عبد الله، ما جاء بك؟ فقال: طلب النصح، فقال هارون: نعم الناصح ولكن نخبرك يا أبا عبد الله بشيء وهو أنك لا تنصحنا في ملأ ولا تغشنا في خلاء، انتهى. وإنما خصصنا هذه الرسالة بإرشاد المغفلين لأنهم هم الذين يزاحمون على الأغراض الدنيوية، بخلاف الحذاق في أمر دينهم من الفقهاء والفقراء، فإنهم لا يزاحمون على القرب من الأمراء فضلاً عن صحبتهم، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

إذا علمت ذلك يا أخي، فأقول وبالله التوفيق:

مقدمة مشتملة على جملة صالحة من شروط صحبة العلماء للأمراء وعكسه، لخصتها من أحوال مشايخنا الذين أدركناهم أوائل القرن العاشر، كما أشرنا إليهم في خطبة الكتاب تتميماً وكمالاً للتخلق مع سائر الطوائف، وتنبيهاً لإخواننا المغفلين من الأمراء وطلبة العلم على شروط صحبة كل منهما للآخر، إذا الأمير ربما صحب العالم لغير الله وعكسه، فلذلك قسمت هذه الخاتمة على قسمين، الأول في صحبة العالم للأمير.

فمن أخلاقه مع الأمير أن يخلص النية في صحبته، فلا يصحبه لشيء من العلل النفسانية (١٠٢أ) كمحبة الرياسة وحلاوة المجالسة وقبول بره وإحسانه، والتلذذ بذكر الأمير محاسنه وأخلاقه الحسنة بين أقرانه من زهد وورع وعفة وخشية وخوف من الله وغير ذلك، فليمتحن طالب العلم نفسه إذا صار يشفع عند الأمير في المظلومين، ويدعي الإخلاص في ذلك، بما لو كان الأمير لا يعتقده ولا يبش في وجهه ولا يحسن إليه بوجه من

[١] ر: كتابي هذا.

الوجوه، بل ينكر عليه ويقطع في عرضه حتى يخرجه عن دائرة العلماء إلى دائرة الفسقة والنصابين والمرائين، ومع ذلك تنقضي الحاجة على يديه، فإن كان قلبه يفرح لذلك أكثر من إقباله عليه فهو مخلص، وإلا فهو مراء في صحبته وشفاعته، وهذه دسيسة قد تخفى على كثير من الفقراء.

وقد سمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى[٢] يقول: ربما صحب طالب العلم الأمير وأحبه أشد المحبة مع[٣] شدة ظلمه للعباد والبلاد وكثرة ما يقع فيه من الفواحش، ويصير يجيب عنه مَن نسبه إلى الظلم والفسق لأجل إحسانه إليه بالمال والجاه وإقباله عليه بالمحبة دون أقرانه، فليتنبه طالب العلم لنفسه ويخلص في الصحبة، وإلا هلك في دينه، انتهى. وسمعته رحمه الله يقول: لا ينبغي لطالب العلم أن يصحب أميراً إلا بعد المبالغة في الزهد فيما في يد الأمير، وإلا فمن لازم ذلك عدم احترام الأمير له، فلا يكاد يخاف (١٠٢ب) منه ولا يقبل له شفاعة ولسان حاله يقول: كلانا يحب الدنيا وشهواتها، فما تم تمييز بيني وبينه. وسمعته يقول: إن لم يعلم طالب العلم شدة اعتقاد الأمير فيه، وأنه أشفق عليه وعلى دينه من نفسه، فليس له أن يصحبه، لأنها صحبة قليلة الفائدة. قال: من علامة شدة اعتقاده فيه أن يصير كل شعرة في الأمير تشهد أن الله تعالى راض عن ذلك العالم، وأنه لا يرد له دعاء في حق الأمير ولا غيره لشدة قربه من حضرته ومحبته له، وأنه لا ينصح الأمير إلا فيما فيه سعادته في الدنيا والآخرة، ومتى لم يكن اعتقاد الأمير كذلك، فيا طول تعبه معه، وربما نفر قلب الأمير منه ومنعه دخول داره. وسمعته يقول: لا ينبغي للعالم أن يرجع إلى كلام الأمير في دعوة المحبة والاعتقاد فيه إلا بعد طول الامتحان، فليمتحن العالم ذلك الأمير بما لو طلب منه التوجه إلى الله تعالى في دوام ولايته ليسعى هو فيها، فعكس عليه الحال وتوجه إلى الله تعالى في دوام ولاية عدوه أو عزله هو من ولايته، فإن انشرح قلبه لذلك وزاد اعتقاده في العالم، فهو صادق، وإن تكدر لذلك أدنى تكدر، فهو كاذب، فليس للعالم صحبته. وسمعته يقول: من لم يعتقد في الشيخ الذي يصحبه أنه أشفق عليه من والدته، وأنه دائر في المصالح الدينية أو الدنيوية التي لا تبعة على الأمير (١٠٣أ) فيها، فلا ينبغي للشيخ أن يصحبه، انتهى. وسيأتي في القسم الثاني من هذه الخاتمة أن من علامة صدق الأمير في صحبة الفقير أن ينشرح بتوجه الفقير إلى الله تعالى في عزله من تلك الولاية التي هو فيها، وأن يحول بينه وبين ولايتها أبداً ما عاش، فإن أقل أحوال العالم إذا لم يكن عنده كشف فيما هو الأصلح لذلك الأمير أن يكون من أهل الاجتهاد فيما هو الأصلح له، فما توجه إلى الله تعالى في عزل صاحبه، وأن يحول بينه وبينها إلا لكون ذلك أصلح له في الدنيا والآخرة، وأن الأمير متى تكدر من الشيخ لأجل ذلك وجب على الشيخ مقاطعته والخروج من صبحته إلى أن يرجو رجوعه إلى قبول نصحه في زمن قريب، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص يقول: يحرم على العالم موافقة الأمير في طلبه شيئاً من الولايات التي لا خلاص فيها، كأن يكون كاشفاً أو عاملاً يجمع الخراج بالجور والظلم ويأخذ المكس والرشوة ونحو ذلك.

[٢] ر: رحمة الله تعالى عليه.
[٣] أ: من.

[ونحن إن][4] سلمنا أن الأمير أعمى القلب عن أحوال الآخرة فكيف يليق بالعالم أن يكون أعمى عن شهود ذلك؟ وسمعته يقول: مساعدة العالم للأمير إذا طلب ولاية لا خلاص فيها إنما تكون بعدم مساعدته له بتوجه وعزم أن يحول الحق تعالى بينه وبين تلك الولاية. وإن قُدر أن الأمير غضب عليه في الدنيا، فسوف يرضى عنه ويشكر فضله (١٠٣ب) على ذلك في الآخرة. وسمعته يقول: من علامة إخلاص العالم إذا صحب أميراً أن لا يقبل منه براً ولا إحساناً ولا صدقة ولا هبة ولا هدية، بل لا يخطر مثل ذلك على باله، وأن يدور مع المصالح التي تعود على الرعية، فإن رأى أميره أصلح للرعية، يسأل الله تعالى له دوام الولاية، وإن رأى عدوه أصلح، سأل الله تعالى أن يعزل أميره ويولي ذلك العدو، فان من شرط المخلص في صحبة الأمراء أن يكون قلبه فارغاً سالماً من العصبية مع أميره لغرض نفساني، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إذا عرف العالم من الأمير أنه لا يريد الولاية إلا للتبسط في الدنيا وشهواتها فضلاً عن ظلم العباد وأخذ أموالهم بغير حق، وجب عليه عدم مساعدته عليها بوجه من الوجوه، وأن يعارضه في الوصول إليها بكل شعرة في جسمه، كما يجب عليه أن يتوجه إلى الله تعالى في ولاية عدو أميره إذا كان أصلح للرعية. وسمعته يقول: إياكم أن تميلوا بالمحبة إلى أحد من ولاة هذا الزمان إذا أظهر[5] لكم شدة الاعتقاد فيكم والمحبة لكم، وفتِّشوا أمره، ربما كان مقصوده من صحبتكم أن تساعدوه في الولاية التي يطلب دوامه فيها أو الوصول إليها إن كانت في يد غيره، وأن تشاركوه في تبعة جميع المظالم التي تقع في الدنيا والآخرة. وإن شككتم في قولي فأعلموه (١٠٤أ) بحق وصدق أنه ليس فيكم شعرة واحدة تساعده في ولاية، واجهروا له بقولكم: اللهم إني أسألك بأنبيائك وأوليائك أن تحرم فلاناً هذه الوظيفة أبداً ما عاش. وأظهروا له محبة عدوه وترددوا إليه، فإن انشرح لذلك ودام على صحبتكم، فهو صادق في أنه صحبكم لله تعالى، وإن عبس وجهه، فهو غير صادق. وسمعته يقول: من شرط العالم الذي يصحب الأمراء أن يكون أشد الناس تورعاً عن قبول شيء من الدنيا، بل الواجب عليه أن يشرط عليه أول صحبته له أن لا يهدي إليه هدية ولو من حلال مدة صحبته له، ويقول له: إن أهديت الي هدية، فما بيني وبينك صحبة، من صميم قلبه لا تملقاً ونفاقاً، ليلا يقيسه الأمير على غيره من النصابين، فإن دائرة الفقراء لا يذوقها أحد من الأمراء في الغالب. وقد شرطت من هذا الشرط على سليمان الكاشف بالفيوم، فلم يرسل إلي هدية مدة ولايته. ثم بعد سنين قال له شخص: إن فلاناً متكدر منك، فقال على الفور لخازن داره: أنتم ما أرسلتم له عادته هذه السنة؟ فقاس غيظي عليه على أحوال الفقراء الذين يردون عليه يسألونه الدنيا، فمن ذلك اليوم تركت صحبته وعرفت أنه ما بيني وبينه رابطة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه (١٠٤ب) الله تعالى يقول: من شرط العالم الذي يصحب أميراً أن يكون من أشد الناس تورعاً من الشبهات وأشدهم كراهة للدنيا، بحيث يصير يتكدر إذا دخلت عليه، وينشرح إذا ولت عنه، عكس حال أبناء الدنيا. وذلك ليدوم له المقام في قلب الأمير، ويقبل شفاعته من المظلومين، فإن من

[4] ما بين المعقوفتين زيادة من كتاب الصوفية والسياسة.
[5] ر: ظهر.

أحب الدنيا كان مهاناً في ملكوت السموات والأرض، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ، فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾.[٦] وسمعته يقول: لا يتم لفقير مقام الزهد في الدنيا حتى يصير يدفع الدنيا عنه بقلبه، بحيث أنه لو قيل للدنيا: اذهبي إلى فلان، لم يجب إلى ذلك لما يعلمه من نفرة قلبه منها، فلا يجد له عنده محلاً تقيم فيه. وسمعته يقول مراراً: اللهم اجعلنا ممن يزهد في الدنيا، ولا تجعلنا ممن يزهد هو فيها، وقد يزهد أحدنا فيها وعنده بقية ميل إليها وذلك نفاق.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من علامة صدق الشيخ في صحبة الأمير أن يدفع عنه هدية الأمير بقلبه، فلا يخطر على قلب الأمير إرسال هدية للشيخ في وقت من الأوقات، فضلاً عن إرسالها إلى بيته، فالشيخ غير صادق في الصحبة. إذا لو كان صادقاً لمحا من قلب الأمير خطور إرسالها فضلاً عن إرسالها، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي يرد هدايا الأمراء ويقول: نحن أوسع من (١٠٥أ) الأمراء في الدنيا، وذلك لكثرة ما على الأمراء من المصارف بحسب نظامهم، وبخلاف الفقراء لكون قناعتهم بالقليل من الدنيا، فرجع وسع الأمراء في الدنيا إلى الضيق. وكان رحمه الله يشرط على من يصحبه من الأمراء أن لا يرسل إليه قمحاً ولا عسلاً ولا عدساً ولا غير ذلك مما يهديه الأمراء للفقراء في العادة، ويقول له: إنما صحبتك لتقبل نصحي لك.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يشرط على الأمير الذي يصحبه أن لا يأكل له طعاماً ولا يشرب له شراباً، ولو كان ذلك من حلال، ويقول: إن الشيخ إذا قبل هدية الأمير، صار معدوداً من عيال الأمير وصار مأموراً لا آمراً، وذلك ينافي شهامة الأشياخ ويذهب هيبتهم من القلوب، ولا يصير الأمير يقف عند قول أحد منهم، انتهى.

وقد صحبت بحمد الله تعالى الأمير حسام الدين بن بغداد وأولاده، فلم أقبل لهم هدية ولم أذق لهم طعاماً ولا شراباً ولا لبست منهم ثياباً ولا فراشاً إلى وقتي هذا. وإن وقع أن أحدهم أرسل شيئاً من العسل أو العدس إلى الزاوية مثلاً، لا أذوق من ذلك شيئاً حماية لي من الله عز وجل لا بحولي ولا بقوتي. وقد أدخلني محمد بن بغداد قاعته التي فيها عياله وأمرهم بتقبيل نعلي، وفتح لي قَطْرَميزاً فيها شراب تفاح، وقال: اجبر(١٠٥ب) بخاطر العيال وذق عندنا من هذا ولو مقدار درهم غدار، فلم أوافقه على ذلك، فطأطأ على نعلي وقبله، وقال: اجبر لخاطري أنا، فقلت له: اسمع يا محمد إنا لم نصحبك لمثل ذلك، وإنما صحبناك لمصالح العباد، ويكون على علم الأخ أن سهام الفقراء المسمومة متوجهة إليك ليلاً ونهاراً ليرموك بها إذا خالفت ما ينصحوك به وظلمت العباد والبلاد تأديباً لك ومحبة فيك، ونحن لا نرى إبطال عمل سهامنا لأجل جبر خاطرك بأكل لقمة أو لحسة من شرابك هذا. فرجع عني من ذلك اليوم ولم يطالبني بقبول هدية إلى أن مات رحمه الله، فاقتدوا بي أيها الإخوان في مثل ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لشيخ أن يذوق شيئاً من طعام الأمراء الذين يصحبهم لأن طعامهم لا يسلم من الحرام والشبهات غالباً، حتى أنه لو حمل فلاحاً درهماً من خراج زراعته أو سخره في حرث أو حصاد، ولو ساعة واحدة، صار ذلك كله من الشبهات وبطل دعاؤه. ولا ينبغي لفقير أن يبطل دعائه في مصالح الأمير أو العباد بأكله من ذلك الطعام، انتهى.

[٦] الحج، ١٨.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إياكم أن تعتقدوا بفقراء عصركم الذين يترخصون في قبول هدايا الأمراء التي تأتيهم بغير سؤال ويحتجون بما ورد في الحديث من قوله ﷺ: ما جاءك من هذا المال من غير سؤال ولا استشراف (١٠٦أ) نفس فخذه وتموله، فإنما هو رزق ساقه الله إليك، فإن الحديث إنما هو في حق ما جاء العبد بغير سؤال من الحلال. أما الشبهات كطعام الأمراء، فقد حث الشارع على رده والتبرع عنه، كما يعرف ذلك كل متشرع خالط الولاة وعرف ما يدخل ديوانهم من هدايا العمال ومن البلص والجرائم، فإن أموالهم مجتمعة من ذلك كله. وسمعته يقول: إياكم أن تقبلوا شيئاً من البقر أو الغنم الذي يرسله لكم الولاة أيام الضحايا وغيرها، فإنه كله شبهة أو حرام يأخذونه غصباً عن الفلاحين. وإياكم أن تتساهلوا في مثل ذلك إذا قالوا لكم هذه الضحية اشتراها لكم الأمير بماله من السوق الفلاني بحضرتنا، فإن كل شيء اشتري بالحرام أو الشبهات، فحكمه حكم أصله. وقد قالوا للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما تقول في نبيذ الجر هل يحل؟ فقال: اسألوا أولاً عن ثمن الزبيب من أين جاءهم، انتهى. وقد أرسل بعض الولاة لنا بقرة إلى الزاوية، وشهد الذي جاء بها أن الأمير اشتراها من السوق، فجاءني شخص من الثقات وأخبرني أنه أخذها بلصاً من المكاس الذي يأخذ المكس على البقر، فرددتها إلى الأمير، فقلت له: أرسلها إلى غيرنا، فأننا غير محتاجين إليها، ولا تعد ترسل لنا بعد ذاك شيئاً إلا إن طلبناه منك، وأمرت فقراء الزاوية أن لا يعودوا يقبلوا شيئاً من (١٠٦ب) هدايا الكشاف ومشايخ العرب مطلقاً ففعلوا، انتهى، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن لا يوهم الأمير أنه يساعده[٧] في دوام الولاية التي هو فيها أو في تحصيل ولاية يترجاها من سائر الوظائف التي لا تسلم من الظلم وتبعات الخلائق. وإنما الواجب على الشيخ أن ييئسه من المساعدة في توليتها، ويقول بحق وصدق: ليس في شعرة واحدة تحن إلى مساعدتك في هذه الولاية مصلحة لك ومحبة فيك، فإن كنت تطلب أحداً أن يساعدك في توليتك لها فاذهب إلى غيري، لاسيما إن كانت كشوفية أو مكساً أو مشيخة عرب ونحو ذلك. فإنه لا ينبغي بل لا يجوز شرعاً المساعدة في مثل ذلك لأمور يقعون فيها. ربما يوقع في الكفر من تسمية المظالم واجبة والاستهانة بجبايتها حتى كأنها حلال.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى إذا صحب أحداً من الأمراء يقول له: أصحبك يا أخي بشرط أنني لا آكل لك طعاماً ولا أقبل لك هدية . وإذا رأيت الخير لك في عزلك من ولايتك أو في حرمانك مما تطلبه من الوظائف، سألت الله تعالى في عزلك منها أو في حرمانك. ويقول: اعلم يا أخي أنك إذا ظلمت أحداً من رعيتك ولو في دجاجة أو بيضة، صارت كل شعرة في تلعنك وتتوجه إلى (١٠٧أ) الله تعالى في عزلك وتأديبك، ولو بالضرب الشديد والحبس الطويل. فإن شئت فادخل في صحبتي على هذا الشرط، وإن شئت، فاذهب إلى غيري. وسمعته رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز للفقراء في هذا الزمان أن يساعدوا أحداً في شيء من ولايات الظلم، ولو تردد إليهم سنين عديدة واعتقدهم كل الاعتقاد. وكل فقير ساعد في ذلك، فهو شريك لصاحب تلك الولاية في الإثم الحاصل له وفي الخزي الواصل إليه في الدنيا والآخرة، فليكن الفقير الساذج على حذر في

[٧] أ ر: يساعدوه.

هذا الزمان من صحبة الأمراء لأن أحدهم أعمى البصر والبصيرة. ولو أنه نظر إلى ما يحصل له من العقوبات في الدنيا والآخرة ما قبل تلك الولاية، ولو سئل فيها بغير مال أبداً، انتهى.

وسمعت سيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالى يقول: من علامة الشيخ الذي يصحب الأمير لله تعالى أن لا يفرح بولايته ولا يحزن على عزله لأنه[٨] دائر مع مراد الله تعالى لا مع مراد الأمير. وإنما وظيفته كثرة النصح له أيام ولايته وكثرة تسليته له إذا عزل وقوله له: قد استرحت من مظالم العباد والبلاد، ويكفيك ما حصل لك من الظلم أيام ولايتك، فلا يرى له مع الله تعالى حلاً ولا ربطاً إنما هو كغلام السلطان، فإذا خلع على عبد خلعة بولاية علمه آدابها، وإذا عزله من ولايته، علمه آداب العزل، (١٠٧ب) وقلبه فارغ من ترجيح أحد الأمرين. وسمعته يقول: متى تكدر الفقير من عزل الأمير الذي يعتقده وتولية الأمير الذي يكرهه وينكر عليه، فليعلم أن صحبته للأمراء ليست لله تعالى وإنما هو لحظ نفس. ولو أنه كان صادقاً في صحبته، لدار مع مرضاة الله تعالى وقدم مرضاته على مرضاة نفسه وأميره. وسمعته يقول: من علامة صدق الفقير في صحبته الأمير أنه لو مكث سنة أو أكثر متوجهاً إلى الله تعالى في تولية أميره ولاية يطلبها، ثم ولى الله تعالى في تلك الوظيفة عدو ذلك الأمير وحال بينه وبينها، انشرح لولاية ذلك العدو أكثر من انشراحه لولاية أميره. ومتى حصل عنده بعض تكدير بولاية عدو أميره، فصحبته له لغير الله تعالى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: لا تصحبوا من الأمراء إلا من ينشرح لدعائكم له بالعزل ولعدوه بالنصر. ومتى انقبض خاطره من دعائكم لعدوه بالنصر ودوام الولاية، فلا تصحبوه لأنه يريد يدخلكم تحت حكمه وذلك ينافي مقام الفقراء.

وسمعت الشيخ نور الدين المحلي رحمه الله يقول: من علامة صدق الشيخ إذا ابتلي بصحبة أحد من الأمراء الجورة أن لا يكون فيه شعرة تحبه، فهو وإن خالطه، قلبه يلعنه. وسمعته يقول: من ظن من أمراء الجور أن[٩] أحداً من (١٠٨أ) العلماء العاملين يكون معه على عدوه إذا صحبه، فقد خاب ظنه ولو اعتقده وتردد إليه سنين، فقد يكون عدو ذلك الأمير أصلح للرعية منه وأكثر منعة عليهم، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الفقير إذا تردد إليه أميران، أحدهما من أكبر المعتقدين فيه والثاني من أكبر المنكرين عليه، أن يكون مع المنكر عليه إذا كان أصلح للرعية، وعلى المعتقد فيه، إذا كان يظلم الرعية. حتى أن المعتقد فيه المذكور، ولو سأله في التوجه إلى الله تعالى في عزل عدوه، لا يجد في نفسه شعرة واحدة تجيبه إلى التوجه في عزل ذلك المنكر عليه الذي هو أصلح. ومتى وجد أدنى ترجيح لمحبة المعتقد على المنكر المذكور، أعني الأصلح، فهو لم يشم من الصدق رائحة ، كما عليه الطائفة الذين يصحبون الأمراء للأغراض النفسانية، فإن حكمهم حكم عصبة المجريين والجاهلين، انتهى.

[٨] ر: لأن.
[٩] «أن» ساقط من ر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا شم أحدكم من الأمير الذي تردد إليه سنين أنه يكون معه على عدوه، فاطردوه عن صحبتكم بالقلب والقالب لأنه لا فائدة في صحبته، انتهى. وقد فعلت بذلك مع بني بغداد لما ترددوا إلي، فصرحت بالطرد لمن طلب مني أن أكون معه على عدوه. لكن ذلك لا يصح إلا عن أحكم مقام الزهد في (١٠٨ب) الدنيا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن لا يصحب أميراً إلا إن أعطاه الله تعالى القدرة على مشاركة الأمير في تحمل تبعات الخلائق والرضا بوقوفه للحساب معه وتعويقه عن دخول الجنة حتى يرضي أصحاب التبعات، إما بإعطائهم حسناته التي فعلها في دار الدنيا، وإما بأن يحمل من أوزارهم بقدر ما يرضون به، وإما بأن يرضيهم الله تعالى بشيء يعطيه لهم من نعيم الجنان. كل ذلك وفاء بحق صحبة الأمير، عكس حال من يصحب الأمير ويأكل طعامه ويقبل هداياه، ثم إذا نزل بالأمير مصيبة في الدنيا والآخرة، فارقه كأنه لم يعرفه. وفي المثل السائر: من أكل الغفارة، فعليه برد الغارة.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: من دين العالم أن لا يصحب أميراً إلا إن أقدره الله تعالى على حمايته من جميع الآفات التي تصيبه في الدنيا والآخرة في دينه أو بدنه. وذلك بملاحظته في جميع حركاته وسكناته حتى لا يقع في مذموم من خروج عن شريعة في حكم من الأحكام، ولا في أخذ مال من أحد بغير حق، ولو في الوجبة التي تعمل له إذا نزل البلد مثلاً بغير طيب خاطر. وكذلك من دين العالم أن لا يصحب أميراً ويساعده في ولايته بشيء من الوظائف في هذا الزمان إلا إن أقدره (١٠٩أ) الله تعالى على حمايته ممن يزيد عليه في ولايته مالاً للسلطان، لأن ذلك يكدر معيشته، سواء قبل تلك الزيادة ودام في ولايته أم عزل منها، فعلم أن من ساعد أميراً في توليته ولاية في هذا الزمان، فقد أساء في حقه. وإن تكدر منه في الدنيا إذا لم يساعده، فسوف يشكر فضله في الآخرة، فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تدخلوا في محبة أمير إلا إن أقدركم الله تعالى على ما ذكرناه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن يفرح بانقطاع الأمير التردد إليه أكثر مما يفرح به لو أكثر من الاعتقاد فيه والتردد إليه أخذاً لنفسه بالاحتياط، فقل عالم يتردد إليه أمير ويعتقد فيه الصلاح، إلا ويقع في مداهنته وعدم نصحه ووصفه بالمعروف والدين. وأيضاً فإن الأمير لا يكثر التردد للشيخ إلا في حال الضرورات، وما دام في خير والحكام طوع يده، فلا يحتاج إلى التردد إلى الشيخ أبداً، فمن طلب كثرة تردد أميره إليه، فكأنه طلب له دوام النكد وتحريك الأعداء عليه[1] بالزيادة في وظيفته وتغيير قلوب الحكام عليه.

وفي كلام سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى: الفقراء كبيت الخلاء لا يأتيهم إلا كل مخروق، انتهى. وكان رحمه الله تعالى يشرط على الأمير الذي يصبحه أن لا يتردد إلى زاويته (١٠٩ب) مدة ولايته، ويقول له: متى ترددت إلي، فقد نقضت عهد الصحبة بيني وبينك، انتهى. وقد فعلت أنا بحمد الله تعالى بهذا الشرط مع دفاتر مصر كالأمير محمد والأمير أبي يزيد والأمير إبراهيم، فلله الحمد على ذلك، فاعلموا ذلك أيها الإخوان

[1] أ ر: عليهم.

وافرحوا بالأمير كلما انقطع عن زيارتكم وأكثر من الإنكار عليكم، فإنه أراحكم من التعب في ملاحظته في جميع حركاته وسكناته حتى لا يزيغ عن الشريعة في شيء. وإذا أراحكم من التعب في مشاركته في جميع التبعات والأوزار التي اكتسبها أيام ولايته. وانظروا إلى ما عليكم من الشر قبل أن تنظروا للذي عليكم من الخير، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم وعلامة صدقه في صحبة أميره أن لا يسعى له في تولية وظيفة بالتوجه إلى الله تعالى إلا إن كانت محلولة أو لا تضر بالمتولي، فمن الواجب عليه عدم مساعدته فيها لأن في نفعه لواحد ضرر لآخر، والمسلمون كلهم إخوة في الإسلام لا مزية لأحد على أحد إلا بالتقوى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم بين أميرين عداوة وأحدهما معتقد في فقير كثير التردد إليه، والآخر منكر على الفقير ولا يتردد إليه، ثم إن المتردد تولى دون المنكر، فإياكم أن تقولوا هذا ببركة اعتقاده، فتؤذوا الفقير، بل خلصوا الفقير من ذلك، فإنه ما [ثم][11] فقير صادق (١١٠أ) يحب ولاية في هذا الزمان لصديقه ولا عدوه لما هو عليه من الرحمة بالخلق، فلا يليق به الفرح بتولية صديقه لما في تلك الولاية من شغل الذمة وكثرة التبعات، ولا بتولية عدوه لأنه يزداد بها إثماً إلى إثمه، لاسيما وقد حرم سماع النصح من الفقير لمعاداته له.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إياكم أن تظنوا بفقير إذا تردد إليه أمير دون أمير أنه يصير في صف المتردد دون غيره، فإن ذلك ظن فاسد. إنما الفقير دائر مع مصالح الخلق، فكل من رأى في ولايته مصلحة لهم، كان معه، ولو كان من أكبر المنكرين عليه، انتهى. وقد وقع لي ذلك كثيراً من كثير من الولاة وأنا بحمد الله بريء من ذلك لما أنا عليه من حماية الله تعالى من قبول شيء من هداياهم لكثرة ما أراهم عليه من الظلم والبلص والنهب، فكيف يصح من زاهد ترجيح ظالم على ظالم؟

وسمعت سيدي محمد بن عنان يقول: من شرط الفقير الصادق إذا تردد إليه أميران أحدهما معتقد والآخر منكر أن لا يميل إلى المتردد المعتقد أكثر ممن كان بالضد من ذلك، إلا إن كان أصلح للرعية. فكل من رآه أصلح، توجه إلى الله تعالى في عزله أو حرمانه من تلك الولاية التي يطلبها، عكس حال الفقراء الذين يصبحون الأمراء لأجل الدنيا، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه إذا عملتم مشايخ، والحمد لله رب (١١٠ب) العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يعرف من نفسه القدرة على الوفاء بحق صحبة الأمير. وذلك بأن يمرض لمرض الأمير ويشفى لشفائه ويحزن لحزنه ويفرح لفرحه بطريقه الشرعي، فإن لم يعرف من نفسه القدرة على الوفاء بحق صحبته كما ذكرنا، فمن العقل عدم الدخول في صحبته.

وكان سيدي على الخواص إذا صحب أميراً ونزل بالأمير مصيبة من عزل أو موت ولد أو هلاك مال،[12] لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يضحك ولا يجامع ولا يتفرج في بستان ولا على نهر ولا غير ذلك من شهوات

[11] أ ر: تم.
[12] ر: موت أو عزل أو هلاك مال.

النفوس، إلا لضرورة شرعية حتى يزول ذلك الهم والغم عن أميره، انتهى. وهذا الأمر قل أن يوجد اليوم في فقير، بل غالبهم يأكل من طعام الأمير ويلبس من ثيابه ويركب من مراكبه وإذا أصابت الأمير داهية، تجد قلبه فارغاً من همه وذلك من علامة حبه للدنيا وقلة المروءة، فالله تعالى يحفظنا وإخواننا من مثل ذلك، آمين.[١٣]

ومن أخلاق أحدهم أيضاً[١٤] إذا صحب أميراً أن يكون تاركاً لجميع[١٥] المعاصي، فإن من كان مرتكباً لذنب واحد لا يصلح لصحبة الأمراء لعجزه عن القيام بحقهم من تحمل حملاتهم إذا مالت على أحدهم الولاة، فلو أراد من عليه ذنب أن يتوجه إلى الله تعالى في إزالة ما على الأمير من البلاء، لا يجد عنده داعية ولا يقدر على ذلك لأنه[١٦] أي التحمل (١١١أ) من باب الشفاعة عند الله تعالى، ومعلوم أن الشفاعة عند الله إنما تليق بمن كان مطهراً من الذنوب كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام. بل ورد في الصحيح أن جماعة منهم يعتذرون يوم القيامة إذا طلب الخلق منهم الشفاعة بأمور كانوا يتوهمونها ذنوباً. فاعلموا أيها الإخوان ذلك، ولا تدخلوا في صحبته أمير إلا إن كنتم مطهرين من سائر المعاصي الظاهرة والباطنة. ومتى كان لأحدكم سريرة يخجل من ظهورها للناس في الدنيا والآخرة، فليس له أن يصحب أميراً لأن ذلك من الغش والحرام لكم وللأمير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من أخفى الذنوب التي تطرد العبد عن دخول حضرة الله عز وجل، محبة الدنيا ورؤية العبد نفسه أحسن حالاً من إخوانه.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: من شرط من يصحب الأمير أن يحمل عنه جميع البلايا النازلة عليه في الدنيا والآخرة حتى دخول النار، فيدخلها نيابة عنه. إن لم يكن دخولها له مما حق به القول الإلهي، وإن لم يحمل عنه ذلك كله، فليشاركه في البلاء حتى يصير يحس أن بطنه محشو ناراً من فوقه إلى قدمه، فليعرض من يريد صحبة الأمير ذلك على نفسه قبل الصحبة. وسمعته يقول: من أقوى شيء للفقير على تحمله حملات الأمير الذي يصحبه أن يحكم أكل الحلال الخالص، فإن من يأكل الشبهات (١١١ب) لا يصلح للتحمل، لاسيما طعام الأمير الذي يصحبه لغلبة الشبهة فيه، فمن أكل طعام أميره، فقد ضره وضر نفسه بعدم استجابة دعائه له، انتهى.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: كل عالم لا يكون مطهراً من جميع الذنوب محفوظاً من أكل الشبهات لا يأكل إلا الحلال، فليس له أن يصحب أميراً لعدم قدرته على نصحه. وذلك لأن من شرط الشافع في مظلوم عند أمير أن يكون له مقام عظيم عند الله تعالى بحيث لا يكون مرتكباً ذنباً يمنعه من دخول حضرة الله تعالى. ومعلوم أن آكل الحرام والشبهات والمرتكب للذنوب عدو لله تعالى فلا يليق به أن يكون شافعاً في غيره عند ربه لكونه من إخوان الشياطين. وإن وقع أن أميراً قبل له شفاعته، فذلك من باب الاستدراج، كما يقع الدجال بين يدي الساعة إذا خرج، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

[١٣] «آمين» ساقط من ر، وهناك زيادة: انتهى.
[١٤] «أيضاً» ساقط من ر.
[١٥] أ ر: لجمع.
[١٦] أ: لأن.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يقره على شيء من المعاصي التي يقع فيها كضرب الفلاح على وزنه الخراج مع عجزه عنه وتسخيره في الحرث والحصاد والدراس ونحو ذلك، كأخذه البلص والجرائم التي يأخذها من رعيته بحكم العادة. ويجب عليه الإنكار عليه وأمره برد تلك المظالم إلى أربابها إن عرف أعيانهم، فإن لم يعرف أعيانهم، (١١٢أ) كان تحت المشيئة الإلهية في ذلك حتى يقع الحساب يوم القيامة. ثم إن عرف الأمير أعيان المظلومين، ولم يرد إليهم ظلاماتهم، وجب على العالم طرده عن صحبته، ويظهر له أنه متبرئ منه في الدنيا والآخرة. وهذا خلق غريب قل أن يوجد الآن في فقير. بل رأيت بعضهم يأخذ البرطيل من الرعية، ثم يعطيه للأمير، وإذا استشهد الأمير في عفته ودينه شهد له بذلك زوراً من غير خوف ضرر يصيبه منه في بدنه أو دينه. وإنما هو لمحبته في الدنيا وسحتها،[١٧] فنسأل الله العافية. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعرضوه علي أنفسكم. فإن قدرتم على فعله مع الأمير فاصحبوه وإلا فابعدوا عنه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا [يخون][١٨] نفسه في عمل وليمة واسعة لا طاقة لمثله بعمل مثلها لأن ذلك ربما أحوجه إلى التعريض بالمساعدة له في ذلك نحو قوله: والله أنا في غم وهم من جهة طهور الأولاد أو تزويجهم، وليس معي شيء ونحو ذلك من الألفاظ، لاسيما بحضرة الأمير الذي صحبه، فإنه ربما بادر إلى إرسال شيء من العسل أو الأرز أو اللحم، فصار له الفضل عليه وقصرت كلمته عنده في الشفاعات وغيرها من المصالح وزالت حرمته وهيبته من قلبه. ولو أن الفقير عمل وليمته بقدر طاقته، لم يحتج إلى مثل ذلك، (١١٢ب) فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا [يخون][١٩] نفسه مع الأمير في وعده بتولية وظيفة من الوظائف، فقد لا يكون قسمت له أو عارضه فيها أهل النبوة من الأولياء، فيصير الأمير يطالبه بما وعده به، فلا يقدر على الوفاء، فيسقط من رعايته ولا يصير له هيبة في قلبه، ويقول: إن فلاناً من النصابين، لاسيما إن كان يأكل طعامه [و][٢٠]يقبل هداياه. وإيضاح ذلك أن الله تعالى ليس هو تحت حكم أحد من الخلق. وقد قالوا: ليس لغير نبي أن يعد أحداً بوعد لأن صدق الوعد إنما يكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم بخلاف غيرهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا قال لكم الأمير الذي يعتقدكم: خاطركم علينا في تولية الوظيفة الفلانية، فإياكم أن تقولوا: إن شاء الله تحصل، فيمسك عليكم القول ويصير يطالبكم بها، وإن لم تحصل له سقطتم من عينه وعين جماعته. ولكن قولوا: لا شك في أننا نحب للأخ ما نحبه لأنفسنا، ونحن لو عرضوا علينا هذه الوظيفة ووعدونا بمال عظيم إن قبلناها لا نجيبهم إلى ذلك لما فيها من عدم الخلاص، فإن الأمير إن كان من أهل الخير، فهو يكتفي بهذا الجواب ويترك طلب تلك الوظيفة، (١١٣أ) وإن كان من

[١٧] ر: وصحبتها.
[١٨] أ: يجون
[١٩] أ: يجون
[٢٠] زيادة من المحقق.

غير أهل الخير فهو ينقطع عن التردد إليكم وتستريحون منه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به إذا اعتقدكم الناس، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاق أحدهم أن لا يصحب أميراً إلا إن كان ذلك الأمير يحضر جميع المواكب الإلهية في الليل والنهار، فلا يفوته موكب من المواكب في فرض أو نفل. وذلك لأن من يعكس أوقات خدمة سيده ويستهين بها يكون الحق تعالى غير راض عنه ومن كان الحق تعالى غضبان عليه، فمصاحبه ربما يجر إلى المقت.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياكم وصحبة أمير يشرب الخمر أو يزني أو يلوط أو لا يواظب على الصلاة في أوقاتها، إلا إن علمتم منه قبول نصحكم والأخذ في التوبة النصوح. وذلك لأن من كان مغرماً بالمعاصي ولا يتنبه إذا نصحه ناصح، فصحبته في غاية التعب، لأنه لا يسع الفقير إلا أن ينصحه ولا يمكن الأمير أن يقبل نصحه ما دام الحق تعالى يخلق له المعاصي. ومثل هذا ينبغي للفقير أن يدعو له بالصلاح ويبعد عنه حتى تهب عليه رياح السعادة، انتهى.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إن لم يكن الشيخ والأمير من أول الناس وقوفاً في المواكب الإلهية، (١١٣ب) فصحبة كل واحد للآخر عناء وتعب لعدم نفع أحدهما للآخر وعدم سرعة إجابة دعاء أحدهم لصاحبه، فإن الحق تعالى يعامل عباده بشاكلة ما يبرز على جوارحهم من الأعمال، فمن سارع إلى مرضاته، قضى الحق له حوائجه بسرعة، ومن أبطأ في طاعته أو سارع إلى معاصيه، أبطأت الأقدار الإلهية بإجابة دعائه وقضاء حوائجه بشاكلة عمله جزاءً وفاقاً، نظير ما قالوا في المشي على الصراط يوم القيامة أنه يكون على شاكلة مشي العبد على صراط الشريعة هنا، فمن زاغ عن الشريعة هنا، زاغت قدمه عن الصراط في النار هناك، ومن كان أسرع الناس مبادرة إلى الطاعات هنا، كان أسرعهم مروراً هناك على الصراط، وحكم الضد بالضد، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واستقيموا على أعمالكم أنتم ومن صحبتموه من الأمراء ليحصل لكل منكما الفائدة في الصحبة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يمكنه من رمي شيء على سوقة بلاده بالسعر الذي يخسرون فيه من سمسم وسيرج وزيت حار وعسل قصب وفاكهة وغير ذلك، لأن مثل ذلك أقوى أسباب تحول النعم عن الأمير، لاسيما إن انكسر أحدهم وخرج هو وأولاده إلى بلاد (١١٤أ) الغربة، فإن دعائهم في حقه يتأكد إجابته، فإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ولو من كافر كما ورد، فليحذر الأمير من ذلك كل الحذر، وإن شك في قولي هذا، فسوف يصدقه في الدنيا قبل دخول قبره.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير الظالم إذا لم يقبل منه النصح أن يتوجه فيه إلى الله تعالى أن يعزله من تلك الوظيفة رحمة به، لكن بمشاورة أصحاب النوبة من الأولياء، فربما كانوا في صفه لغرض شرعي، فيصيرون يعارضون كل من توجه في عزله، وربما أثروا في جسمه بالمرض المزمن كالعمى والتكسيح ونحو ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من الوفاء بحق صحبة الأمير إذا جار وظلم وتعدى حدود الله تعالى ولم يرجع إلى قبول النصح من الفقير أن يتوجه الفقير إلى الله تعالى في تطهيره من تبعات الخلائق، ولو بالعزل والضرب وضربان المفاصل ليلاً ونهاراً محبة في الأمير لا بغضاً له. قال: وممن أدركته على هذا القدم

سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى،كان يؤثر بإذن الله في جسم الكافر أو الظالم أو الكاشف أو شيخ العرب بالنفخ وحبس البول والقولنج حتى يصير أحدهم يتمنى الموت، فلا يجاب، فإذا تاب أحدهم توجه (١١٤ب) إلى الله تعالى في شفائه فيشفى، انتهى. وقد أعطاني الله تعالى علم ذلك، ولكن منعني العمل به ما عندي من شدة الرحمة على العباد.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للعارف أن يحمي نفسه وأصحابه بالحال، ولو مرة في جسم من يؤذيه أو يؤذي أصحابه، لأن ذلك، وإن كان نقصاً في المقام فهو كمال في العلم. قال: وقد سبقنا إلى ذلك سيدي إبراهيم الجعبري وسيدي محمد الحنفي وسيدي أحمد الزاهد وغيرهم، فحبسوا بول السلطان ومن دونه من الولاة وورموا أجسامه وأرمدوا عيونهم وكسحوهم ونفخوهم إلى أن ماتوا أو رجعوا عن الظلم، ولم يزل الفقراء يفعلون ذلك إلى دخول النصف الثاني من القرن العاشر، فمنعوا من التصرف في الولاة لترادف علامات الساعة في هذه الأيام، فلو أن فقيراً توجه إلى الله تعالى في تأديب أحد من الولاة الآن لا يجاب إلا نادراً ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾.[٢١]

ومن هنا كان سيدي إبراهيم المتبولي يقول: إذا دخلت سنة أحد وخمسين وتسعمائة فلا ينبغي لفقير أن يتوجه إلى الله تعالى في رفع شيء من المظالم والمعاصي، إلا إن علم من طريق كشفه الصحيح الذي لا يدخله تلبيس أن ذلك الأمر الذي يطلب رفعه ليس هو من علامات الساعة التي أخبر بها[٢٢] الشارع ليلا يكون (١١٥أ) كالمعارض للشارع في وقوع ما أخبر به أنه يقع. وإن كان ولا بد له من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليفعل ذلك باللسان فقط قياماً بشعار الشريعة دون التوجه إلى الله تعالى في عدم وقوعه ليلا يكون كالساعي في تكذيب الشارع فيما أخبره، انتهى.

ولما صحبني محمد بن بغداد رحمه الله تعالى وكثر على يديه الجور والظلم، توجهت إلى الله تعالى في تطهيره من تبعات الخلائق ولو بالشنق محبة فيه لا بغضاً له وأعلمته بذلك، فقال: لا بغضاً؟ فقلت: لا بغضاً. فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، ولم يتكدر مني لحمله على الصدق وصحة الإيمان بيوم الحساب، فشنق على باب زويلة بعد صلاته العشاء الآخرة. ولما أتوا به إلى الباب فرش فوطة على عتبة الباب وصلى ركعتين وقال للمشاعلي: افعل ما أمرت به، فأسأل الله بأنبيائه وأوليائه أن يرحمه رحمة واسعة ويرضى عنه أصحابه التبعات، فإنه لم يثبت معي أحد كما ثبت. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإذا ابتلي أحدكم بصحبة ظالم في هذا الزمان، فليتعفف عن دنياه في السر والعلانية ولا يغفل عن نصحه ساعة واحدة مع التسليم لله تعالى في الأقدار، إذ الإنكار للمنكر لا ينافي التسليم لعدم تواردهما على محل واحد، فهو، أي العبد، ينكر بلسانه ويسلم لله بقلبه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥ب) ومن أخلاق أحدهم أن يكون أزهد في الدنيا من الأمير دون العكس، وذلك برد جميع هداياه، فإن الأمير ما أهدى للفقير شيئاً إلا بعد أن زهد هو فيه. ولو أنه كان راغباً فيه، ما قدر أحد على إخراجه من

[٢١] الأنفال، ٤٢.
[٢٢] ر: أخبرها.

يده، فشيء يزهد فيه الولاة الذين هم مشهورون بالظلم والجور، فكيف يقبله سيدي الشيخ الذي هو مشهور بالعلم والصلاح؟ هذا قلب الموضوع.

وسمعت سيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالى يقول: من لم يحكم مقام الزهد في الدنيا بحيث يصير ينقبض بدخولها عليه وينشرح لكل من عارضه فيها ويكره كل من أتاه بها، فليس له أن يصحب أميراً لأن الأمير متى لمح من قلب الفقير أنه يحب الدنيا وإنما يظهر الزهد رياء وسمعة، سقطت هيبته من قلبه. وذلك لأن محب الدنيا مهان في ملكوت السموات والأرض، شاء أم أبى، انتهى. وتقدم أن من علامة كمال زهد العالم في الدنيا أن يصير يدفع عنه هدية الناس بالقلب والقالب، ولو حلالاً حتى لا يخطر لهم الهدية على بال فضلاً عن إرسالها إلى بيته، وأن الأمير أو غيره متى أرسل للفقير هدية إلى بيته، فإنما ذلك لبقية بقيت عليه من الزهد في الدنيا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد الله رب العالمين.

(١١٦أ) ومن أخلاق أحدهم أن يتوجه إلى الله تعالى أن لا يجعل للأمير منة عليه في الدنيا كأن يسعى له في مرتب أو جوالي ونحو ذلك مدة حياته. وإن وقع أن الأمير أراد أن يفعل ذلك، زجره أشد الزجر. وهذا أولى من عدم التوجه إلى الله تعالى في ذلك، لأن الأمير إذا سعى له في مرتب أو جوالي مثلاً، ثم رده تميز عن أقرانه بالزهد والورع ضرورة، فكان سؤاله الحق تعالى أن ينسى الأمير، ذلك أستر للفقير [فقد قال سيدي إبراهيم المتبولي: الفقير][٢٣] في دار الدنيا كالجالس في بيت الخلاء، فإن رد الباب عليه حتى خرج، فقد ستر عورته عن أعين الناس، وإن فتح الباب عليه، ظهرت عورته ومقته كل من يمر عليه. وليس رد الباب على الفقير إلا بإخفاء كمالاته وزهده وورعه عن الناس. وليس فتح الباب عليه إلا بإظهار كمالاته عكس حال غالب الناس اليوم، فلا يكاد أحدهم يعد ظهور كمالاته من كشف عورته أبداً.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل الفقير حتى يصير يرى ظهور علمه وورعه وزهده للناس من جملة كشف عورته، فيتكدر لذلك كما يتكدر من كشف عورته الظاهرة على حد سواء. وذلك من انقلاب الطبع،[٢٤] فيصير من يرميه بالعظائم من أحب الناس إليه، ومن يذكره بخير من أبغض الناس إليه، (١١٦ب) لأن الأول كالذي يستر سوءته عن الناس، والثاني كالذي يكشفها لهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل من ادعى الزهد في الدنيا من العلماء، ثم حصل منه ذرة من التكدر على من سعى في محو اسمه من جملة من كتبوا له ألف دينار في ديوان صدقة السلطان مثلاً، فليس له نصيب في مقام الزهد. ومن لم يزدد محبته في كل من سعى في محو اسمه من الديوان المذكور، فهو كذاب على الله تعالى، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واجعلوا لكم المنة على كل أمير صحبكم دون العكس، واطعموا الأمير واسقوه واكسوه إذا صحبكم دون العكس، كما جرى عليه العلماء العاملون، والحمد لله رب العالمين.

[٢٣] ما بين المعقوفتين في هامش أ.
[٢٤] "الطبع" ساقط من ر.

ومن أخلاق أحدهم أن يتهم نفسه في دعواها أنها صحبت الأمير لله تعالى دون الأغراض النفسانية ولا يصدقها في ذلك، فإن لها دسائس تخفى على فحول العلماء فضلاً عن غيرهم، فليعرض المدعي المذكور على نفسه ما لو صحبها أمير كبير وصار يمدحها في المجالس ويعتقدها كل الاعتقاد حتى اعتقدها سائر الأمراء والأكابر، ثم إن ذلك الحال تغير من الأمير واجتمع على أحد من أعداء الفقير وصار يحط فيه أشد الحط ويصفه بالنصب والحيل والرياء والنفاق وتغير مع جميع الأمراء الذين كانوا اعتقدوه تبعاً للأمير، فإن انشرح قلبه لذلك وفرح بمقاطعة الأمير وجماعته (١١٧أ) له كلهم وفرح بإنكارهم عليه واعتقادهم في عدوه ظاهراً وباطناً، فليعلم أنه صادق في صحبة الأمير، وإلا فلا يخفى حاله.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كل من لم يفرح بانقطاع الأمير عن التردد إليه واعتقاده في غيره، فهو كاذب. ومتى تكدرت منه شعرة لمفارقته، فصحبته لغير لله تعالى، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه إذا صحبتم أميراً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أن يعاهدوا الأمير أول صحبته له على أن الأمير متى جار على رعيته، ولو بالتسخير في الحرث والحصاد مثلاً، صارت كل شعرة فيه متوجهة إلى الله تعالى في عزله وطلب تطهيره من تبعات الخلائق، ولو بضربه مقارع وكسالات. وإن رضي الأمير بذلك، كان للعالم صحبته، وإلا قال له اذهب عنا بسلام، فأننا لا نحب لمن نصحبه إلا الخلاص والتطهير من تبعات الخلائق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا جاءكم أمير يريد منكم الصحبة، فاعلموا أنكم تكونوا عليه مع عدوه إذا وقع في أدنى ظلم لأحد من رعيته، وأنكم تتوجهون إلى الله تعالى في تطهيره بالعزل من تلك الولاية التي هو فيها، ولو بالمصادرة وضربه مقارع وكسارات إلى أن يموت، فان رضي بذلك، فاصحبوه، وإلا فاتركوه. وسمعته يقول: (١١٧ب) ينبغي لكل عالم صحب أميراً أن يحفظ قلبه من الميل إليه بالمحبة ويخبره بأن كل شعرة فيه تلعنه وتكرهه إذا وقع في شيء من ظلم رعيته. وذلك ليخرج من صحبته على سلامة ولا يلحقه بسبب عزله أو موته سوء. وإياكم أن توافقوه على بغض عدوه، فتخرجوا عن سياج الفقراء وتكونوا تحت حكم الأمير، عكس حال العلماء العاملين. قال: ومتى لم ينشرح الأمير لكل ما تفعلون معه من التأديب، فلا تصحبوه. قال: ومن علامة انشراحه أن تدعوا لعدوه الذي أخذ وظيفته بالدوام والتأييد له فيها، فيقول معكم: آمين بانشراح قلب بحيث يظهر السرور بذلك على وجهه، انتهى. وهذه ميزان تطيش على الذر تعرف بها صدق الأمير في الصحبة وعدم صدقه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً[٢٥] أن لا يشفع عند الأمير في مجرم ليترك ضربه أو يخرجه من الحبس مثلاً، إلا بعد أن تأخذ العقوبة فيه حدها أو تشرف على الانتهاء صيانة للشيخ عن رد كلمته ووقوعه في الإساءة على ذلك المجرم بتعجيل إخراجه من الحبس مثلاً قبل إكمال التطهير، فهو وإن كان إحساناً إليه في الظاهر، فهو إساءة عليه في الباطن. وقد تقدم في الكتاب أن العقوبات التي تقع للعبد في الدنيا تكون على ثلاثة أنواع: نوع

[٢٥] «أيضاً» ساقط من ر.

تطهير وكفارة من الذنوب، (١١٨أ) ونوع كالعقوبة على الذنب، ونوع رفع درجات، وأن من علامة العقوبة أن يكون [معها][٢٦] الضجر والسخط، ومن علامة رفع الدرجات يكون معه الانشراح وكراهة انقضائه، وأن المعاقب في بيوت الولاة لا يخلو حاله من أحد هذه الأنواع، انتهى. فليكن العالم الشافع ذا بصيرة، وإلا أخطأ الطريق،[٢٧] فإن الكفارة ورفع الدرجات لا ينبغي السؤال في رفعهما[٢٨] والعقوبة لا ينبغي السؤال في تركها، إلا إن بلغ التأديب حده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم الشريفة أن يخلص أحدهم في علمه، وذلك ليتكفل الله تعالى برزقه ويغنيه عن صدقات الأمير، فإن الله ما تكفل لطالب العلم برزقه إلا إن أخلص فيه، فمن ادعى الإخلاص واحتاج إلى صدقات الناس من أميره أو غيره، فهو غير صادق في دعواه.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي للعالم إذا صحب أميراً أن يترخص في أكل الشبهات اعتماداً علي رخصة الشرع، فيبطل نفعه للأمير ويهون في عينه، ولأن الأمير ربما قال: كنا نظن في فلان أنه يتورع عن الشبهات، فرأيناه مثلنا في ذلك. بل بلغني عن الأمير محمد الدفتر أنه عزم على شيخ أن يفطر عنده في ليالي رمضان امتحاناً (١١٨ب) له لينظر هل يتورع عن طعامه أم لا، فأجابه الشيخ إلى ذلك، فقال الأمير: والله إن قلوبنا لا تطيب بالأكل من طعامنا في رمضان ونحن معدودون من ولاة الظلم، فكيف تطيب نفسك يا سيدي الشيخ أن تأكل من ذلك؟ فقال له: البحر لا تكدره الدلاء. فقال له: اخرج فإنك شيطان في صورة إنسان، انتهى. فانظر يا أخي هذه الحكاية واعتبر بغيرك.

وقد قلت مرة لشيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى: إن الفقير قد صار لا يكاد يرى شخصاً من التجار متورعاً عن فلوس من يشتري منه شيئاً من الولاة فضلاً عن غير التاجر، فكيف الحال؟ فقال لي: يا ولدي ما بقي إلا حماية الله تعالى للعبد، فاعتناؤه به لا غير، فإن الحق تعالى إذا اعتنى بعبد، استخلص له الحلال من بين فرث الحرام ودم الشبهات بحوله وقوته حتى لو أراد أن يأكل حراماً أو شبهة ، لما وجد ذلك، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واتبعوا سلفكم المتورعين وكالشيخ أبي إسحق الشيرازي والإمام البغوي والإمام النووي وأضرابهم، ولا تتساهلوا في اللقمة من طعام أهل هذا الزمان، فإن أعمالكم كلها تنشأ على صورة اللقمة من حل أو حرمة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يتوجه إلى الله عز وجل في توليته إذا عزل أو شفائه (١١٩أ) إذا مرض أو خروجه من الحبس إذا حبس، إلا إن كان ذلك الأمير تائباً إلى الله تعالى من جميع المعاصي الظاهرة والباطنة كما هو حال الشيخ، فإن الشيخ إذا لم يكن كذلك تائباً من سائر المعاصي، فلا يصح له أن يحمل حملة أحد لما هو

[٢٦] «معها» في هامش أ.
[٢٧] ر: للطريق.
[٢٨] أ ر: رفعه.

عليه من الدنس ورائحة الغضب، فليكن العالم الذي يصحب الأمير حاذقاً لا يلحق الأمور المانعة له ولأميره من دخول حضرة مناجاة الحق جل وعلا.

وقد سمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: متى كان الشيخ الذي يحمل حملة الأمير مرتكباً شيئاً يكرهه الله تعالى في ظاهره وباطنه، فهو لا يصلح للتحمل كما أنه لا يصح للشيخ أن يحمل حملة أمير ويجاب إلى ما طلب والأمير مرتكب شيئاً من المعاصي في باطنه. بل هو إلى الرد أقرب إذ العاصي لا يستحق التخفيف عنه من الشدائد، وإنما اللائق به التشديدات والعقوبات حتى يرجع إلى طريق الاستقامة. قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنٰتِ وَالسَيِّئَاتِ لَعَلَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢٩] انتهى. فطريق الشيخ إذا أراد أن يدخل في حملة أمير أن يتوب إلى الله تعالى من كل ذنب يعلمه الله منه ويأمر الأمير بالتوبة كذلك، ثم بعد ذلك يدخل في حملة الأمير.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: ليحذر الشيخ الذي يحمل حملة الأمير أن يحب من الأمير أن يشكره على ذلك في المجالس أو يخطر على باله أن (١١٩ب) يرسل له هدية مجازاة على تحمله عنه الحملة، فإن الشيخ متى أحب ذلك، خرج عن أهلية التحمل. وكان رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لعاقل أن يدخل في جملة من كان مصراً على ذنب أو يطلب منه على ذلك جزاء أو شكراً. وكان إذا سأله أمير في الدعاء له بالتخفيف مما هو فيه من البلاء يقول: نتوب كلنا إلى الله تعالى ونسأله التوبة من كل ذنب، فإذا قبل تعالى توبتنا، أدخلنا حضرته وحمانا من الآفات، وما دام أحدنا مرتكباً ذنباً من الذنوب، فهو ممنوع من دخوله الحضرة الإلهية، فتأتيه الآفات من سائر الجهات، انتهى. وهذا الأمر يخل به كثير من الفقراء الساذجين، فيرتكب هو وأميره الذنوب ولا يتوب منها ثم يدخل في حملة الأمير، والأمير على شرب خمر وزنا ولواط وظلم عباد بأخذ أموالهم وضربهم وحبسهم ظلماً وعدواناً، ثم يطلب من شيخه أن يحمل حملته مع إصراره على هذه المعاصي، فيا طول عقوبة الأمير ويا طول تعب هذا الشيخ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا بما ذكرناه إذا عملتم مشايخ في هذا الزمان، وتوبوا إلى الله تعالى أنتم وأميركم من كل ذنب يعلمه الله تعالى، ثم ادخلوا في حملته إذا أصابته مصيبة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه لله تعالى يقول: من شرط الشيخ الذي يدخل في حملة الأمير أو غيره إذا أصابته (١٢٠أ) مصيبة أن يكون أشفق على الأمير وأحب إليه من نفسه، وذلك ليجيبه الحق تعالى إلى ما سأل،[٣٠] فقد أجمع القوم على أن الشيخ إن لم يكن أكثر هماً وغماً وحزناً من صاحب المصيبة، فليس له أن يدخل في حملته، بل يأمر صاحب المصيبة أن يسأل الله تعالى في حاجة نفسه، فإن ذلك أسرع في الإجابة. قال تعالى: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ﴾[٣١] فشرط في الإجابة أن يكون الداعي مضطراً سواء أكان[٣٢] ذلك في حاجة نفسه أو حاجة غيره. وكان يقول: إذا سألك أحد في حاجة ورأيت قلبك بارداً عنها، فقل لصاحب الحاجة يدعو لنفسه، فإنه أقرب إلى الإجابة منك، انتهى. وقد وقع لي أني دخلت في حملة أخي أبي الفضل الحنفي وزوجته لما مات ولده

[٢٩] الأعراف، ١٦٨.
[٣٠] ر: سئل.
[٣١] النمل، ٦٢.
[٣٢] ر: سواء كان.

إبراهيم، وكان قد قرأ القرآن فما تخلفت لشدة الحزن عليه أكثر من والده ووالدته لأحمل حملته من بابها حتى كدت أهلك، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن يرشده إلى الاستناد إلى غيره من الأقران، إذا كان الشيخ قد خرق ببصره إلى شهود الدار الآخرة ورأى محاسباتها وموازناتها وشدائدها وأهوالها. وذلك لأن من خرق ببصره كذلك يصير دائراً مع الأصلح للأمير في الدنيا والآخرة، (١٢٠ب) حتى أنه إذا رأى له العزل من ولايته أو حبسه أو ضربه أو أخذ ماله أصلح لدينه وأكثر ثواباً، لسأل الله له ذلك قهراً عليه. وليس هذا مراد الأمير من صحبته للفقراء، إنما مراده منه أن يكون الفقير معه في أغراضه، ولو كانت فاسدة.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إذا خرق أحدكم ببصره إلى الدار الآخرة ورأى محاسباتها وموازناتها وعرف ما فيه من الربح والخسران في هذه الدار، فليرشد الأمير الذي صحبه إلى الاستناد إلى من كان مقصور البصر على شهود أحوال الدنيا من العباد والنساك ليدعو له بشدة عزم، فلعل الحق تعالى يجيبهم إلى ما سألوه للأمير. وذلك لأن من خرق بصره إلى الدار الآخرة لا يصير عنده داعية إلى طلب شيء من وظائف الدنيا التي لا خلاص لأصحابها فيها أبداً كوظيفة القضاء والحسبة والعمالة للسلطان ونحو ذلك. بل ربما سأل الله تعالى في أن يعزل صاحبه منها إن كان متولياً ويحول بينه وبينها أبداً ما عاش إن كان يتطلبها رحمة به ومحبة له وشفقة عليه، انتهى. وهذا هو حالي اليوم مع كل من يسألني ولاية لا خلاص له فيها، فأسأل الله تعالى أن يحول بينه وبينها، وأقول: إن تكدر هذا مني في الدنيا، فسوف يشكرني على ذلك في الآخرة حين يظهر له هناك ما ظهر لنا هنا، فاعلم ذلك وازهد في الدنيا (١٢١أ) لتصير تفعل مع الأمراء كما فعلنا، وإلا فمحب الدنيا لا يقدر على مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يأكل للأمير طعاماً ولو حلف له بالله أنه حلال لأن حلال الأمير قد لا يكون حلالاً عند الشيخ لعلو مقامه. وقد أخبرني من أثق به من كتاب ديوان السلطان بمصر أنهم جعلوا جميع الأموال التي فيها شبهة خاصة بنفقة العسكر وبالمرتبات التي جعلوها للفقراء على البساط، ولم يحملوا إلى خزانة السلطان من أموال مصر إلا الحلال كالخراج والجوالي، فليكن الإخوان على حذر من أكل طعام الأمراء والعسكر، فإنهم يعتقدون أن جامكية السلطان التي جعلها لهم حلالاً، ولو كانت من المكس وثمن الخمر ومهر البغي، فإياكم من ذلك. ثم إياكم إذا صحبتم أميراً يأكل من مثل هذه الجامكية، فإن أول ما يقع فيه الضرر به هو بعدم إجابة الحق تعالى دعائكم له. وقد أخبرني ثقة عدل عن السلطان سليمان بن عثمان أنه قال يوماً لفقير طلب منه مرتباً: إنما منعك مصلحة لك، فإن كل من يأكل من أموال الملوك لا يصير له قوة توجه إلى الله تعالى في قضاء حاجة أحد، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يخون نفسه معه بالوعد بولاية أحد أو عزله أو موت في الزمن المستقبل، ولو كان مطمح (١٢١ب) بصره اللوح المحفوظ، فقد يدخل عليه التلبيس في هذا الكشف لعدم عصمته، ويقيم له إبليس مثالاً يشبه اللوح المحفوظ ويخط له فيه أباطيل وأموراً ليس لها صحة، فيخبر الفقير الساذج بذلك أميره، فلا يقع من ذلك شيء، فيقل اعتقاد الأمير فيه ويسخر به إبليس ويصفق عليه. وقد قالوا

من عقل الفقير إذا أطلعه الله تعالى على شيء من الحوادث المستقبلية كموت وزير أو عزله أن يكتم ذلك ولا يخبر به أحداً حتى يقع ويظهر للخاص والعام، ثم إن وافق ذلك ما كشف له شكر الله تعالى على إطلاعه على أسراره، وإن لم يقع ذلك كما رأى، فقد صان الخرقة عن اللوث بأهلها وأخذ حذره من مثل ذلك في المستقبل، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واكتموا أحوالكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً إذا صحب أميراً وتعسرت عليه حاجة للأمير لحصول مانع منه أو من الأمير، كأن يكون المعاصي تخطر على قلب أحدهما أن يتوجه إلى أصحاب النوبة ليساعدوه فيها، ويقول لهم بصدق وعزم: أنا وأميري من تحت نعالكم، فلاحظونا في هذه الحاجة إن كنا نستحق المساعدة، فإن قضوها، فذاك، وإلا استأذنهم في التوجه إلى أصحاب النوبة ببلد السلطان الأعظم، (١٢٢أ) فإن أذنوا له توجه إليهم، وإلا صرف ذلك الأمير عنه إلى غيره. وإيضاح ذلك أن أصحاب النوبة بمصر مثلاً نواب لأصحاب النوبة بالروم، كما أن قاضي مصر ودفترها وباشاتها نواب لولاة الروم. وإنما قلنا إن الحاجة تتعسر على صاحبها بخطور المعاصي على قلبه لأن الذي تخطر المعاصي على قلبه ليس له ذلك المقام عند الله تعالى، لما في ذلك من رائحة كراهة الحق تعالى له مع ما عنده من قلة المروءة. ومثل هذا لا يصلح أن يكون يتحمل حملة أحد ليقضيها عند الله تعالى كما عليه غالب الناس اليوم، فربما شكا أحد إليهم مصيبة أصابته فيقول: لا اله إلا الله ما شاء الله كان وقلبه فارغ من تحمل همه. ثم إذا خرج صاحب المصيبة من عند هذا الشيخ أكل يعني الشيخ وشرب وضحك وجامع ودخل الحمام، وما عند أهل الجنة خبر من أهل النار، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به إذا عملتم مشايخ قبل خروج الدجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً إذا دخل في حملة أمير حين عزل أو صودر أو حبس أن لا يفطر أيام الحملة ولا يضع جنبه إلى الأرض ولا يمكث لحظة على حدث في ليل ونهار، وكذلك يأمر بمثل ذلك صاحب الحملة، بل هو أولى بذلك من الشيخ لأن غاية الشيخ أن يكون (١٢٢ب) مساعداً فقط. ثم يتأكد على الشيخ أن يوصي حاشية الأمير أن لا يرسلوا له في الحبس إلا ما لابد منه في المعيشة، ويحذرهم من إرسال الحلو والدجاج والأرز المفلفل ونحو ذلك، لأن الحبس معدود من خزي الدنيا، فكل يوم لا يرسلون له فيه شيئاً من المآكل الطيبة مقوم بجمعة أو شهر أو سنة بحسب ما كان عليه من الرفاهية والنعيم، فمن أراد طول مدة الحبس على محبوسه، فليرسل له الأطعمة الفاخرة كما جرب، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، فلعله ما طرق سمع أحدكم قبل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يدخل في حملة إلا إن كان قضاء تلك الحاجة لا يضر بعدو ذلك الأمير كأن يعزل ويضرب عليه التفتيش إذا قضيت حاجة ذلك الأمير وتولى وظيفة عدوه، فإن المسلمين كلهم إخوان للفقراء فلا ينبغي له أن يحزن واحداً ويفرح واحداً، بل ربما رجح الحزن في الإثم على ثواب ذلك الفرح. فعلم أنه لا ينبغي لفقير أن يتوجه في تولية أمير وعزل آخر إلا بطريق شرعي، كإن كان المتولي ظالماً أو كان التوجه في وظيفة محلولة. وعلم أيضاً أنه لا ينبغي للشيخ أن يوهم أميره بأنه لا بد من قضاء حاجته كما مرت الإشارة إليه (١٢٣أ) في الكتاب مراراً لأن الحق تعالى لا يدخل تحت التحجير، بل له الإطلاق على الدوام. وإن وقع أنه

تعالى قيد على نفسه بشيء، فله أن يخالفه من حضرة إطلاقه، ولكن عند أهل السنة والجماعة أنه تعالى لا يفعل إلا ما لم يعارض النصوص القاطعة، فافهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من الأولياء من يحب الخفاء والستر، فيخبر أميره بأنه لابد أن يتولى مع علمه بأن تلك الولاية لا تقسم له طلباً للخفاء والستر بين العباد من باب ارتكاب أخف المفسدتين، فإياكم والمبادرة إلى حمله على أنه كذاب نصاب، انتهى. وقد عملت بذلك مع بعض مشايخ العرب فانقطع عني وحملني على النصب ثم بعد ذلك تولى، فلم يضف تلك الولاية إلى أحد من الخلق، وقال: ما ولاني إلا الله أي بلا واسطة دعاء أحد من الخلق، فساعد الفقراء في محبة الخفاء، فجزاه الله تعالى خيراً، فإن كل صادق يحب إضافة الطاعات كلها إلى الله تعالى دونه بخلاف الأمور التي تسخطه.

كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا تردد إليك أميران وطلب كل منهما منك أنك تدعو له بالولاية، فقل له: بسم الله ثم قل في دعائك: اللهم ول خير الرجلين لعبادك وأشفقهم عليهم. وليس ذلك من الكذب على الأمير لأن كفه بعدم توليته دعاء له، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، (١٢٣ب) والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم إذا توجه إلى الله تعالى في عزل ظالم هو عدو أمير، فقتله الولاة مثلاً وسلبوا نعمته أن يحزن عليه أشد الحزن، وكذلك يأمر أميره بالحزن عليه. وليحذر الشيخ والأمير في إظهار الشماتة به، فإن ذلك خروج عن مقام الأشياخ وعن المروءة، فيجب على الشيخ الخوف من مؤاخذة الحق تعالى له بقتل ذلك الظالم بتوجهه إليه تعالى في قتله، فقد لا يكون استحق القتل لكون الحق تعالى قبل توبته قبل قتله من قتله إلا نفس التي قتلها بغير حق. وكذلك يجب على الأمير أن يعتبر بموت عدوه وبما فعل به، ويقول لنفسه: عن قريب يفعل بك مثل ذلك، فلعل ذلك يشغل النفس عن الفرح والشماتة بعدوه. وينبغي للشيخ أن يقول لأميره إذا شمت بقتل عدوه: قد سقطت من عيني، فإنه لا فرق بينك الآن وبين المشاعلي الذي يفرح بقتل المجرم ليأخذ ثيابه لا لمصلحة تعود على المسلمين أو على المقتول، فكما فرح المشاعلي بقتل من ذكر ليأخذ ثيابه، كذلك أنت فرحت بقتل فلان لتأخذ وظيفته ويقع لك مثل ما وقع له من تحمل تبعات الخلائق وخزي الدنيا وعذاب الآخرة. وقد فعلت أنا بمثل ذلك مع بعض بني بغداد لما فرح بقتل أخيه وتولى مكانه، فقال لي: أنا فرحت بموته من حيث عدم الإثم الذي (١٢٤أ) كان يحصل له، فقلت له: إن كنت صادقاً فاعرض على نفسك ما لو تاب[٣٣] عن الظلم ودام في ولايته، فإن انشرحت لذلك كما تنشرح إذا توليت على حد سواء، فأنت صادق، فسكت ولم يجد جواباً، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يكون صبوراً على ترك تناول الشهوات أيام صحبة الأمير بزيادة على صبره عنها في غير أيام صحبته. وذلك ليكون أهلاً لتحمل حملة الأمير كل وقت طلب منه الأمير ذلك.

[٣٣] ر: أناب.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول: كل فقير صحب أميراً تهنأ بأكل أو شرب أو نوم أو جماع، فهو غاش لنفسه وللأمير لإخلاله بحق الصحبة من حصول الحزن لحزنه والفرح لفرحه.

وسمعت سيدي محمد المنير رحمه الله تعالى يقول: كل من لم يحس بجسمه كأنه محشو ناراً أيام هم الأمير وغمه، فليس له أن يدوم على صحبته. بل الواجب عليه مفارقته وإرشاده إلى من يشاركه في همه من الفقراء الصادقين، ويقول له: إن قلبي بارد من جهتك فلا أصلح لصبحتك، انتهى. ولما دخلت في حملة عامر بن بغداد لما مسكه الولاة، كنت أحس بجسمي أنه محشو ناراً من شدة الاحتماء عن تناول الشهوات، فأردت تنال شهوة مصلحة لجسمي. ثم نظرت إلى احتماء أم عبد الرحمن على ولدي (١٢٤ب) محمد مدة أشهر، فتركت تناول تلك الشهوة، وقلت لنفسي: أف على من تكون النساء أقوى منه عزماً ومروءة، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به لتوفوا حق صحبة أميركم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يدعوه إلى حضور وليمة قد عزم على فعلها ويقول: اجبروا بخاطرنا كما يفعله النصابون على الأمراء في مساعدتهم في وليمتهم بالعسل والأرز وغير ذلك، لاسيما إن كانت مجمعة من هدايا الأصحاب. ثم إن أوسع الشيخ الوليمة من هدايا الناس، فلا بد من دخول الشبهة غالباً فيها، فلا ينبغي الأكل منها. وإن ضيق الطعام، حصل عليه الزحمة، وتفرقوا ذامين لصاحب الوليمة، وقالوا: لأي شيء دعا الناس الكثير مع طعامه القليل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: حكم من يعمل له وليمة مجمعة من هدايا الأصحاب والمعارف، حكم من طبخ لحم قطط وعِرَس وفئران وبغال وحمير وحيات وعقارب وغير ذلك من الحشرات، فإن هذه اللحوم صورة كسب غالب الناس اليوم.

وعمل بعض إخواننا الذين لا كسب لهم وليمة ، ودعا إليها سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى وأمير المؤمنين العباسي على أيام السلطان الغوري، فغضب عليه سيدي علي وزجره كل الزجر، وقال: ما كفاك تأكل بدينك (١٢٥أ) حتى تطعم الناس معك، وكيف تدعو أمير المؤمنين إلى طعام لا تطيب نفس غلمانه أن يأكلوه؟ فما درى صاحب الوليمة ما يقول إلا أنه قال: تبت إلى الله تعالى عن عمل مثل ذلك، ثم قبل رجل الشيخ، وقال: قد نبهتموني على أمر لم يكن لي على بال. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا الوليمة بحسب كسبكم الشرعي الحلال ولا توسعوا الطعام، فتدخله الشبهة. واحذروا كل الحذر من إعلامكم أحد من أصحابكم بالوليمة قبل عملها ليلا يظنوا فيكم الشحاذة منهم والمساعدة، فيزدروكم في أعينهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يغفل عن تحويطه بما ورد في الآيات والأخبار كل ساعة مر على خاطره ليحفظه الله تعالى من الآفات التي تصيبه في دينه ودنياه من خروجه عن الشريعة في أحكامه أو سعي أحد من الأعداء على وظيفة والزيادة في مالها لجهة السلطان ونحو ذلك وفاء بحقه. وإن كان في بلاد الأمير جسور وخاف من العصاة أن يقطعوها قبل وقتها، فتتشرق البلاد حوطها كذلك كل وقت مرت على خاطره. وكذلك يحوط التجار الذين يسافرون إلى أسواق القرى ممن يقطع عليهم الطريق من العصاة خوفاً على التجار من إتلاف أموالهم وعلى الأمير من تغريمه قيمة ما أخذه قطاع الطريق (١٢٥ب) في دركه. وكذلك يحوط

جباة الخراج والمغارم أن لا يتعدوا حدود الله تعالى فيها. وإن خاف الشيخ من نسيانه لتحويط الأمير والجسور وجباة الخراج مثلاً، أرشد الأمير إلى أن يحوط نفسه وبلاده، بل هو أولى لأنه صاحب الحملة، فليعرض الشيخ الذي يصحب الأمير على نفسه ما عليه من الحقوق قبل أن يصحبه فإن رأى نفسه يقدر على تأدية حقوقه عادة، صحبه ولا فارقه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً شدة كراهته لدخول الأمير عليه حال كبر حلقة درسه أو مجلس ذكره خوفاً أن يسرقه الرياء، هذا إذا جاء الأمير بلا دعوة، فكيف به إذا دعاه سيدي الشيخ وساق عليه السياقات حتى حضر فيحذر الفقير من زيادة تعظيمه في قلب الأمير ودخوله عليه في محفله؟ فإن في ذلك آفات لا تحصى أقلها ذهول الطلبة عن تحقيق المسألة التي كانوا فيها بدخول الأمير ونسيان الأسئلة التي كانوا يسألونها والحجاب عن مناجاة الحق جل وعلا[٣٤] والاشتغال بالأمير ولا ينبئك مثل خبير.

وسمعت سيدي علياً المرصفي والشيخ عبد الحق السنباطي والشيخ نور الدين المحلي وغيرهم يقولون: لا ينبغي لعالم ختم درسه أن يدعوا أحداً من الولاة إليه لمخالفته لما كان عليه العلماء العاملون (١٢٦أ) من خوفهم من وقوع أحدهم في العجب بنفسه إذا حضرته الأكابر.

وقد كان الإمام النووي إذا بلغه أن نائب الشام يأتي مكان درسه يترك التدريس في ذلك اليوم من شدة تورعه وإخلاصه، فاعلموا ذلك واعملوا عليه واكتموا مقامكم عن أميركم إلا لغرض شرعي لا تلبيس فيه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم في صحبته محبة كل من نفر عنه أميراً وكراهة كل من جلب إليه أميراً وإظهار الفرح والسرور في وجه من نفره عنه وإظهار التكدير والحزن في وجه كل من حسن اعتقاده فيه ليرجع الجالب عن جلب أحد له ويدوم المنفر على تنفير الأمراء عنه.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: من تأمل وجد صحبة الأمير أضر عليه من السبع والثعبان. وسمعته يقول: من علامة صدق الإنسان في صحبة الشيخ والأمير أن ينفر كل منهما عن صحبة الآخر أخذاً بالاحتياط لهما. فإن مجالسة الأكابر من محبوبات النفوس، فيتشرف الأمير الفقير لأجل دينه ويتشرف الفقير بمجالسة الأمير لأجل دنياه. وسمعته يقول: إذا رأيتم أميراً يحب فقيراً أو عكسه، فنفروا كل واحد من الآخر خوفاً من حصول المقت لهما، فربما مقت الله الأمير والفقير معاً إذا (١٢٦ب) رأى الأمير في قلب الفقير من حيث إن قلب الفقير محل محبة الحق تعالى وحده. فلا ينبغي لعبد أن يدخل محل محبة الله أحداً إلا بإذنه تعالى كمحبة الأنبياء والأولياء مثلاً. أما من لم يأذن له في إدخال محبته قلبه كغالب الأمراء وأبناء الدنيا، فلا ينبغي لعاقل إدخاله قلبه. وسمعته يقول: ربما مقت الله الفقير إذا رآه أدخل قلبه محبة أحد لم يأذن له في إدخاله، وربما مقت الله الأمير إذا تحبب إلى الفقير حتى مال إليه الفقير غيرة على قلب وليه أن يرى فيه سواه تعالى. وسمعته يقول لأمير: إذا تعسرت عليك حاجة فأحسن إلى أحد من الفقراء ليميل إليك، فتدخل محبتك قلبه، فيقضي

[٣٤] ر: الله تعالى.

الله حاجتك بسرعة ليصرفك عن قلب وليه غيرة عليه من مكث أحد من الأغيار فيه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يكتم عنه جميع حوائجه لاسيما إذا فرغ القمح من داره خوفاً أن يرسل له الأمير شيئاً من القمح أو الإدام، فيتعلق به قلوب العائلة، فيصير خروجه من الدار ليرده على الأمير في غاية العسر. فيؤديه ذلك إلى العمل بالرخص في أكل الشبهات، فتذهب هيبته من قلب الأمير.

وقد وقع لإبراهيم بن أدهم أنه فقد مرة الحلال المناسب لمقامه فاستف التراب سبعة (١٢٧أ) أيام حتى وجد الحلال. فقيل له: أما خفت على عقلك من أكل التراب؟ فقال: هو عندي أولى[٣٥] من أكل ما بأيدي الناس. ثم قال: والله لو لم أجد الحلال سنة وأكثر لاكتفيت ما بقيت بالتراب حتى أموت، انتهى. فانظر يا أخي إلى شدة تورع السلف الصالح وشدة عزمهم على ترك الشبهات واعمل على ذلك، فإن الله تعالى ربما علم صدقك فاستخلص لك شيئاً من الحلال رحمة بك لكثرة خوفك من حسابه يوم القيامة. وقد وقع لي أيام الشباب أنني فقدت الحلال فأكلت التراب مدة طويلة فوجدت له دسماً كاللحم من شدة العزم وطعمه في فمي إلى الآن لم أنسه. وكان الناس يأتوني بالدجاج السمين والمطاعم الفاخرة، فأردها وأكتفي بالتراب. فلله الحمد على كل حال.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من ادعى الولاية وأكل من الحرام والشبهات كطعام المكاسين والعمال والأمراء ونحوهم وقال: إن مثل ذلك لا يؤثر في ديني نقصاً ولا في قلبي ظلمة فكذبوه في دعواه الولاية. فقد أجمع القوم على أن أكل الحرام يوهن الدين والروح والبدن.

وقال سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى: للقمة الحرام والشبهات أثر في قلب كل آكل من آحاد الناس إلى القطب الغوث. إذا أجرى عليه المقدّر وأكل حراماً، فأثرها في العوام وقوع أحدهم في أعمال مذمومة لم يكن يفعلها قبل تلك الأكلة. (١٢٧ب) وأثرها فيمن دخل الطريق من المريدين وطلبة العلم وجود قسوة في القلب ونقل في الطبيعة حتى أن أحدهم يحس بأنه أكل رصاصاً أو حجارة. وأثرها فيمن هو أعلى منهم في المقام غفلته عما يعود عليه نفعه من مصالح الدارين. وأثرها في الكاملين كثرة الخواطر التي لا منفعة فيها. وأثرها في الأبدال السبعة والأوتاد الأربعة والإمامين والقطب لا يعرفه إلا صاحب ذلك المقام، انتهى.

وقد كان أخي أفضل الدين إذا قدموا له طعاماً لا يمد يده إليه إلا بعد قوله بتوجه تام إلى الله عز وجل: اللهم إن كان في هذا الطعام شبهة في نفس الأمر لم أطلع عليها، فاحمني من الأكل منه. فإن لم تحمني من الأكل منه بأن قسمته لي، فلا تجعله يقيم في بطني بل يطلع من حلقي قبل أن تتشربه الأمعاء والعروق. وإن جعلته يقيم في بطني، فاحمني من وقوع المعاصي التي تنشأ من أكل الحرام والشبهات غالباً. فإن لم تحمني من الوقوع في المعاصي، فتُب علي بفضلك على الفور واقبل توبتي، وإن لم تقبلها، فارض عني أصحاب التبعات التي في هذا الطعام، فإن لم ترضهم عني، فلا تعذبني واعف عني، فإن عذبتني ولم تعف عني، فصبرني على العذاب وخففه عني يا أرحم الراحمين، انتهى. وهو كلام يتعين قوله في هذه الأيام (١٢٨أ) التي لا يكاد العارف يجد فيها من

[٣٥] ر: أولى عندي.

يتورع كتورعه أبداً. فاعملوا عليه أيها الإخوان وإياكم والتساهل في أكل كلما وجدتموه في أيدي الخلائق لاسيما إن جاءكم بلا سؤال وتحتجوا بحديث: ما جاءك في هذا المال من غير استشراف نفس، فخذه فتموله، الحديث. فان المراد بالإجماع بالمال هنا الحلال لأن الشبهة لم يأمرنا الشارع بأكلها بل رغبنا في تركها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً مع الأمير الذي يصحبه أن يعرف منه الطاعة لما يأمره به من الخير أو يعلم من نفسه القدرة على التأثير بإذن الله تعالى في بدن الأمير إذا خالف طريق الحق إما بنفخه أو إما بتوريم بدنه وإما بتكسيحه ونحو ذلك. فمن لم يكن له قدرة على ذلك، فصحبته للأمير ناقصة. وربما أوقع الأعداء بينه وبين الأمير العداوة، فقال له الأمير: إن كنت شيخاً انفخني فلم يقدر فيسخر به الأمير وحاشيته كما وقع ذلك لبعض إخواننا.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: الكرامة للولي كالمعجزة للنبي، فكما أنه لولا المعجزة ما تميز النبي عن قومه، كذلك لولا الكرامة ما تميز الولي عن أهل عصره. وكان رحمه الله تعالى إذا أرسل رسوله إلى أمير في شفاعة يقول له: إن سمع وأطاع فذاك وإلا، فانفخ في كفك بنية نفخ الأمير (١٢٨ب) فإنه ينتفخ. فكان الرسول يفعل بذلك، فينتفخ الأمير حتى تصير يداه ورجلاه[٣٦] مشالتان كالحمار الذي مات وانتفخ، فيحملونه على بغل ويأتون به إلى الشيخ، فيقول: ما حملك يا أخي على تجريب السم فيك؟ فيقول: تبت إلى الله تعالى. فإذا تاب رش الشيخ عليه الماء، فيذهب النفخ ولا يزال يقبل شفاعته حتى يعزل أو يموت. وكان رضي الله عنه يقول: تحويل الجبل بتوجه الفقير أهون عليه من تحويل قلب أمير، انتهى. وذلك لأن الجبل يعرف عظمة الله عز وجل، ولكن ليس عنده عقل ولا رؤية يتروى بها في الأمور بخلاف الأمير، فإن عنده من العقل والتدبير ما الله به عليم. فربما خالف إشارة الفقير ورأى نفسه أعرف منه بالأمور، فعمل بما ظهر له وترك ما طلبه منه الفقير. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تصحبوا من الأمراء إلا من تحكمون فيه ولا يحكم فيكم. وليس ذلك إلا بالتعفف عن ماله والأكل من الحلال الخالص، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن يفرح كلما فرق الأمير طعاماً أو دراهم على أقرانه وحرم شيخه من ذلك ويزداد في الأمير محبة ، ومتى وجد السيخ في قلبه حزازة من الأمير إذا فرق ضحايا أو غيرها في المواسم ونسيه، فالشيخ نصاب فضلاً عن كونه يطالبه بإرسال شيء من ذلك إليه بقلبه. فإن وظيفة الشيخ الصادق أن يحمل هم أميره ويود (١٢٩أ) أن لو كان عنده إردب من الذهب وساعد الأمير به لما عليه من المغارم والمصاريف. وكل من ادعى الصلاح وطالب أميره بأن يرسل له شيئاً من الهدايا ولو من حلال، فليس له من الصلاح إلا الاسم.

وكان سيدي علي الخواص إذا أرسل إليه أمير لا يعرف حال الشيخ شيئاً من الهدايا يرده. إن قال له الرسول: خاطر الأمير بذلك طيب، يقول له: وأنا الآخر خاطري ما هو طيب أن أقبله. ما صحبنا الأمير لنأخذ منه، وإنما صحبناه لنعطيه ونساعده فيما هو فيه الحملة، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

[٣٦] ر: رجلاه ويداه.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً مع الأمير أن يكون أكرم من الأمير، فلا يسأل شيئاً هو في غنية عنه ذلك الوقت إلا أعطاه لذلك السائل. وفي ذلك فوائد، منها تعظيم الأمير له واقتداؤه به في الكرم، ومنها خروجه من صحبة الأمير وهو مستور لا يطلع الأمير له على عيب ولا يسمع فيه كلام عدو، ومنها حماية أهل الخرقة عن وصف أحد منهم بالبخل. فاعلم ذلك وتكرم إذا صحبت الأمير زيادة على تكرمك. إذا لم تكن صاحباً له وكيف تبخل على السائل ثم تطلب من الأمير أن يتكرم ولا يبخل مع أنك ربما ترى مقامك أعلى منه عند الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩ب) ومن أخلاق أحدهم الشريفة مع الأمير أيضاً[٣٧] أن لا يرى لنفسه مدخلًا في تولية أميره تلك الولاية التي كان مواظباً على الدعاء بحصولها لأن الفقير الصادق بريء من العصبة مع أحد من الأمراء دون أحد. وهذا خلق غريب قل أن يوجد الآن في فقير ربما خجل حين تولى غير أميره في تلك الولاية بعد طول توجه إلى الله تعالى تحصيلها لأميره. ومعلوم أن الخجل لا يحصل إلا ممن يرى له مدخلاً ورؤية جميلة على الأمير. ولو تولى تلك الولاية، فليمتحن مدعي الصدق في هذا المقام نفسه بما لو أشاع الناس عنه أنه حامل حملة الأمير في تحصيل تلك الولاية ووصفوه بالصلاح والولاية، ثم ولى الله تعالى فيها عدو ذلك الأمير، فإن تكدر منه شعرة فيحكم على نفسه بعدم إخلاصه في هذا المقام وسوء أدبه مع الله تعالى. ولما أشاع الأعداء عني أنني وعدت الأمير حسين بن حماد بولاية إقليم المنوفية لما سألني في أن ألبسه جبتي الحمراء في تلك السنة، ثم لم يقع ذلك، وقال الأعداء في حقي ما قالوا،لم يتغير مني شعرة بحمد الله تعالى. فأحسست بنفسي أنني ممن تحقق بهذا المقام إذ لو كنت أرى لي مدخلاً في ولايته وأنا متعصب معه، لتكدرت غاية التكدير. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠أ) ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يصحب الأمير إلا بعد عرضه على نفسه مشاركته في جميع الأمراض والآلام التي تصيبه في الدنيا، لاسيما إذا عزلوه وعاقبوه في بيت الوالي بالمقارع والكسارات ولبس الخوذة الحديد المحماة على رأسه وكشط جلده بأمشاط الحديد وتعليقه بمحاشمه وجعل أعلاه أسفله. فإن رأى نفسه تطيب بمشاركة الأمير في ذلك، فليدخل في صحبته وإلا، فليترك صحبته. وهذا خلق غريب في هذا الزمان، بل ربما صحب بعضهم الأمير وأكل من طعامه ولبس من ثيابه وركب من مواكبه، ثم لما عزل وعاقبوه، ذهب وتركه وصار يأكل ويشرب ويجامع ويتفرج في البساتين وكأنه لم يعرف ذلك الأمير. وهذا خلاف ما درج عليه الأشياخ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعرضوه على أنفسهم إذا عمل أحدكم شيخاً قبل خروج الدجال كما مرت الإشارة إليه مراراً في الكتاب. فقد عملت به قبلكم وصرت أحس بالخوذة الحديد التي وضعوها على رأس أميري كأنها على رأسي. وصرت أمسح دهن رأسي السائل على وجهي بيدي كأنني أنا هذا الأمير. هذا أمر ذقته في نفسي، والحمد لله رب العالمين.

[٣٧] «أيضاً» ساقط من ر.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن لا يستعير جاهه في استخراج خراج رزقته التي هي له (١٣٠ب) أو تحت نظره لما في ذلك من إظهار الحاجة إلى الأمير. والقاعدة أن الأمير هو الذي يستعير جاه الشيخ في تخليص خراجه من الفلاحين بتوجهه إلى الله تعالى وكثرة دعائه له دون العكس. اللهم إلا أن يعلم من الأمير شدة الرحمة بالفلاحين وعدم ظلمهم وتكليفهم في الطعام وعلف البهائم والغلمان ونحو ذلك، وعلم من الأمير عدم رؤيته نفسه بذلك على الشيخ، فلا بأس. ولما نادى السلطان لأصحاب الرزق بمصر أن يأخذوا خراجهم أسوة طين السلطان، أراد الأمير محيي الدين أن يأخذ خراج رزقة أخي أفضل الدين أسوة طين السلطان، فأبى وقال: لا أزيد على فلاحيني شيئاً أدباً مع مولانا السلطان أن نشاركه في مقامه فإنه صاحب الأرض والبلاد بخلافنا نحن، انتهى. فهكذا أدركنا أشياخ الطريق[٣٨]، فاقتدوا أيها الأمير بهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً مع الأمير أن لا يأخذ منه مالاً ليفرقه على الفقراء والمساكين صيانة للخرقة عن اللوث بها وطلباً لاستبرائه في عرضه ودينه. وذلك لأن غالب الناس اليوم محب للدنيا غير زاهد فيها، فلا يحملون الشيخ إلا على حال أنفسهم من التخصيص بشيء من ذلك المال لنفسه وأولاده وعياله وأصحابه. وربما قالوا: لا تعد تعطي صدقتك لفلان، فإنه سيئة من السيئات، وقد أخذ غالبها (١٣١أ) لنفسه ولأصحابه ومنعك من الخير ومن دعاء الفقراء والمحتاجين[٣٩] لك كما وقع ذلك لبعض إخواننا. ثم أقل ما في ذلك من الإثم دخوله في الحساب على ذلك المال الذي فرقه على الفقراء يوم القيامة فيكون لهم المهنات وعليه الحساب.

وقد أرسل بعض الولاة إلى سيدي علي الخواص نحو ألف دينار ليفرقها على الفقراء، فردها وقال: الذي جمعها أولى بأن يتولى تفريقها، وليس لفقير أن يتصرف إلا فيما كان من كسبه الشرعي، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وإياكم أن تأخذوا مالاً من أميركم الذي لا يسلم ماله من الشبهة فتفرقوا على أحد، فإن السلامة مقدمة على الغنيمة عند كل عاقل. فعلم من باب أولى أنه ليس للشيخ قبول شيء لنفسه من الأمير مطلقاً لاسيما إن اعتقد فيه الزهد والصلاح.

وقد وقع أن الباشا إسكندر بمصر أرسل مالاً لنفرقه[٤٠] على الصلحاء والزهاد، فلما دخلوا به علي قلت لهم: قد خرج بهذا الشرط كل من أخذه عن الصلاح والزهد، إذ الصالح والزاهد لا يقبل ذلك أبداً، فما أخذه حين أخذه وهو مستحق له لفقد شرطه. فقال لي: أنت عندنا صالح وزاهد. فقلت له: العبرة بما عندي في نفسي لا بما عند غيري. فقال: أعطه لجماعتك. فقلت: إن قبلوا ذلك فأعطوه لهم، فعرضوه عليهم فلم يقبل أحد منهم شيئاً من ذلك. فقال جماعة الباشا: هذا الأمر ما رأيناه (١٣١ب) في أحد من فقراء مصر، وولوا معتقدين. فقضينا عندهم بعد ذلك عدة حوائج للناس. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به استبراء لدينكم وعرضكم، والحمد لله رب العالمين.

[٣٨] ر: الطريقة.
[٣٩] ر: المساكين.
[٤٠] ر: لتفرقه.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير وعلامة محبته له أن لا يغفل عن التوجه إلى الله تعالى في أن الحق تعالى يمكن أصحاب التبعات من أخذها من الأمير في هذه الدار لأنها أوسع من الدار الآخرة. كل ذلك وفاء[٤١] بحق محبة الأمير. وكل من لم يتوجه إلى الله فيما قلناه، فهو معدود من أعداء الأمير لا من أصدقائه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من الوفاء بحق الأمير الذي صحبه الفقير أن يتوجه الفقير إلى الله تعالى في تمكين أهل التبعات التي عليه من أخذها منه في هذه الدار، ولو بضرب الأمير مقارع وكسارات. وكل فقير لا يتوجه إلى الله تعالى في ذلك، فهو من جملة الغاشين للأمير. فليختار الفقير إما أن يخلص أميره من التبعات كما ذكرنا، وإما أن يتحملها عنه في الآخرة وفاء بحق صحبته، وإما أن يترك صحبته ويسأل له المغفرة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليحذر الفقير الساذج الذي له عادة بقبول هدية أميره أن يقبل هدية منه أرسلها إلى بيته أيام عزله أو حبسه وضربه مقارع في (١٣٢أ) بيت الوالي لأن ذلك من أعظم الخصال القبيحة. وإذا كان من شأن الفقير أن لا يقبل هدية من أميره حال الرخاء، فكيف يقبلها أيام الشدة؟ فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحذروا من قبول شيء من أميركم أيام عزله وحبسه، فإن ذلك يخل بمروءتكم. وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير أن يتوجه[٤٢] إلى الله تعالى في تولية أميره وظيفة إلا إن اطلع من طريق كشفه أنها مقسومة له أو أنها من الأمور المعلقة[٤٣] على السؤال، ولم يعارضه فيها أحد من أصحاب النوبة في بلاده، وكانت نيته فيها طلب الأخذ بيد المظلومين من أمة محمد ﷺ محبة فيه لا لغرض دنيوي، وأن يعلم من الأمير صدق اعتقاده الصلاح فيه، وأن الله تعالى لا يرد له دعاء. قال: ومن علامة صدقه في ذلك أن يتولى تلك الولاية من غير فلوس. ومتى غرم الأمير في طريقها فلوساً فهو دليل على عدم صدقه مع الفقير. قال: وإيضاح ذلك أن تولية الفقراء لا تكون إلا بسؤال الله تعالى، فيقيض الله تعالى لذلك الأمير أن رعيته كلها تسأل السلطان [في توليته عليهم وعزل خصمه، فيوليه السلطان][٤٤] بغير فلوس لما يلقيه الله تعالى في قلبه من شهود المصلحة للمسلمين، ولا يقبل في ذلك عذل عاذل ولا طعن طاعن، لكن بشرط أن تكون الرعية تستحق ذلك الأمير بأن كانوا على قدم الاستقامة. فإن لم يكونوا كذلك، كان المانع منهم لا من الأمير، (١٣٢ب) والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً مع الأمير أن لا تشغله صحبة الأمير عن ربه عز وجل ولا عن شيء من مرضاته. فقد أجمع القوم على أن كل شيء أشغل العبد عن ربه، فهو شؤم عليه في الدنيا والآخرة. فليعمل العالم على مقام جمعية القلب على ربه عز وجل بحيث لا يفرقه عن شهوده ذلك شيء، وإلا فمن لازم من لم يكن عنده[٤٥] جمعية قلب التشتت بدخول الأمير عليه في قراءة ورده أو تدريس علمه مثلاً. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تدخلوا في صحبة أحد من الأمراء إلا بعد سلوككم طريق القوم على يد الأشياخ الصادقين، وإلا ضيعتم عمركم فيما

[٤١] «وفاء» ساقط من ر.
[٤٢] أ ر: لا يتوجه.
[٤٣] ر: المعقلة.
[٤٤] ما بين المعقوفتين من هامش أ.
[٤٥] «عنده» ساقط من ر.

لا فائدة فيه مع الأمير، وصار أحدكم يقول: قال لي الأمير كذا، أكلت عند الأمير كذا ونحو ذلك كأن أحدكم اجتمع على أحد من الأولياء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً طول صبره على كثرة سماع كلام أقرانه فيه من جهة صحبته لذلك الأمير وكثرة وقوعهم[٤٦] في عرضه وكثرة حسدهم له. فإن ذلك لا بد منه شاء أم أبى. وأصل ذلك أن من شأن النفوس محبة المزاحمة على مجالسة الأكابر. وربما كان عندها ألذ من الأكل والشرب لاسيما إن مالوا إلى العبد بالاعتقاد فيه وإرسال الهدايا إليه.

وسمعت سيدي علياً المرصفي (١٣٣أ) رحمه الله يقول: من خفة عقل العبد أن يحسد أخاه على مجالسته لعبد مثله وميله إليه. ولو أنه كان عاقلاً لما وقع منه حسد على مثل ذلك لأن الحسد والاغتباط إنما يكون على مجالسة العبد ربه عز وجل ورسوله صباحاً ومساءً مثلاً. وأما مجالسة جندي أو أمير، فالأمر أقل من أن يحسد العبد أخاه عليه، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لعاقل أن يتكدر من كلام أقرانه من العلماء فيه إذا صحب أميراً وأحبه وقدمه عليهم، بل يجب عليه حملهم على أحسن المحامل كأن ذكروه بنقص ليذكروه بنقائص ليلا يغفل عنها بالعجب الذي يحصل له من مجالسة الأمير وإقباله عليه، أو قصدوا بذلك تحذيره من الركون إليه وموافقته له في أهويته ووصفه بالدين والخير مع ما هو عليه من الظلم والجور والبلص للرعية ونحو ذلك. قال: وكذلك لا ينبغي له التكدير من أقرانه إذا استغابوه[٤٧] بقصد التشفي والعداوة لا بقصد النصح والتحذير، أي من حيث أن الله تعالى يحكمه في حسناتهم وأعمالهم الصالحة يوم القيامة، فيأخذ منها بقدر غيبته لا من حيث وقوعهم في الإثم وتعديهم حدود الله. فيكون له عينان عين يفرح من جهة أخذه أعمالهم الصالحة التي تعبوا فيها طول عمرهم، وعين يحزن بها على (١٣٣ب) نفسه وعليهم من حيث أنه كان سبباً لوقوعهم في الإثم ولولا وجوده، لما كان وقع منهم غيبة له.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من أدب العالم مع الله تعالى أنه إذا حكمه في حسنات من استغاب به يوم القيامة أن يرد تلك الأعمال إلى صاحبها إجلالاً لله تعالى من حيث كونه منسوباً إليه بالعبودية، فيكرم عبد سيده لأجله تعالى. وربما جازاه الله تعالى على ذلك بأفضل من تلك الأعمال التي مردها على صاحبها، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ووطنوا أنفسكم على تحمل سهام أقرانكم فيكم إذا صحبتم أميراً واعتقدكم وأحسن إليكم، سامحوا لهم فيما يقولونه في حقكم، إن طلبتم أن تكونوا من القوم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن يقدم مصالح أميره الأخروية على الدنوية، ويفرح له بذلك أكثر من فرحه بحصوله الأمور الدنيوية، عكس حال من يصحب الأمراء لغير الله عز وجل.

[٤٦] ر: وقوعه.
[٤٧] أ: استعابوه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الفقير في محبة الخير للأمير أنه لو توجه إلى الله تعالى سنة وأكثر في أن يولي أميره الوظيفة الفلانية ثم ولى الله تعالى فيها عدو أميره أن يفرح لذلك أكثر من فرحه إذا ولى الله أميره فيها، لأن الصادق دائر مع ما يريده الله ومع ما هو أحفظ للأمير في دينه. كما أن (١٣٤أ) من علامة صدقه أيضاً أن ينشرح خاطره بها إذا أكذبه الحق تعالى في كشفه أكثر من فرحه بها إذا وقع ما كاشف به موافقاً. ومتى تكدرت فيه شعرة لأجل ذلك، فهو لم يشم من الصدق رائحة، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً مع الأمير أن لا يتزلزل عن صحبته إذا لات الناس به لأجل مصاحبته له، وقالوا: فلان ما صحب الأمير إلا للدنيا ويا ليته مات قبل أن يصحب هذا الأمير ونحو ذلك، لأن تزلزله يدل على الرياء، إذ الصادق كلما نسب الناس عليه الرياء، فرح بذلك، لاسيما إن كان مشهوراً بالزهد والورع والعفة قبل صحبة الأمير، فإن نسبته إلى الرياء في صحبة الأمير، وأنه إنما صحبه للدنيا ليكون دافعاً له عن فتنة العجب والجاه كالجماجم التي يجعلها الفلاح على رأس زرعه ليدفع عن زرعه العين.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: من عقل العالم إذا صحب أميراً ولات أقرانه به تشفياً للنفس لا نصحاً أن يعذرهم في ذلك، فإنهم لا يقيسونه إلا على حال أنفسهم. قال: وقد صحبت أقبردي الدوادار[٤٨] وغيره من الأمراء، وما ذقت لهم طعاماً ولا شراباً ولا قبلت لهم هدية فيما بيني وبين الله تعالى. وكان أقراني يظنون في خلاف ذلك (١٣٤ب) ويقعون في عرضي، فكنت كلما بلغني عنهم ذلك، أشكر فضل ربي على حمايتي مما ظنوه في، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً شدة كراهته لتردد الأمير إليه، ويرى كل يوم لا يأتيه فيه الأمير يوم عيد عكس حال النصابين. ويقول للأمير: سألتك بالله: لا تتردد إلي أبداً إلا إن دعوتك إلى ذلك. فإنا لا نطلب منك إلا أن تكون في راحة وتقبل شفاعتنا في المظلومين لا غير. وقد فعلت أنا بمثل ذلك مع دفاتر مصر، كالأمير محمد والأمير أبي يزيد والأمير إبراهيم. فإذا جاءني أحد منهم أقول له[٤٩] في أول مرة: ما مع الأمير دستور في مجيئه إلينا مرة أخرى. وإن أبى، سألته في ذلك بالله عز وجل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامة صدق الفقير أن يتوجه إلى الله تعالى أن لا يلهم أحداً من الأمراء زيارته ويدفعهم عنه بالقلب. وذلك لما يترتب على تردده إلى الفقير من الآفات، وبسؤال كل واحد من العمال الفقير أن يشفع فيه عند الأمير، ولو كان ظالماً على الأمير، كما يقع فيه العمال الذين يأكلون مال السلطان ويتوسعون فيه بغير طريق شرعي، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه إذا عملتهم مشايخ قبل خروج الدجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم (١٣٥أ) أيضاً أن يكون أشفق على الأمير من والدته. فإن لم يكن كذلك، فصحبته للأمير ناقصة. وقد جاء شخص من العلماء إلى سيدي علي الخواص يشاوره في صحبته أمير. فقال له: يا أخي

[٤٨] أ: الدوادز.
[٤٩] أ ر: لهم.

اعرض على نفسك تحمل جميع أوزاره المتعلقة بالله ومظالم العباد يوم القيامة ودخول النار عنه إن استوجبها، فإذا علمت من نفسك القدرة على ذلك، فادخل في صحبته، وإلا فابعد عنه. قال: وقد أشار إلى نحو ذلك قوله تعالى ﴿ولا تَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَارُ﴾[٥٠] يحمل الظلم ما يشمل الكفر وغيره، ويحمل قوله تعالى ﴿ تَرْكَنُوا﴾ على ما هو أعم من الركون إلى ظلمهم والرضا به أو الركون إليهم بالصحبة، ويحمل قوله ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَارُ﴾ على ما يعم الاختيار والاضطرار بأن يدخلها من باب الفتوة والوفاء بحق الصحبة.

وفي كلام الشبلي رحمه الله تعالى: إني أود أن لو أدخلني الله تعالى النار وكبر جسمي حتى يملأ به النار لأجل وعده النار بملئها وأعتق جميع عصاة أمة محمد ﷺ من دخولها، انتهى. فإما أنه تمنى ذلك لما أحسن من نفسه من أقدار الله تعالى له على العذاب أو لعلمه بأن نوره يطفئ لهب جهنم إذا دخلها لما ورد في الحديث: إن النار تقول للمؤمن يوم القيامة: جُز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وانظروا ماذا يجب عليكم من (١٣٥ب) حقوق صحبة الأمير قبل [أن][٥١] تصحبوه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن يكون صاحب كشف يكشف به عمن يولى ومن يعزل ومن يموت من حاشية السلطان. لو سأله الأمير عن ذلك، فإن من لا كشف عنده لا ينتج له أمر من الأمير، وإذا سأله عن أمر غائب عن بلده مثلاً كموت السلطان أو عزل الوزير أو غير ذلك، فقال لا أدري، سقط من عين رعاية الأمير، وقال ولو في نفسه: فإذاً[٥٢] ليس بيننا وبين هذا فرق. بخلاف من كان ذا كشف صحيح، فإنه يسترق الأمير ويحكم فيه كما وقع لسيدي أبي السعود الجارحي رحمه الله تعالى. فقد رأيت أكابر الأمراء وأحدهم واقف بين يديه ولا يقول لأحد منهم: اجلس، لما كان عنده من الكشف الصحيح، حتى أنه كان يخبر أحدهم بما أكل في الظلام وبما فعل مع عياله.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله صاحب كشف صحيح، إلا أنه كان يدفع الأمراء عنه، فلا يلحقون بكشفه ولا يلقون بالهم إليه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وحصلوا مقام الكشف الصحيح بالنية الصالحة قبل صحبتكم للأمير بأكل الحلال الصافي والأعمال الزكية وترك الشهوات كلها، وإلا فلا يتم لكم معه صحبة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً (١٣٦أ) مع الأمير أن يكون صحيح التوجه إلى الله تعالى في قضاء [جميع][٥٣] حوائجه إذا طلب منه مساعدته في أمر من الأمور. وذلك بأكل الحلال وشربه ولبسه وقوله وفعله، فإن الشيخ بمجرد ما يأكل أو يشرب أو يلبس أو يقول أو يفعل الحرام أو المكروه يبطل توجهه. فليرض الشيخ نفسه زماناً قبل صحبة الأمير. فإذا صار كاتب الشمال لا يجد سيئة واحدة يكتبها عليه، فعند ذلك له صحبة الأمير. وهذا الأمر الآن أعز من الكبريت الأحمر.

[٥٠] هود، ١١٣.
[٥١] زيادة من المحقق.
[٥٢] أ ر: فإذن.
[٥٣] زيادة من ر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن لم يفتش الفقير فيما يأكل وفيما يلبس مثلاً إلى عشرة أيدي تداولت عليه في الحل، فليس له صحبة أمير. لأن القرب من الشبهات يبطل توجه الفقير إلى الله تعالى في حوائج الأمير، انتهى. وسمعته يقول: إذا صحبتم أميراً أو شيخ عرب أو كاشفاً فإياكم أن تأكلوا له طعاماً. فإن طعامه لا يخلو من الشبهات، حتى أنه لو سُخروا في حرث زرعه أو حصاده أو دراسه مثلاً، لصار من جملة الشبهات. فمتى أكل منه الشيخ لقمة واحدة، بطل توجهه إلى الله تعالى في قضاء حوائج الأمير وغيره، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحكموا باب الورع قبل صحبتكم للأمير لتقوموا بواجب حقوقه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن لا يتكدر من الأمير إذا رد شفاعته في مجرم. فقد لا تكون (١٣٦ب) العقوبة بلغت فيه حدها، وقد يكون للأمير عذر لا ينبغي له ذكره لأحد، وقد يكون الأمير عارفاً بدسائس النفوس وخاف على شيخه أن يلحقه العجب بنفسه إذا لم يرد له شفاعته. ولا يجوز للشيخ حمل الأمير على أنه رد شفاعة الشيخ استهانة بمقامه لما في ذلك من الإخلال بأدب الصحبة.

وسمعت سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي رحمه الله تعالى يقول: يجب على من يصحب الأمراء أن يكون عارفاً بطريق السياسة خارجاً من الرعونات النفسانية، وإلا فما يفسده أكثر مما يصلحه. وإذا شفع عند الأمير في مظلوم مثلاً، فلم يقبل شفاعته، فليعاوده المرة بعد المرة ،ويحمل الأمير على الأعذار المقبولة. وسمعته يقول: ما رد أمير شفاعة فقير إلا لعلة، إما لعدم كشف ذلك الفقير ومعرفته بانقضاء مدة الحبس والعقوبة مثلاً، وإما لعدم استحقاق ذلك الشخص الشفاعة فيه، وإما لقلة سياسة الفقير، وإما لغير ذلك كارتكاب الشيخ أمراً يغضب الله تعالى عليه، ولو في سالف الزمان خرج به عن أهلية الشفاعة في غيره. إذ مقام الشفاعة بالأصالة إنما هو للأنبياء. وأما غيرهم فليس أحدهم من أهل الشفاعة في غيره، إلا إن لم يكن عليه ذنب يعلمه الله تعالى، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأتوا لبيوت الحكام بوصف الإخلاص والأدب، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧أ) ومن أخلاق أحدهم أيضاً كتمان كلما يسمعه من أميره في أخبار المملكة وغيرها، وفاء بحق أميره وخوفاً من حصول فتنة عظيمة بذلك. ولا يشترط أمر الأمير له بالكتمان، بل القرينة كافية في مثل ذلك. كما إذا أراد الأمير أن يتكلم بكلام، فصار يتلفت يميناً وشمالاً لينظر هل هناك أحد قبل أن يتكلم به، فإن ذلك قرينة على أنه يريد الكتمان من الشيخ، فليحذر الشيخ الساذج من مثل ذلك كل الحذر. وقد وجدوا في باب إيوان كسرى مكتوباً

إِذَا صَحِبتَ المُلـــــــوكَ   فَالْبَسْ مِنَ التوَقي أَجَل مَلْبَس
وَادْخُلْ إِذا ما دَخَلْتَ أَعمى   وَاخْرُجْ إِذا ما خَرَجْتَ أَخْرَس

انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، فإياكم أن تفشوا سر أميركم، ولو لأعز أصدقائكم، فربما حكى صديقكم ذلك لصديقه الذي هو عدوكم، فأشاع ذلك عنكم بين الولاة، فحصل بذلك الضرر الشديد لكم ولأميركم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً عدم أخذ هدية من الأمير في حملته التي حملها عنه، سواء أكانت[٥٤] من الأمور المعلقة على دعاء الشيخ، أو من الأمور المبرمة. ومتى قبل الشيخ هدية على ذلك، فقد خرج عن طريق القوم والتحق بأبناء الدنيا، لاسيما أيام عزل الأمير وحبسه، فإن اللائق بالشيخ إنما هو أن يعطيه (١٣٧ب) وينفق على عياله لا أن يأخذ منه. وقد أرسل لي مرة الباشاة مصطفى نائب زبيد مالاً جزيلاً لأحمل حملته أنه لا يعود السلطان يرسله إلى زبيد بل يتركه في مصر، فرددته، وقلت له: لا يخلو إما أن يكون الحق تعالى كتب عليه السفر فلا أقدر منعه منه، وإذا لم أقدر على ذلك، فما عملت شيئاً أستحق به الجعل المذكور، وإما أن يكون عدم السفر معلقاً على دعائي، فإنما أفعل ذلك لله تعالى، فلا ينبغي لمثلي قبوله. فأخذه الرسول ورجع به. وأتاني ناظر الخواص مرة بمال لأحمل حملته، فقلت له: إن قبولي مالك يبطل عمل دعائي في حقك. فقال: أعطه للفقراء بالزاوية. فقلت له: إن ذلك يتلف قلوبهم، فلا يصير يقبل له دعاء لك. فإن شئت، فأعطه لهم ولا تطالبهم بعد ذلك بقضاء حاجتك، وإن شئت، فأعتقهم منه وطالبهم بقضاء حاجتك. فأخذ ماله ورد به. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه تفلحوا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن يعظم كل من زاره من الأمراء ويقوم له ويقدم له لقمة لأجل الخلعة التي جعلها الله تعالى عليه لا للأعراض الدنيوية. ويقبح على فقير أن تكون نفسه أكبر من نفس أمير. وكيف يخلع الأمير كبريائه وعظمته ويرى نفسه دون الفقير ويقبل يده أو رجله والفقير لا يفعل معه ذلك؟

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ما طلع أمير (١٣٨أ) زاوية فقير إلا بعد أن خلع كبرياءه وعظمته تحت عتبة زاويته، فما طلع له إلا وهو فقير مثله. قال: وهذا سر يخفى على كثير من الناس، بل بعضهم يقبل هدية الأمير وإحسانه من قمح وعدس وعسل وغير ذلك، ويصير معدوداً من عائلته، ثم يرى نفسه مع ذلك على الأمير. قال: ومثل ذلك لا يليق إلا بفقير زاهد في الدنيا لا يميل إلى شيء من شهواتها إلا على تحوج فيه. أما من يقبل إحسان الأمير، فلا يليق به إلا أن يقبل يد الأمير أو رجله لأجل إحسانه إليه. ورأيته رضي الله عنه مرة يقبل رجل المحتسب، فأنكر عليه بعض الفقهاء. فقال: إنما يمنع من ذلك من يقبل رجل الأغراض الدنيوية، وأنا[٥٥] لا أقبل رجله إلا لأجل خلعة الحق تعالى التي خلعها عليه يأمر فيها وينهي. وإذا قلت البضائع من السوق على الناس أرسل مناديه فنادى للناس بإخراج بضائعهم، فيمتلئ السوق بضاعة . فهل تقدر أنت يا فقيه تفعل مثل ذلك؟ وسمعته يقول مرة بعد المبالغة في أدبه مع أميره: هذا أدبنا مع ولاة أمورنا في هذه الدار، وسوف يعلمنا الله تعالى الأدب اللائق بهم في الدار الآخرة إذا انتقلنا إليها. وسمعته يقول: ليس أدب الفقراء بالأصالة مع الأمير وإنما هو أدب مع الله الذي ولاه تلك الوظيفة، فرجع الأدب إلى من ألبسه الخلعة. لا إلى من لبس الخلعة، وإن لزم من الأدب (١٣٨ب) مع الله الأدب مع ذلك الفقير وعكسه لمن تأمل، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

[٥٤] ر: سواء كانت.
[٥٥] ر: وإنما.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً إذا ابتلي بصحبة أمير فاسق أن لا يفارقه إلا إذا أيس من صلاحه وسماع نصحه. وما دام يرجو رجوعه عن صفات الفسق، فمن الوفاء بحق الصحبة أن يدوم على صحبته ويشاركه[٥٦] في تقوم عوجه ليلاً ونهاراً لاسيما إن كان مع ذلك الفسق عادلاً في رعيته.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود حين هجر عصاة بني إسرائيل غيرة لجناب الله عز وجل: يا داود، المستقيم لا يحتاج إليك والأعوج قد هجرته وتركت تقويم عوجه، فلماذا[٥٧] أُرسلت؟ انتهى. فتنبه داود لأمر كان عنه غافلًا، وصار يعمل الطعام ويدعو إليه عصاة بني إسرائيل ويبش في وجوههم حتى مالوا إليه بالمحبة وقوم عوجهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: الفقير يكنى أبا[٥٨] العيون، فعين ينظر بها إلى فسق الأمير مثلاً فيكرهه لله تعالى، وعين ينظر بها إلى ما فيه من تبعاته الحسنة فيحبه لله تعالى. وسمعته يقول: من شرط العارف أن لا يحب أحداً بالهوى ويكرهه بالهوى، كما إذا أحبه حال إحسانه له واعتقاده فيه، وكرهه حال حرمانه من البر وكثرة إنكاره عليه، انتهى. ومعلوم أن من علامة صدق الفقير في صحبة الأمير أن يحبه لأجل إحسانه للرعية ويحب دوامه في الولاية، ولو كان من أكبر المنكرين عليه. (١٣٩أ) ومن علامة عدم صدقه أن يحبه ما دام محسناً إليه ومعتقداً فيه، ولو كان من أكثر الناس ظلماً لرعيته.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي يقول: لا يصلح لصحبة الفاسق من الأمراء إلا رجال الرحمة من الأولياء. أما من غلب عليه الغيرة لجناب الشرع، فلا يتم له معهم صحبة. وكان يقول: من فتوة الفقير إذا استبلي بصحبة أمير يشرب الخمر ويزني ويسمع الآلات أن لا يغفل من تحويطه من نزول البلاء عليه، ويسهر يدعو له بالمغفرة من العشاء إلى الصباح وفاء بحق صحبته بعده. قالوا: أحوج ما يكون صاحبك إليك إذا عثرت دابته أو دارت رحى أعماله إلى عمل السيئات، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يكون من أول المنكرين على الأمير إذا كان يحبه لعدله، ثم جار وظلم الرعية بعد ذلك. لكن هذا لا يستقيم للشيخ إلا إذا كان زاهداً في الدنيا متعففاً عن قبول هدية من الأمير. فإن لم يكن كذلك، فلسانه أخرس ويده مغلولة وعينه عمياً وأذنه طرشاً.

وقد بلغنا أن مالك بن دينار دخل على والي البصرة، فأغلظ على الوالي القول والوالي ساكت لا يجيب. فلما فرغ مالك من كلامه، قال له الوالي: أتدري ما أجراك على الإغلاظ علينا والزجر لنا؟ هو زهدك فيما بأيدينا وقلة طمعك في برنا (١٣٩ب) وإحساننا. ولو أنك طمعت في برنا لك لخرس لسانك عن كل كلام يغير خاطرنا، انتهى. وتقدم أن الأمير إذا كان له عمل صالح وعمل سيء أن الفقير يحبه من حيث عمله الصالح ويكرهه من حيث عمله السيء فيكون له عينان، والحمد لله رب العالمين.

[٥٦] أ ر: يسارقه.
[٥٧] أ ر: فلم ذا.
[٥٨] ر: أبي.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يدع الأمير يقع في غيبة أحد ما دام جالساً عنده لاسيما أقرانه ويقول له: يا أمير أنت عاجز عن تحمل أوزارك، فكيف تزيد عليها بحمل أوزار غيرك؟ وذلك لأن منصب مجلس الأشياخ يجل عن أن يكون مجلس إثم[٥٩] ونقمة، إنما ينبغي أن يكون مجلس خير ورحمة.

وسمع أخي أفضل الدين أميراً يقع في أعراض جماعة من المكاسين والمباشرين. فقال: يا أمير أنت عاجز عن تحمل أوزار العلماء أو الصالحين، فكيف تحمل أوزار الظلمة والمكاسين وتنقل أعمالك الصالحة إلى صحائفهم كما ورد، انتهى.

وسمعت الأمير محمد الدفتر رحمه الله تعالى يقول: والله ما بقي لي حاجة بتردد أحد من العلماء إلي. فقلت له: لم ذاك؟ فقال: لا يأتيني أحد منهم إلا ويقع في غيبة أحد من أقرانه إما صريحاً وإما تعريضاً، فيحملونا الإثم زيادة على إثمنا، انتهى. فأعجبني صدقه.

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: الأمير والعالم كالسوق لا يجلب إليه إلا ما يعلم رواجه فيه. ولو أن العالم أو الأمير (١٤٠أ) يكره الوقيعة في الناس، لدفع عن مجلسه كل من ذكر للناس بسوء، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحفظوا ألسنتكم وأمروا بذلك أميركم إذا جالستموه في حق إخوانكم المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً إذا زاره الأمير أن يقوم له إذا ورد ويقدم له نعله ويشيعه إلى باب الزاوية أو الدار، ثم يقبل يده ويسأله الدعاء نظير ما يفعله الأمير معه، بل هو أولى بذلك من الأمير. وما ذم الشارع التواضع للأكابر من أهل الدنيا إلا في حق من يتواضع لهم لأجل غناهم. أما من يتعفف عن دنياهم ويردها عليهم ولو جاءته من غير سؤال، فلا حرج عليه في التواضع، بل يزداد بذالك رفعة عند الأمير. وفي الحديث: شرف المؤمن في قيام الليل وعزه في استغنائه عن الناس، انتهى. ومعلوم أن الاستغناء تارة يكون بكثرة المال وتارة يكون بالعفة والقناعة فافهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أدب الفقير خدمته الأمير وتقبيل يده وسؤاله الدعاء ووفاء ببعض حقه، لا طمعاً[٦٠] في دنياه ولا رياء له. وفي القرآن العظيم ﴿وَلَلآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[٦١] فقد يعطي الله تعالى الأمير الولاية الباطنة ويجعله من أهل حضرته كما أعطاه الولاية الظاهرة ونفذ كلمته في هذه الدار ورفع مقامه (١٤٠ب) على مقام الفقير. وسمعته يقول: مما يخفى على غالب الفقراء المتعبدين الزاهدين شهود أحدهم أنه أفضل عند الله من الأمير، فإن هذا من أعلى طبقات الكبر. ولا يشعر كل أحد، فليحذر الفقير من مثل ذلك، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، وإياكم أن تظنوا فيمن ترونه

[٥٩] أ: أذم.
[٦٠] أ: طعما.
[٦١] الإسراء، ٢١.

يتواضع للأمراء من العلماء أنه يفعل ذلك لأجل دنياه، لأن ذلك ظن كاذب إذ الدنيا في عين العالم بالله تعالى لا تزن عنده جناح بعوضة، فكيف يرضى بذهاب ثلثي الدنيا لأجل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يصحبه لله تعالى أو للدار الآخرة لا لشيء من الدنيا كما مرت الإشارة إليه أوائل الخاتمة. فليحذر أن يتخذ الشفاعات في المظلومين عند الأمير حانوتاً يحترف به الدراهم والأطعمة والهدايا. فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من شفع شفاعة عند أمير فأُهدي له شيء على ذلك، فقبله فقد أتى باباً من الكبائر، انتهى.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: متى خالط قلب الفقير محبة هدية على شفاعته في مظلوم، فليس له في الإخلاص من نصيب. بل هو من جملة النصابين فضلاً عن قبولها وأكلها والانتفاع بها لما ورد في الصحيح أن الله تعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك (١٤١أ) لا أقبل أن أشرك فيه غيري، الحديث. فشمل الحديث ما لو أشرك مع الله في محبة الأمير محبة هدية ثمرة أو عنبة أو زبيبة. وسمعته يقول: ينبغي للشافع أن يقصد بالشفاعة نفع نفسه بالأجر أولاً ونفع المشفوع له بتفريج كربته ثانياً ونفع الأمير ثالثاً ورضا الله عنه رابعاً.

وسمعت بعض بني بغداد يقول عن فقير يشفع عنده: لا تظنوا أن هذا يشفع لله أبداً، إنما جعل الشفاعة عندي حانوتاً يحترف به أمر معيشته من قبول الهدايا من الناس كلما أقبل شفاعته. قال: وكثيراً ما ألح منه ذلك فأرد شفاعته خوفاً عليه من أكل الحرام. وسمعته يقول مرة عن فقير: ما جعله شيخاً إلا قبول الشفاعة. ولو إني رددتها لم يعتقدها أحد ولا عمله شيخاً. ودخل عليه مرة شخص له عذبة ومعه تلامذة من فقراء مصر ليشحذوا[٦٢] منه شيئاً في حجة شفاعة في فلاح فقبل شفاعته وأكرمه. فظن ذلك من الأمير على وجهه، فشفع في آخر، فأشار إلى المباشر أن اكتب لسيدي الشيخ وصولاً بعسل وسمن ودجاج، فكتب وأعطاه. فلم يعد يتذكر الشفاعة في حقه، بل نسيها اشتغالاً بالوصول الذي كتبه له. فضحك الأمير وجماعته على هذا الشيخ، وقال: عرفتم صدقي في قولي في حقه إنه يشفع وسيلة إلى الشحاذة مني. ودخل عليه مرة أخرى شيخ له عذبة في مولد (١٤١ب) سيدي أحمد البدوي. فقال له: نحن أحق بالسعي إليكم يا سيدي الشيخ. ثم قال الأمير لأصحابه: إن هذا ليس هو بأحمدي، وإنما يجعل حضوره المولد كل سنة حجة في أخذ عادته مني. فلما كتب له الوصول بعادته، سمعته يقول: قطعكم الله تعالى وقطع مشيختكم أبدتونا شراً لأنا لسنا عالمين فتأخذون عنا العلم، ولا نحن صالحون حتى تتبركوا بنا وبدعائنا، وليس عندنا مال حلال حتى تأخذوه منا، انتهى. هذا سمعته منه.

ودخل على الأمير محمد الدفتر شخص من الفقراء كان مقيماً بمكة ثم جاء إلى مصر. فقال: ما أقدمكم إلى بلادنا؟ فقال: طلب الأجر لكم ولمولانا السلطان. فقال: من أي وجه؟ فقال: لتبنوا بمكة بيمارستان للغرباء وللضعفاء الذين لا يجدون أحداً يخدمهم ولا يقوم بهم. فقال الأمير: الذي فهمته من هذا أن مقصوده أن يشاع عنه أنه من الفقراء الذين يسعون في مصالح العباد حتى يصل ذلك إلى السلطان فيصطاد به الدنيا بعد ذلك. ثم

[٦٢] أ ر: ليشحدوا.

قال: وأنا أكشف لكم حاله بإعطائه شيئاً من الدنيا، فإنه إن كان مخلصاً سوف يرده ويدوم على طلبه منا حاجته. وإن كان مرائياً فهو ينسى حاجته ويأخذ الذي نعطيه له ثم يذهب. أتاه الخازن دار بمائة دينار، وقال له: قد خرج لكم الأمير عن هذا الفُتيح لتغسلوا به ثيابكم من السفر، فضحك وانشرح. ثم (١٤٢أ) لم يعد يذكر بعد ذلك البيمارستان إلى أن سافر ولم يطالب الدفتر بالجواب، فصحت فراسة الدفتر فيه بأنه ما كان مقصوده إلا الدنيا. فإياكم أيها الإخوان من فعل ذلك إذا عملتم مشايخ نصابين قبل خروج الدجال ثم إياكم. فإن الولاة قد صاروا ينتقدون الفقراء الذين ظهروا في زمانهم كما ينقدون الذهب ويخرجون منه المغشوش ولا ينبئك مثل خبير، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن لا يجر إلى أميره ضرراً بوجه من الوجوه في الدنيا والآخرة، بل يكون أشفق عليه من نفسه. ومن أهم ما يؤمر به الشيخ كتمان سر الأمير لاسيما في حق عدوه الذي يريد الولاة عزله مثلاً. فربما أسر الولاة إلى أمير بشيء من أمر عدوه، فأسر الأمير من ذلك إلى الشيخ فأفشاه الشيخ للناس، فحصل بذلك مفسدة عظيمة على الأمير وعلى الشيخ. كما إذا كان الأمير الذي يريد الولاة عزله عنده مال عظيم للسلطان جمعه من الخراج، وربما يسمع أنهم عزموا على عزله ومصادرته وحبسه وضربه وتولية الأمير الذي يتردد للفقير، فخاف وهرب بمال السلطان واستخفى كما مرت الإشارة إليه في هذه الخاتمة. هذا فيما يخبر به الأمير الشيخ، أما ما يخبر به الشيخ الأمير من طريق كشفه أو من طريق نصبه، فهو أشد وأنقد[٦٣] سواء أوقع (١٤٢ب) ما أخبر به أم لم يقع. فليحذر الشيخ أن يقول للأمير: فلان معزول إن شاء الله تعالى في هذا السنة، ويرد الأمر في ذلك إلى المشيئة الإلهية فيمسك الأمير على الشيخ هذا القول بحكم الجزم. فإذا لم يقع جعل الشيخ من قسم النصابين، فيصير الشيخ يقول: أنا ما جزمت، وإنما قلت إن شاء الله تعالى، فلا يصغي الأمير إليه. وتقدم أن من الواجب على الشيخ إذا شم من الأمير الذي يتردد إليه أنه يطلب منه تولية وظيفة لا خلاص له فيها أن يطرده عن بابه بالقلب والقالب سواء أعلم الشيخ من طريق كشفه أنها مقسومة للأمير أم غير مقسومة لما فيه من تكليف الشيخ بما لا يطيق. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يظهر التعفف عن قبول هدايا الأمير وضحاياه التي يرسلها عادة إلى العلماء والصالحين كل سنة حتى يعرف الأمير منه الجزم بعدم قبولها فلا يصير يرسل له شيئاً. وهذا أولى من ردها بعد أن جاءت إلى بيت الشيخ. وقد أخبرني جماعة من العدول أن ضحايا الكشاف ومشايخ العرب التي يرسلونها كل سنة إلى العلماء والصالحين، إنما يأخذونها من الفلاحين غصباً ونهباً، وصارت عندهم كالعادة المحكمة، إن لم يجدوا الغنم أخذوا من الفلاحين أثمانها. فربما حلف رسول (١٤٣أ) الأمير لسيدي الشيخ بالله العظيم أن الأمير اشتراها بماله من السوق ولم يأخذها من الفلاحين، فيصدقه سيدي الشيخ ويعتقد حلها. وغاب عنه أن مال الأمير حكمه حكم الضحية المغصوبة لأن من يتجرأ على أخذ غنم الناس ويقربهم بغير طريق شرعي، فلا يبعد أن يغصب منهم أموالهم. وقد أخبرني قاضي الجيزة وقاضي الخانقاة كلاهما من قضاة

[٦٣] ر: أشد.

الأقاليم بحل ضحية أرسلها معهما قاضي العسكر، وقالا: نشهد عندك أن هذه الضحية من علوفته ومن معلوم تدريسه، فإن كنت تقبل منها ديناً فاقبلها وإن كنت لا تقبلها فردها. فتأدبت مع قضاة السلطان وأخذتها لظني صدقهما. ثم أن دلال البقر أتاني وأخبرني بأن هذه البقرة بلصها القاضي من المحتسب المكاس، فرميناها للكلاب ليلاً ولم نأكلها. فالعاقل من رد ضحايا الولاة في هذا الزمان مطلقاً وسد الباب عليه وحمى عياله من زيادة البلاء عليهم بسبب الأكل منها، لأن الضحية ما شرعت بالأصالة إلا لتدفع البلاء عن أهل الدار من العام إلى العام، ومعلوم أنها لا تدفع البلاء إلا إذا كانت من حلال.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: فرقوا لحم ضحاياكم على أصحابكم ومعارفكم ما استطعتم ولا تختصوا بأكلها فتزدادوا بلاء. وكان أحدكم يقول: أنا أولى بدوام البلاء علي من الناس وذلك جهل. (١٤٣ب) فربما طلع في جسده تلك السنة الحب الفرنجي والخراجات الشديدة، وصار يستغيث من شدة الألم فلا يغاث. ولو أنه كان فرق لحم أضحيته على الناس، لتوزع البلاء عليهم وخص كل واحد جزء يسير لا يحس به، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحذروا من قبول ضحايا الأمراء والكشاف ومشايخ العرب التي[٦٤] يرسلوها في العيد الأكبر إلى الزوايا. وإن قبلتموها لعذر، ففرقوها على الفقراء والمساكين والأطفال الذين لا تكليف عليهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً إذا شفع عنده في مظلوم أن لا يجعل الظلم وقع بعلم الأمير لأن ذلك يهتكه، وربما انتصر الأمير لنفسه وأقام بينة زور أن ذلك الشخص قطاع الطريق، فازدادت[٦٥] الفتنة بخلاف إذا جعل ذلك الظلم وقع من حاشية الأمير بغير علمه وجعل الأمير كالشافع في ذلك المظلوم عند حاشيته. فإنه ربما حصل التفريج لذلك المظلوم نخوة أو مروءة أو رياء وسمعة. وهذه السياسة حسنة ألهمنيها الحق جل وعلا، فلم أزل أكاتب الولاة بنحو قولي: قد بلغنا أن جماعتكم ظلموا فلاناً بغير علمكم والمسئول من فضلكم أن تنظروا في المسألة بنور الله. فإن كان فلان ظالماً فلا شفاعة (١٤٤أ) لنا فيه، ونحن معكم عليه حتى يبلغ التأديب فيه حده. وإن كان مظلوماً فأنتم أهل الخير والمعروف انتهى. وقد ذهل غالب الفقراء عن مثل هذه السياسة فيجعلون الأمير هو الظالم، فيرد شفاعة أحدهم ويحصل له الخجل. ويكون على علم سيدي الشيخ المقيم بمصر مثلاً أن الكاشف أو غيره ببلاد الريف إنما حبس ذلك الفلاح مثلاً بعد ثبوت بينة أقيمت عنده سواء أكانت[٦٦] حقاً أم زوراً في نفس الأمر. وربما كان الشيخ ليس عنده علم بحاله يعتمد عليه، وربما أرسل المظلوم إلى سيدي الشيخ خروفاً أو دجاجاً أو غير ذلك ليشفع له ويبلغ الأمير ذلك، فيحمل الشيخ على أنه ما شفع فيه إلا لأجل تلك الهدية لا طلباً للأجر والثواب له أو للأمير. ولا يخفى ما في ذلك من الإزراء بمقام الأشياخ، فليكن في هذا الزمان على حذر ويشفع على وفق ما ذكرناه له، والحمد لله رب العالمين.

[٦٤] أ ر: الذي.
[٦٥] أ: فازدات.
[٦٦] ر: كانت.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يراسله بقوله: سلام الله تعالى على فلان، إلا إن كان يعلم أن الله تعالى آمن ذلك الأمير من الوقوع في سائر المعاصي الظاهرة والباطنة. وذلك لأن السلام من الفقراء إنما هو إخبار عن الله تعالى بأنه راض عن ذلك الأمير مثلاً، فليس سلامهم بحكم العادة كما عليه غيرهم ممن يقع في الكذب على (١٤٤ب) الله تعالى ولا يشعر بذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليس لفقير أن يقول لمن يراسله مثلاً: سلام الله على فلان، إلا إن علم من طريق كشفه الصحيح الذي لا يدخله تلبيس أن الله تعالى يحفظه من سائر الآفات في مستقبل الزمان إلى أن يموت. وإنما يقول: سلامي على فلان وينوي به أنه يعطي ذلك الأخ الأمان من أنه يخونه في عياله أو في ماله أو في عرضه مثلاً، أو أنه لا ينساه من الدعاء أبداً ما عاش. فمثل هذا له أن يقول: سلامي على فلان بشرط أن يعلم من نفسه الصدق فيما يؤمن بها أخاه.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: من لم يطلعه الله تعالى من طريق كشفه على أن الله تعالى لا يؤاخذ أخاه بذنب يقع فيه من وقت السلام إلى أن يلقى ربه بالموت، فليس له أن يقول له: سلام الله عليك.

وسمعت أخي [أفضل][٦٧] الدين رحمه الله يقول: له السلام على الإخوان. إنما هو إعطاء الأمان لهم بأنه لا يظلمهم ولا يخذلهم ولا يسألونه شيئاً ويمنعهم منه بغير عذر شرعي. فقلت له: وما معنى السلام على من هو أكبر منا مقاماً ولا يصح لأحد منا أن يؤذيه كرسول الله ﷺ أو السلطان؟ فقال: معناه: أنت يا رسول الله أو يا مولانا السلطان في أمان منا أن نخالف أمرك ونتساهل في ترك مأمور أو في فعل منهي. ومعنى سلام الأكابر على (١٤٥أ) الأصاغر: أنتم في أمان منا أن نعاقبكم إذا خالفتم أمرنا أو نغشكم في دينكم أو دنياكم، انتهى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: ليس لفقير أن يرسل لأخيه سلاماً من الله تعالى إلا إن علم طهارة أخيه من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة من كبائر وصغائر ومكروهات ونحوها[٦٨] كالعلماء العاملين والأولياء الصالحين. أما نحو الظلمة والمكاسين المتلطخين بالذنوب وتبعات الخلائق، فلا ينبغي لفقير أن يعطي أحدهم السلام من الله تعالى لما فيه من الكذب على الله تعالى والاستهزاء بذلك الأخ، انتهى.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على أرباب الأحوال إذا سلموا على أحد من المكاسين أو شربة الخمر مثلاً فإن أحدهم ربما كان من رجال الرحمة الموكلين بالشفاعة في العصاة من أمة محمد ﷺ في هذه الدار كلما عصوا ويوجدون كثيراً في مواضع الخمر وبنات الخطاء، فيشفعون لكل من شرب خمراً أو زنا أن الله يغفر له أو لا يؤاخذه أو لا يعجل عليه العقوبة. ومنهم جماعة يحملون النساء إذا ركبن فكل إمرأة مسها وكانت زانية، تاب الله عليها من الزنا لوقتها، انتهى. وقد جمعني الله تعالى على جماعة من رجال الرحمة وصحبتهم وعرفت أحوالهم. وسمعته (١٤٥ب) يقول: أين من يشفع فيك كلما عصيت

[٦٧] زيادة من هامش أ.
[٦٨] «ونحوه» ساقط من ر.

ممن يقول لك: إذا عصيت هذا حرام عليك مع أنك تعلم تحريمه بلا شك، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يصحب الأمير حتى يعرض على نفسه أنه لا يفارق الأمير حتى يدخل الجنة سواء أكان[69] عادلًا أو ظالماً. أما العادل فلا يليق لأحد التباعد عنه، وأما الظالم فلا يليق بمن صحبه إلا مخالطته والأخذ بيده وتقويم عوجه.

وسمعت سيدنا ومولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: إذا صحبتم أميراً وصار يقبل شفاعتكم ويقضي حوائجكم ثم تغير الحكم عليكم، فإياكم أن تدعوا عليه بالهلاك[70] وزوال النعم مثلًا. وإنما الواجب عليكم أن تدعوا له بالتوبة وأن الله تعالى يدبره بحسن التدبير. وأما الدعاء عليه فلا ينبغي ويكفيه ما حل به من ظلم العباد والبلاد وكثرة التبعات عليه في الآخرة وسخط الله تعالى عليه في الدنيا. فلا ينبغي لصاحب مروءة أن يدعوا عليه بالزيادة في البلاء. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تدخلوا في صحبة أمير إلا إن عزمتم على عدم مفارقته في الدنيا والآخرة، وعلى تحمل تبعاته ومشاركته في العقوبة إن لم تقدروا على دخول النار نيابة عنه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً (١٤٦أ) أن لا يدخل في صحبته إلا إن علم منه الدخول تحت تحجيره عليه، إذ الأمير في حجر تربية الفقير كالطفل في حجر وليه، ومتى رفع الولي يده عن تربية الطفل وقع في الهلاك. فكذلك الأمير متى رفع الفقير يده عن تربيته[71] تلف حال الأمير وجهل ما يصلحه وما يفسده. وإنما شرطنا على الأمير الدخول في طاعة الفقير ليلا يطلب الأمير منه ولاية لا خلاص له فيها أو لم تقسم له، فيكلف الشيخ شططاً. وقد تقدم أوائل الخاتمة أن من أدب الشيخ أن يقول للأمير أول ما يصحبه: اعلم يا أخي أنه ليس في شعرة تحن إلى مساعدتك في ولايتك التي تطلبها لما فيها من عدم الخلاص لك في الدنيا والآخرة. وإنما اللائق بنا معارضتك في الوصول إليها وأن نحول بينك وبينها. وذلك لتنبيه الأمير على عظمة مقام الفقير ومعرفته بأن الفقير ما صحبه إلا لينظر له بنور الله عز وجل.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: إذا ابتلي أحدكم بصحبة أمير، فطلب منه المساعدة في توليته وظيفة لا خلاص له فيها، فليحذر أن يدعو له بها موافقة لغرض أميره. وإنما الأدب أن يقول: اللهم ول فلاناً الوظيفة الفلانية إن كان له فيها خيرة وحل بينه وبينها إن كان فيها شر له أو للناس. قال: ولكن هذا لا يصح إلا ممن أحكم الزهد في الدنيا. أما الراغب فيها فهو مع الأمير إن شرق (١٤٦ب) أو غرب، انتهى. واعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به إذا عملتم مشايخ قبل خروج الدجال، والحمد لله رب العالمين.

[69] ر: كان.
[70] أ: الهلال.
[71] ر: تربيه.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يفرح بزيارة أميره له أو غيره من الأمراء، إذ لا يليق بعاقل أن يفتخر بزيارة أبناء الدنيا له، إنما يليق به الافتخار بزيارة أبناء الآخرة من الفقراء الذين لا يؤبه لهم. وكل من ادعى الصلاح وصار يفتخر بزيارة أحد من الأمراء له كالباشاة والدفتر، فهو دليل على عدم صدقه في الطريق، لاسيما إن أظهر التكدر بزيارته وصار يقول: والله ما كان لنا حاجة بزيارة الباشاة. وقد حصل لي غم بذلك. والحال أن قلبه فرح بذلك. فإنه قد زاد بنفسه نفاقاً وغشاً وتلبيساً كما يقع فيه من استحكم فيه النفاق، فيخاف أن يلحق حذاق الفقراء به فيزدرونه من حيث أنه فرح بزيارة الباشاة له ويقولون: فلان لم يشم من طريق الفقراء الصادقين رائحة. وقد ظهر في عصرنا هذا بعض جماعة يزعمون أن الباشاة أو قاضي العسكر أو الدفتر أرسل يستأذنهم في الزيارة لهم فلم يأذنوا له .والحال أن ذلك كذب، وإنما يقول ذلك طلباً لقيام الجاه في قلوب الناس، إذا سمعوا أن الباشاة أرسل يستأذن في الزيارة ويقولون: لولا أنه صالح ما اعتقده الباشاة وعظمه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وإياكم والافتخار (١٤٧أ) بزيارة أحد من الأكابر، بل خافوا من فضيحتكم يوم القيامة حين يبدوا لمن كان يزوركم ويعتقد فيكم الصلاح في دار الدنيا خلاف ذلك، ويندم أحدهم على زيارته لكم كما هو شأن الفقراء الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمراء أن لا يبدأ أحد منهم بالزيارة لما فيه من انتهاك حرمة الفقراء ومبادرة ذهن الأمير إلى حمله على المحامل التي لا تليق قياساً على غيره من النصابين. لكن إن بلغ الشيخ أن الأمير قد عزم على زيارته فذهب هو إليه فلا حرج بل ذلك من فعل الفقراء الصادقين.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يفعله كثيراً، فيذهب هو إلى الأمير الذي بلغه أنه قد عزم على زيارته ويقول له: أنا فلان الذي بلغني أنكم عزمتم على زيارتي، فقصدت تخفيف الكلفة عليكم لأنكم مشغولون بمصالح الناس وأنا بحمد الله فارغ من مثل ذلك. ثم يقبل يده ويرجع. وكان يقول: ما ذم الشارع تواضعنا لأبناء الدنيا إلا إن تواضعنا لهم لأجل دنياهم كما صرح به الحديث. أما إذا تواضعنا لهم لإعطاء مرتبتهم حقها، فلا حرج علينا في ذلك. ودخل مرة على أمير كان قد عزم على زيارته، فأعطاه شيئاً من الدنيا. فقال الشيخ: إن الله تعالى قد أنعم علينا وتفضل بالكفاية من الدنيا فأعط ذلك لمن هو محتاج إليه. فقال: يا سيدي الشيخ أنا خاطري (١٤٧ب) بذلك طيب. فقال الشيخ: أنا خاطري بذلك ما هو طيب، انتهى. وقد فعلت أنا بحمد الله بهذا الخلق مرات مع باشاة مصر كالوزير علي وإسكندر وغيرهم لما بلغني أنهم عزموا على زيارتي، فكان ذلك أخف فتنة من زيارتهم لي.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تمكنوا أحداً من الأمراء يزوركم، فإن جميع ما معكم من المدد لا يكفيه في مقابلة مشيه إليكم. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن ينكر على أميره ظاهراً إذا ظلم وجار ويعذره باطناً أدباً مع الله تعالى من حيث الحكمة الإلهية في تقدير مثل ذلك على العباد. فإنه لولا ذنوبهم ما سلط ذلك الأمير عليهم. فحكم الولاة الآن حكم زبانية جهنم عند أرباب البصائر. فكما أن الزبانية لا ينسبون في الآخرة إلى الظلم لشهود كل مذنب أنهم إنما أخذوه بأعماله، فكذلك الحكم في ظلم الولاة للناس في هذه الدار. وإنما العارف ينكر عليهم قياماً بشعائر

الشريعة وتقبيحاً للظلم في عيونهم، فينكر أحدهم على الظالم بلسانه ويرحمه بقلبه ويرجوا له التوبة والمغفرة، كما يرجو ذلك لنفسه إذا عصى أمر ربه عز وجل.

وسمعت سيدي محمد المنير رحمه الله تعالى يقول: من شأن العارف أن يرجح جانب الإنكار (١٤٨أ) على جانب التسليم لله تعالى ما دام في هذه الدار، فيظهر الكراهة للعصاة ويعبس في وجوههم إيثاراً لجناب الحق جل وعلا، ويخفى التسليم لله في تقديره على عباده المعاصي. وسمعت يقول: عداوتنا للعصاة إنما هي عداوة صفات لا عداوة ذات، بدليل أن الكافر إذا أسلم وحسن إسلامه وجبت محبته. ولو أنها كانت عداوة ذات، لم يتغير علينا الحكم. فعلم أن من كمال العبد أن يحب أخاه من حيث الإسلام ويكرهه من حيث وقوعه في الآثام. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وازهدوا فيما بأيدي أميركم من الدنيا لتظهروا له الإنكار عليه إذا عصى ربه، وإلا فلا سبيل لكم إلى ذلك كما هو شأن من يحب الدنيا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن لا يوافق أميره في الدعاء على عدوه أو مساعدته عليه من طريق الظاهر أو الباطن، إلا إن علم وتحقق أنه أصلح من ذلك العدو للرعية. فإن شك في ذلك فليس له مساعدته بوجه من الوجوه، كما مرت الإشارة إليه مراراً.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي للشيخ أن يجيب الأمير إلى مساعدته[٧٢] في تولية وظيفة لا خلاص له فيها لأن الأمير أعمى عن نقائصه لحجابه بمحبة الدنيا عن رؤية عيوبها. وربما كان الشيخ رأى أموراً (١٤٨ب) خارجة عن الشريعة تفي على يد كل من كان متولياً في تلك السنة. فكان من جملة الوفاء بحق الأمير أن الشيخ يتوجه إلى الله تعالى في عدم ولايته لتقع تلك المظالم على يد غيره ممن لا صحبة له مع الشيخ، حيث كان لا بد لها من شخص تقع على يديه في تلك السنة.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للفقير إذا تردد إليه أميران كل واحد يسأله في ولاية إقليم مثلاً أن يقول: اللهم ول خير الرجلين للمسلمين أو اللهم ول من سبق في علمك أنه يكون متولياً في هذه الوظيفة في هذه السنة، ولا يرجح واحد منها على الآخر من غير علم. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وفوضوا الأمر إلى الله في توليته من شاء ممن استند إليكم، والحمد لله رب العالمين.

من أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يفرح كلما رد الأمير شفاعته في أحد من المظلومين، ثم لما شفع عنده عدو الشيخ في ذلك المظلوم، قبل شفاعته وأظهر السرور وقال: ألف حاجة تُقضى لسيدي الشيخ. وهذا الخلق أعز من الكبريت الأحمر. وغالب الناس يتكدر إذا رد الأمير شفاعته وقبل شفاعته عدوه. ولو أنه كان مخلصاً لأحب الأمير إذا رد شفاعته أكثر من محبته له إذا قبلها. وذلك لأن الصادق دائر مع حصول المصالح للعباد، سواء أكانت على (١٤٩أ) يده أو يد غيره. ومتى رجح حصول المصالح على يده دون يد عدوه، فهو دليل على عدم الإخلاص. وأقل ما في رد الأمير شفاعة له من المصالح حمايته من الوقوع في العجب بنفسه إذا

---

[٧٢] «إلى مساعدته» ساقط من ر.

صار الأمير لا يرد له شفاعة وحمايته من إرسال أحد هدية له بسبب الشفاعة فيه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يحب الأمير أكثر من محبة ولده العزيز وزوجته الموافقة. وذلك لما يقع له على يديه من تفريج كرب المكروبين وقضاء حوائج المظلومين، بخلاف الولد غالباً فربما حصل له على يديه الشر هو والزوجة. أقل ما هناك الاشتغال بهما عن الله في بعض الأوقات من غير حصول شيء يجبر بذلك، بخلاف الأمير لأن له أموراً تجبر خلل الاشتغال به عن الله تعالى غالباً.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامة إخلاص العالم أن يزداد محبة في الأمير الذي يشفع عنده وفي القرب منه كلما نسبه الناس إلى الرياء في صحبته وفي قبول شفاعته. فإن معاملة الصادقين إنما هي مع الله لا مع الخلق عكس معاملة النصابين، فربما نسبه الناس إلى الرياء. فقال: والله ما كان لي حاجة بالقرب من هذا الأمير وما حصل لي بصحبته إلا الشر، يعني من جهة نسبة الناس له إلى الرياء، (١٤٩ب) وذلك من الجهل المبين.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إذا صحبتم أميراً فلتكن صحبتكم له من حيث كونه يساعدكم على تفريج كرب المكروبين وحصل لكم بذلك الثواب. وعلامة صدقكم في دعواكم أنكم تحبونه أكثر من ولدكم وزوجكم مثلاً أن تحبوا قبول شفاعتكم عنده ليحصل له الأجر بذلك بحكم الأصل، وتجعلوا حصول أجركم بحكم التبع لأجر الأمير، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يأخذ بركاب الأمير إذا ركب كما يفعل غلمان الأمير مع الأمير واقتداء بالعلماء العاملين، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فقد روى البيهقي وغيره[٧٣] عن زيد بن أسلم أنه قال: كان نبي من الأنبياء يأخذ بركاب الملك الذي يشفع عنده في المظلومين مكافأة له على مساعدته لذلك الملك في الخير، وتأليفاً لخاطره لأجل قضائه حوائج المسلمين، انتهى. ولكن يحتاج العامل بهذا الخلق إلى رياضة شديدة حتى يخرج من جميع الرعونات النفسية خوفاً أن يدل نفسه في غير محل، وتكبر نفس الأمير بغير حق. ومن الرياضة أن يحكم مقام الزهد في الدنيا وشهواتها وجاهها ومطاعمها وملابسها وغير ذلك بحيث لا يكون له ميل إلى شيء، إلا إن رأى فيه رضا الله عز وجل. فاعلموا ذلك أيها الإخوان (١٥٠أ) وعظموا الأمير لأجل خلعة الله التي خلعها عليه، لا لأجل شيء من الأغراض الدنيوية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم الشريفة[٧٤] مع الأمير أيضاً أن لا يستجلبه لصحبته، ولو رأى نفسه أعرف بدسائس النفوس من سائر أقرانه في البلد. وإن أراد استجلابه ولا بد، فليعرض على نفسه ما يلزمه من حقوق صحبته، كما مرت الإشارة إليه أوائل هذه الخاتمة. ومن الحقوق أن يلاحظه في جميع أحكامه، فلا يدعه يزيغ عن الحق في حكم من الأحكام، وأن يتحمل عنه جميع التبعات التي عليه حتى لا يوقف للحساب لأجلها. وإذا أصابه مرض

[٧٣] أ ر: غيرهم.
[٧٤] «الشريفة» ساقط من ر.

أو هم أو غم من عزل أو مصادرة لا يتهنأ بنوم ولا يضحك ولا يأكل ولا يشرب حتى يزول ذلك عن الأمير. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وإياكم أن يستجلب أحدكم أميراً إلى صحبته لما يحس في نفسه من القدرة على الوفاء بحقه. فإن ذلك قد لا يصح له لاسيما كفه عن الظلم والجور والمبالغة في الإنكار عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يغفل عن إرشاده إلى التوبة في كل لحظة وإقامته حجة الله تعالى على نفسه دون العكس، كما عليه بعض النصابين الذين يصحبون الأمير للأجل الدنيا. فربما قال له أحدهم: أيش كنت أنت في هذا الظلم؟ فإن الله تعالى هو الذي قدر ذلك (١٥٠ب) على عباده لحكمة بالغة. فيصير الأمير يستهين بذنوبه حتى لا يكون له داعية إلى التوبة من ذنب من الذنوب، فيهلك مع الهالكين.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: إذا وقع الأمير الذي صحبته في شدة فأمروه يتذكر ذنوبه ويستغفر عن كل ذنب منها ما شاء الله تعالى حتى يغلب على ظنه أن الله تعالى قبل استغفاره وغفر له، فإن ذلك أسرع لزوال تلك الشدة. قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٧٥] فعلم أنه ما دام الأمير يقول: أنهم عزلوني وحبسوني أو ضربوني بغير ذنب، فيا طول تعبه وتعب شيخه معه.

وكان أخي أفضل الدين إذا جاءه أمير يشكو له من أحد من الولاة الذين فوقه يقول: يا أخي تذكر ذنوبك التي فعلتها طول عمرك واستغفر ربك عنها، ولو تقادم عهدها وحصل بعدها كثير من الطاعات، فإنه ليس مع العبد علم من الله تعالى أنه غفرها أبداً وأما الذنب فمتحقق، انتهى. واعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يسأل الأمير أنه يشفع له في دفع مكس عن شيء أتى للزاوية من صدقات الناس ومن عسل ورز وقمح وسمن ونحو ذلك، لأن مقام الشيخ أن يكون شافعاً في الأمير لا أن يكون الأمير يشفع فيه هو. ومن فعل ذلك ذهبت هيبته من قلب الأمير.

(١٥١أ) وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: الفقير لا يدفع عن نفسه وأصحابه الآفات إلا بقلبه دون يده ولسانه. فإن أقدر الله تعالى الفقير على دفع المكاس فذاك، وإلا سكت وأعطى جماعة السلطان عاداتهم وأبرأ ذمتهم في الدنيا والآخرة إظهاراً للفتوة والنخوة، وفراراً من موقف الذل بين يدي ذلك المكاس، يسأله المسامحة في عادته لاسيما إن كان يهودياً وصاحب المتاع عالماً صالحاً فإن الأمر يكون أقبح.

وسمعت الشيخ عبد الحق السنباطي رحمه الله تعالى يقول: محل مطلوبته حرمان المكاس [من المكس][٧٦] إذا لم يكن في طريق ذلك ذل واستهانة للمؤمن، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

[٧٥] الأنفال، ٣٣.
[٧٦] زيادة من هامش أ.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يتركه يزور ويتردد إلى من شاء من العلماء والصالحين ولا يعرض له بأن يقتصر على زيارته دون غيره كما يفعل الأشياخ بالمريدين القاصرين، لأن منصب الأمير يجل أن يدخل تحت حكم أحد من الرعية.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: كما لا ينبغي للشيخ أن يحجر على المريد أنه لا يزور غيره، إلا إذا علم من طريق كشفه أنه لا نصيب له في الطريق عند غيره، فكذلك ينبغي أن يكون حاله مع الأمير الذي يتردد إليه ومن حجر على مريد أو أمير من غير كشف، فهو صاحب رعونة، (١٥١ب) لا ينبغي له أن يتظاهر بالمشيخة في الطريق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامة صدق الفقير إذا اجتمع بأمير أن يحسن اعتقاده في أحد من الأقران ليذهب إليه ويستريح من تبعات الخلائق وكثرة الوقوع في غيبته، إذا لم يوافقهم على أغراضهم التي يطلبونها من الأمير. ولكن ينبغي له أن لا ينسى ذلك الفقير الذي حسن اعتقاد الأمير فيه من الدعاء بأن الله تعالى يحفظه من آفات صحبته ليلا يسيء في حق أخيه. وأما نحو حديث: حوالينا ولا علينا، فالمراد به: حوالينا من الأرض المحتاجة إلى المطر، لأنها[٧٧] تمطر على قوم يتضررون بذلك فافهم.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إياكم أن تحجروا على من صحبكم من الأمراء الذين تعلمون من طريق الكشف أنهم لا نصيب لهم في المدد عند غيركم وتأمروا أحدهم بأن لا يجتمع بغيركم لفظاً، وإنما تحجرون عليه بالباطن فقط لئلا يسبق إلى ذهن الأمير أن أحدكم يريد بذلك التمشيخ عليه دون غيره، وربما وصل ذلك إلى الأقران، فتحركت العداوة منهم وحصل ما لا خير فيه، انتهى. فاعلموا ذلك واعملوا به وأطلق للأمير سلاحه، فما رأينا أمير قط متصدراً لتربية المريدين ولا مدرساً ولا مفتياً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً[٧٨] (١٥٢أ) أن يكون دائراً مع الأقدار الإلهية بطيب نفس لا مع غرض الأمير إذا لم ينشرح بالأقدار الإلهية إذا خالفت هواه. ولو أن الشيخ توجه إلى الله تعالى سنة وأكثر ليولي أميره وظيفة ما يتفق له ذلك وتولى فيها عدو أميره، كان من مقام الشيخ أن يكون بذلك أشد فرحاً من تولية أميره، لأنه دائر مع مراد الحق تعالى لا مع مراد نفسه وأميره، كما مرت الإشارة إليه في هذه الخاتمة.

وتقدم أيضاً أن من أدب الفقير أن يقول للأمير إذا تردد إليه لأجل كونه مساعده في تولية وظيفة لا خلاص له فيها: اعلم يا أخي أنه ليس في شعرة واحدة تحب أن تساعدك في تولية هذه الوظيفة، فأرح يا أخي نفسك من التردد إلي، فإنه لا فائدة فيه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه إذا صحبتم أميراً لكن بشرط العفة والزهد في الدنيا، وإلا فلا سبيل لكم إلى مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يفرح إذا تحول عنه أميره ونقض عهده وغير اعتقاده فيه واجتمع على أحد من أقرانه وعظمه كل التعظيم وصار يقول: إنا كنا عن مثل هذا الرجل في غفلة فإن ظفره خير من

[٧٧] أ: لا أنها.
[٧٨] «أيضاً» ساقط من ر.

لحية ذلك الشيخ. وكل فقير لا يفرح بتحول أميره، فهو صاحب رعونة لا تصلح له صحبة الأمير لكونه يحبه بالهوى ويكرهه (١٥٢ب) بالهوى.

كان أخي أفضل الدين يفرح بمفارقة الأمير الذي كان صحبه واعتقده ويقول: لا يخلوا إما أن تكون صحبته لي خيراً له هو الذي تركها، وإن كانت شراً له فقد استراح مني، وإن كانت لا خير فيها ولا شر فالأمر سهل لا يوجب التكدر، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يحب تطهير أميره من جميع ذنوبه في هذه الدار، ويسأل الله تعالى له ذلك، ولو بالعزل والضرب والحبس محبة فيه ووفاء بحقه. وكل فقير تكدر إذا وقع لأميره شيء من ذلك، فصحبته لغير الله تعالى وهو ناقص الإيمان بيوم الحساب.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي يقول: من علامة كون صحبة الفقير للأمير[٧٩] لله تعالى أن يفرح لوقوع كلما يطهره في هذه الدار، فليحذر الفقير من دخوله في حملته بالتوجه إلى الله تعالى من غير توبة، فإنه قد لا يجاب. وكان يقول: لا تدخلوا في حملة أمير إلا إن كان قليل المعاصي جداً. أما الواقع في شرب الخمر والزنا واللواط مثلاً ليلاً ونهاراً من غير توبة، فإن دخول الفقير في حملته عناء وتعب ومشي في غير طريق. وسمعته يقول: إذا طلب أميركم منكم أن تحملوا حملته، فمن الواجب عليكم أن تأمروه (١٥٣أ) بالتوبة النصوح ورد المظالم كلها إلى أهلها، ثم بعد ذلك تدخلوا في حملته. وسمعته يقول: حضرة الحق تعالى ليست هي ملعبة، فمن أراد أن يشفع في أحد عند الله تعالى فيأمره أولاً بالندم وكثرة الاستغفار ورد المظالم، ثم بعد ذلك يسأل الله تعالى أن يلطف به. وأما سؤال الحق تعالى له العفو مع إصراره على المعاصي، فلا يفيد لإخلاله بركن من أركان التوبة وهو الإقلاع. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه وآتوا البيوت من أبوابها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يساعده في تلك الحاجة التي طلب منه قضاءها بالتوجه إلى الله تعالى من حين يخرج النقيب من عنده إلى حين يدخل على الأمير. وذلك أسرع في قضاء الحاجة كما جرب. ومن هنا كنت لا أكتب رسالة إلى أحد في غير بلدي من الأمراء ليلة سفر الرسول لتقصر مدة ملاحظتي له، بخلاف ما إذا طلب مكاتبتي قبل سفره بأيام، فإنه يتعب قلبي في ملاحظته تلك المدة كلها. وهذا أمر قد أغفله غالب الفقراء، فمجرد ما يكتب المراسلة ينسى الرسول والأمير، فلا يجد الأمير عنده داعية لقضائها. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً إذا قال له الأمير حال عزله أو حبسه مثلاً إن الشيخ الفلاني أرسل (١٥٣ب) يقول لي: أعطني كذا وكذا وأنا أحمل حملتك، فهل هو أهل لمثل ذلك أم لا؟ فمن الواجب عليه أن يقول له: أنت بحسب ما يلقيه الله في قلبك من صدقه أو عدم صدقه. فإن ألقى الله تعالى في قلبك صدقه فأعطه، وإلا فلا. ويرد الشيخ الأمير إلى الله تعالى ولا يجزم بشيء. فربما كان صادقاً فصار الأمير يقول: الله بيني وبين فلان الذي نفرني عن إعطاء فلان ما طلب حتى لم يقض حاجتي، وربما كان كاذباً نصاباً، فأخذ فلوس

[٧٩] ر: الأمير للفقير.

الأمير ولم يحمل له حملة، فصار الأمير يقول: ما غشني إلا فلان، وندم على إعطائه الفلوس. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يرى الأمير أعظم درجة عند الله تعالى منه لأن في ضمن عكس ذلك شهود الفقير الكبرياء في نفسه، والله لا يحب المتكبرين. ومن لا يحبه الله تعالى، كيف يرى نفسه على أخيه المسلم، وأعلى أحوال الأمير أن يكون متكبراً وقد ساواه الفقير في الكبر، فصار مثله أو زاد عليه في الكبر؟ وقد يكون ذلك الأمير ولياً لله تعالى في الباطن، وتلك الوظيفة حجاباً عليه في الظاهر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا زاركم أمير مرة واحدة فلا تروا أنكم كافأتموه (١٥٤أ) بزيارتكم له ألف مرة. وذلك لأن للأمير الفضل على أحدكم بحضور اسمكم على باله أو إرساله لكم السلام، فكيف إذا أتعب نفسه وأتى لزيارتكم لاسيما إن كان أحدكم يقبل بره وإحسانه وغالب ما يقوم بمعيشته جعله الله على يديه؟ فإن بذلك يشتد فضله ومنته عليكم ولا تقدروا على مكافأته، لا بشيء من الدنيا ولا بالدعاء، لأن أحدكم يأكل الشبهات وهو مجرب لرد الدعاء فضلاً عن أكل الحرام.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تنظروا إلى كثرة طاعاتكم وقلة طاعة الأمير، فتروا أنفسكم عليه فتخطئوا طريق الولاية الربانية. والاختصاصية إنما تتعلق بالسرائر، والأعمال إنما هي عنوان عن الولاية المكتسبة. ومن الفرق بينهما أن الولاية الاختصاصية الوهبية تكون الكرامات مصاحبة لصاحبها، ولو كان على غير نعت الاستقامة. وأما الولاية المكتسبة، فلا يصاحبها كرامة، إلا إذا كان صاحبها على نعت استقامة، ومتى عصى ربه بطلت كرامته. هكذا قال بعض المحققين. وقال بعضهم: إذا وقعت الكرامة على يدي من يقع في المعاصي فهي استدراج لا كرامة، كما يقع للدجال إذا خرج، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وكونوا من المنكسرة قلوبهم، والحمد لله رب العالمين .

(١٥٤ب) ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يغفل عن نصح الأمير وملاحظته في جميع حركاته وسكناته، فإن حكم الأمير الذي جعل الفقير شيخاً له حكم المريدين في الطريق على حد سواء. فكما أنه ليس لمن عرف من نفسه العجز عن ملاحظة المريد أن يجعل نفسه شيخاً له، فكذلك القول فيمن يصحب الأمير إن لم يكن يقدر على ملاحظته، كما ذكر. فليس له أن يعمل شيخاً له لأن ذلك غش منه لنفسه وللأمير.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: يجب على الشيخ إذا صحب أميراً ورآه لا خلاص له في ولايته التي هو فيها أن يتوجه إلى الله تعالى في عزله منها محبة فيه ووفاء بحقه. وإن رآه يطلب وظيفة لا خلاص له فيها، كذلك سأل الله تعالى في تعسيرها. كما أن الوفاء بحق من يطلب الحسبة والقضاء ومشيخة العرب والكشف أن يتوجه إلى الله تعالى في تعسير وصوله إليها وحيلولته بينه وبينها. ولو أن ذلك القاضي أو المحتسب رفع ذيل الفقير على رأسه وقال: إن توليت في هذه الوظيفة عدلت في الرعية وفعلت فيها خيراً كثيراً، فلا ينبغي الشيخ تصديقه كونه أعمى عن الآفات التي في تلك الوظيفة لحجابه عنها بالمحبة فيها. وما كل ما يتمنى المرء يدركه، وإذا كان الشارع نهى عن طلب (١٥٥أ) الإمارة، فكذلك يكون النهي لمن يساعده فيها. وقد تقدم أن مساعدتنا لمن يطلب منا المساعدة في تحصيل وظيفة لا خلاص له فيها هو ترك مساعدتنا له،

وأنه لا ينبغي الالتفات إلى تكدره مع عدم مساعدته، لأنه إن تكدر من ذلك في الدنيا، فسوف ينشرح لذلك في الآخرة ويمدحنا على عدم مساعدته حين يرى ما يقع له من الخزي في ذلك اليوم. وقد ورد في الإمارة أن: أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزي يوم القيامة، انتهى.

وقد قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعن وأيسوا من حياته: استخلف ولدك عبد الله. فقال: يكفي واحد من آل الخطاب يأتي يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، ولم يستخلفه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به إذا صحبتم أحد من الأمراء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدكم مع الأمير أيضاً أن لا يمدح نفسه بحضرة الأمير أبداً بل يسكت عن بيان فضائله كلها حتى يزكيه الأمير بما يراه منه من الأعمال الصالحة. وقد أهمل هذا الأمر جماعة، فزكوا أنفسهم بالأقوال عند الأمراء وتخلفوا في الأعمال، فافتضحوا عندهم وصارت أفعالهم تكذب دعواهم.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تصفوا أنفسكم بالزهد والورع إذا صحبتم أميراً (١٥٥ب) ثم تقبلوا هديته وتأكلوا من سماطه، فإن ذلك مكذب لدعواكم، انتهى. قد فعلت أنا بحمد الله تعالى بهذا الخلق مراراً. وأتوني مرة بذهب من الباشاة إسكندر وقالوا: هذا مال قد خرج عنه للصلحاء والزهاد بمصر. فقلت له: إن من يقبل هذا يخرج عن وصفه الصلاح والزهد قبل قبوله، فما أخذه إلا وهو فاقد شرط قبوله. فإن من كان زاهداً لا يقبل مثل هذا المال أبداً. ورددته عليهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً[٨٠] أن يشكر فضل الأمير إذا منعه من دخول بيته بعد أن كان قربه وصار يدخل على عياله بغير إذن على وجه التبرك به، لأن البيت إما أن يكون ملكاً للأمير عيناً أو يكون مالكاً لمنفعة، فله منع من شاء من دخوله. ومن تكدر من مثل ذلك فهو جاهل بالكتاب والسنة. قال تعالى ﴿وإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾[٨١] فكيف يجوز لمن يدعي المشيخة والصلاح أن يتكدر من شيء شهد الله تعالى فيه أنه أزكى له؟ وإنما الواجب عليه أن يشكر الله فضل الأمير الذي منعه من الإثم الذي كان يحصل له بالدخول بغير إذن. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تتكدروا من منع الأمير لكم من دخول بيته، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير (١٥٦أ) الذي دخل بلده أو القاضي متولياً من باب السلطان أن يذهب إلى السلام عليه، أو قدومه إذا رآه متلفتاً لسلامه عليه فضلاً عن كونه عازماً على زيارته ويقول له: أنستم بلادنا والله تعالى يجعل على يديكم الخير لهذه الرعية. فإن لم يكن ذلك الأمير مثلاً متلفتاً إلى سلامه ولا عازماً على زيارته، فترك السلام عليه أولى عملاً بقول السلف الصالح رضي الله عنهم: لا تتعرف إلى من لا يعرفك، وانكر معرفة من يعرفك، انتهى. قد فعلت بهذا الخلق مرات فأسلم على الباشاة أو القاضي إذا دخل مصر أول قدومه. إذا كان قد سمع باسمي ويلتفت إلى رؤيتي، فأذهب إليه عند الغروب، وأستأذن عليه وأقول للبواب: قل لمولانا فلان الذي كنت عازماً على زيارته، وقد أتاكم يزوركم. فأدخل له وأقبل يده وأخرج وإذا رسم لي بمال لا أقبله

[٨٠] «أيضاً» ساقط من ر.
[٨١] النور، ٢٨.

ولو كان حلالاً. وما ذم العلماء الدخول على الأمراء إلا في حق من يحبهم ويجتمع بهم الدنيا. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يحميه ممن يؤذيه من الأعداء. فإن من مرتبة الشيخ أن يحمي كل من استند إليه ممن يؤذيه بغير حق ويحميه بملاحظته له عن الوقوع في المعاصي المعلقة على ملاحظته (١٥٦ب) له. ومن لم يكن له قدرة على مثل ذلك، فصحبته للأمير رعونة نفس.

وكان سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يحمي كل أمير استند إليه من جميع الآفات ويقول: الأمير في حجر حماية الفقير كولد اللبوة في حجرها، فهي لا تمكن أحد يغتال ولدها من حضنها أبداً، بل تفترسه لو أراد ذلك فكذلك الولي. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه. وإن لم تقدروا على حماية أميركم من الآفات، فلا تدخلوا في صحبته، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً أن يمرض لمرض أميره ويشفى لشفاء أميره ويحزن لحزن أميره ويفرح لفرحه ويهتم لهمه ويغتم لغمه، وهكذا في سائر أحواله بطريقه الشرعي لشدة ارتباطه به. ومن لم يعلم من نفسه القدرة على ما قلناه فليس له أن يصحب أميراً، خلاف ما عليه بعض النصابين الذين يأكلون طعام أميرهم ويقبلون هديته ولا يحملون له هماً. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه كما عملت به أنا مع أصحابي من الأمراء. فإذا أصاب أحد منهم هم أو غم لا أتهنأ بأكل ولا بشرب وأحس بجسمي كأنه محشو ناراً حتى يفرج الله تعالى عنه ذلك. كل ذلك وفاء بحقه لا لعلة أخرى، وهو مقام عزيز، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً (١٥٧أ) أن لا يغفل عن نصرته عملاً بحديث: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فإذا رأى عدو أميره أصلح للرعية كان معه على أميره بالقلب والقالب. ومتى مال[٨٢] بقلبه إلى مساعدة أميره الظالم ولو بمقدار ذرة، خرج عن طريق القوم لأن ميزانهم في طريق الصحبة يطيش على الذر. وربما تردد إليهم أميرهم حال خصامه لعدوه الذي هو أصلح منه، فظن بعض الناس أن الفقير من صف أميره لكثرة تردده إليه ولو كان أميره ظالماً، وهو ظن كاذب لأن من شرط الشيخ الزهد في الدنيا، والميل بالباطن إنما يكون ممن كان راغباً في الدنيا. فإياكم أيها الإخوان أن تظنوا في فقير أنه يتعصب مع أميره الذي يتردد إليه دون خصمه، فتسيئوا الأدب مع الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أن يقبل هداياه في الظاهر إذا اشتهر بردها واعتقده الناس بسبب ذلك من باب ظلم دون ظلم، فيتظاهر بأخذها ثم يصرفها إلى من يحل له مثلها من أصحاب الضرورات، كالفقير الصنائعي المديون[٨٣] المعيل الذي طلع عليه الحب الفرنجي مثلًا، وكالعميان والأرامل والأيتام. وهذا من أعظم أخلاق الرجال، ولا يقدر على فعله إلا من خرج عن مراعاة مقامه عند الخلق.

[٨٢] ر: قال.

[٨٣] ر: المذيون.

وسمعت سيدي علياً الخواص (١٥٧ب) رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للشيخ أن يرد هدية الأمير في الظاهر ويمسكها بالباطن. إذا علم أنها حلال يأخذها بطريق خفي خوفاً أن يتبعه أحد على ذلك. قال: ومن هنا قال سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله: ينبغي للشيخ إذا قبل هدايا الأمير أن يتوجه إلى الله تعالى في أن يحمي أقواله من الاقتداء به في الظاهر فقط، كأن يأخذون من تلك الهدية شيئاً لأنفسهم من غير حاجة ولا يصرفونها على المحاريج.

وكذلك كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: يجب على كل من يُقتدى به أن يرد هدايا الأمراء خوفاً من هدم ركن الورع، ولا عليه بمن ينسبه في ذلك إلي الرياء. ولا ينبغي له قبولها في الظاهر وصرفها إلي المحاريج في الباطن، لأنه ما كل أحد يعرف حاله حتى يتبعه فيه، ولأنه إن أظهر للناس ذلك حمدوه على ذلك أكثر من الرد، وإن أخفاه أهلك كل من اقتدى به من المحجوبين عن مقامه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن يتلطف به [في][٨٤] النصح فلا ينصحه بالعنف والتوبيخ بين الناس لأن ذلك ينفر خاطره من قبول النصح.

وقد سمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: يحتاج من ينصح الملوك (١٥٨أ) والأمراء إلى سياسة شديدة وعقل واحد وعلم واسع. ومن لم يكن كذلك فما يفسده أكثر مما يصلحه.

وقد دخل الأصمعي على هارون الرشيد مرة، فنصحه بين الناس وأغلظ عليه القول إظهاراً لمقام العلماء. فأخذه هارون بجانب وقال له في أذنه: يا أبا عبد الله إن كنت أعلم منا فنحن أعقل منك لا تنصحنا في ملأ ولا تغشنا في خلاء، انتهى. وإنما قال له: لا تنصحنا في ملأ [ولا تغشنا في خلاء][٨٥] خوفاً أن تزدريه العامة إذا سمعوا ذلك النصح، فإنه كالكشف لسؤته وبيان عوجه وفسقه الذي كان مستوراً عنهم. وإذا ازدروه فربما خرجوا عن طاعته اختياراً وصاروا يطيعونه خوفاً وطمعاً، ولا يخفى ما في ذلك. ولو أنه كان نصحه سراً لحصل النصح والزجر من غير ازدراء للأمير.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للأمير أن يلبس أفخر الثياب كالمحررات المباحة لكون ذلك أرهب في عين الرعية الذين ينظرون إلى ظاهر الدنيا. اللهم إلا أن تكون الرعية يعرفون مقامه في الدين والعلم والزهد في الدنيا، فلا حرج عليه في لبس المرقعات لحجابهم بشهود صلاحه وزهده عن شهود نقائصه، فيعظمونه كما يعظمون الأولياء، وتكون المرقعات في حقه أعظم هيبة من لبس المحررات، (١٥٨ب) كما كان عليه أمراء الصحابة والتابعين وغيرهم كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز والسلطان صلاح الدين بن أيوب، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان وانصحوا أميركم بأدب، والحمد لله رب العالمين.

[٨٤] زيادة من هامش أ.

[٨٥] ما بين المعقوفتين زيادة من ر.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً أن لا يدعي الصلاح ويوهم الأمير أنه من أهل الكشف، لأن ذلك معدود من سخافة العقل. فإنه إذا أوهم الأمير ذلك، صار[٨٦] يطالبه بالمكاشفات والكرامات ولو في الباطن. ولو أنه كان لم يدع مقاماً عند الأمير، لاستراح من مثل ذلك. وقد قالوا كل مدع ممتحن.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لعبد أن يدعي أنه من الصالحين إلا بعد مجاوزة الصراط ودخوله الجنة. وأما قبل ذلك فربما افتضح إذا وقع في النار.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تدعوا الصلاح إذا صحبتم أحداً من العلماء والأمراء وغيرهم خوفاً من الفضيحة يوم القيامة. فقد ورد أن الملائكة والخلائق يجتمعون على بعض المرائين بأعمالهم في الدنيا يوم القيامة ويقولون له إذا اطلعوا على مساوئه: أف عليك من عبد أبكل هذه المعاصي كنت تجاهر ربك وتظهر للناس الصلاح؟ فيسقط لحم وجهه من الخجل، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا توهموا (١٥٩أ) أحداً أنكم من الصالحين، إلا إن كان أحدكم لم يقع في ذنب من حين وعى على نفسه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الأمير أيضاً إذا كان صحيح الكشف عن الأمور المستقبلة أن يتظاهر بالغلط في الكشف خوفاً من وقوع الفتنة، فإنه ليس عند الأمراء أحد أعظم ممن صح كشفه عندهم. وقد تقدم في هذا الكتاب قول سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى: من أدب الأولياء أن يتظاهر أحدهم بالغلط في كشفه إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر، لأن في ذلك الزمان تستتر الأولياء لما يقع فيه من الشدائد والأهوال والجور والظلم. وإذا اعتقدوا ولاية فقير أو عظموه ازدحم الناس على بابه وكلفوه أن يدفع عنهم البلايا والمحن والظلم والجور الواقع عليهم بسوء أعمالهم، فيصير الولي في حيرة، فلا يمكن الرعية أن تتوب من سائر المعاصي حتى لا يسلط الله عليهم الولاة ولا يمكن الولاة أن ترجع عن ظلمهم وجورهم في الظاهر عقوبة لهم.

وقد سمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لولي الظهور إلا لأحد شيئين، إما ليرشد الناس إلى طريق القوم، وإما ليقبل الولاة شفاعته في المظلومين، وهذان الأمران قد عز وجودهما، فما بقي لظهور الولي فائدة، بل ربما قتله أصحاب النوبة بالحال كما وقع لبعض إخواننا، انتهى. (١٥٩ب) ولما تردد الأمير حسن بن بغداد إلي واعتقدني وانقطع عبد الله عني وأنكر علي، أشاع بعض الأعداء عني أنني قلت: إن عبد الله يشنق يوم كذا ويتولى حسن البلاد. وامتلأت مصر وقراها بذلك، فلا تسأل يا أخي ما وقع فيه الناس من الوقيعة في عرضي. فحمدت الله تعالى الذي لم يكن ذلك وقع مني. فإنه لو صح ذلك لخضع لي كل أمير في مصر وربما سعى أصحاب النوبة في قتلي بالحال.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كونوا من أصحاب الحال فلا تكونوا من أصحاب القال. فقلت له: من أصحاب الحال؟ فقال: الذين يرون كل شيء يقع في مستقبل الزمان إلى قيام الساعة ولا يتكلم أحدهم بذلك. وصاحب القال هو الذي يقول: رأيت [ربي][٨٧] كذا أو يقع في الوقت الفلاني كذا. وسمعته

[٨٦] «صار» ساقط من ر.
[٨٧] زيادة من هامش أ.

يقول: وعزة الله هؤلاء الذين يتكلمون على الذات والصفات كابن الفارض وأضرابه لم يعط أحدهم من أسرار الله ما يغطي[٨٨] شارب ناموسة، لأن صاحب سر الله لا يفشيه بين المحجوبين ولو نشر[٨٩] بالمناشير، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إذا أخطأتم في كشفكم فاشكروا الله تعالى أكثر مما تشكرونه إذا أصاب كشفكم لما في الإصابة من التميز عن الإخوان وقيام الجاه في قلوب الولاة وغيرهم. وقد قالوا: ظهور كرامة الفقير في هذه[٩٠] الدار لغير غرض (١٦٠أ) شرعي بمثابة كشف عورته[٩١] للناس وإخفاء الكرامة بمثابة ستر عورته عنهم. وتقدم في الكتاب أنه يجب على الولي أن يتوب على الفور إذا اطلع على عيب أحد من طريق كشفه، لأن ذلك عندهم كشف شيطاني، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به إذا عملتم مشايخ قبل خروج الدجال، والحمد لله رب العالمين.

هذا ما حضرني الآن من أخلاق العالم مع الأمير. وأما أخلاق الأمير مع الشيخ فهي كثيرة، ولكن نذكر للإخوان منها جملة صالحة تنبه على ما سواها.

فمن أخلاقه مع الشيخ أن يعظمه كما يعظم السلطان بل أعظم، لأن الشيخ أعلى همة من غالب الملوك لكونه زهد في الدنيا التي رغبت فيها الملوك. وقد قال ﷺ: الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له يجمعها من لا عقل له، انتهى. والسلطان يحب جمعها بلا شك رغبة فيها ومحبة لذاتها. وما خرج عن ذلك إلا الملوك العادلون وقليل ما هم.

وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه: ولو أوصى رجل بوصية لأعقل الناس صرفت للزهاد في الدنيا، انتهى. فكل أمير لا يعظم الشيخ كما يعظم السلطان، فقد أخل[٩٢] بواجب حقه، ويا طول تعبه في تردده إلى الشيخ من غير فائدة، (١٦٠ب) فإن الشيخ لا يقدر يقضي له حاجة عند الله تعالى وهو مستهين بجنابه أي الشيخ أبداً، لأن المدار على شدة اعتقاد المتوجه إلى الشيخ لا على الشيخ في رؤية عظمته في نفسه عند الله. فإن مقام الأدب يمنع الشيخ أن يرى نفسه مساوية لأحد من المسلمين في الصلاح، فضلاً عن رؤية كونه أعلا مقاماً منه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: رواج أمر الأمير على يد الشيخ يكون بحسب قوة اعتقاده فيه وضعفها، فإن الفقراء على الأخلاق الإلهية. وقد ورد: من أراد أن يعرف مرتبته عند الله تعالى، فلينظر كيف مرتبة الحق تعالى عنده، الحديث. زاد في رواية: فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله من نفسه، أي فإن كان مقام الشيخ في قلب الأمير عظيماً، كان قضاء حاجته سريعاً وبالعكس.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: يجب على الأمير إذا صحب شيخاً أن يدخل تحت حكمه وتصريفه كما يفعل المريد، فلا يتحرك لا يسكن في أمر مهم إلا بعد مشاورته فيه وإذنه له بالفعل أو بالترك. وسمعته

[٨٨] ر: يعطي.
[٨٩] أ: نشرت.
[٩٠] أ ر: هذا.
[٩١] أ: سوءته، والتصويب من الهامش.
[٩٢] ر: أخذ.

يقول: لا ينبغي للأمير أن يعزم على الشيخ أن يأكل من طعامه أو يشم من ريحانه أو طيبه ونحو ذلك، ويقول له: يا سيدي اجبر بخاطري. فإن في ذلك تحكماً على الشيخ مع ما في طعام الأمراء من غلبته الشبهة. (١٦١أ) بل لو قدر أن الشيخ طلب أن يأكل من طعام الأمير، وجب على الأمير منعه منه بالأدب ويقول: يا سيدي إني أغار عليك أن تأكل من طعامي، لكون ذلك يضركم ويضرني. أما كونه يضركم فلنزول مقام كسبي عن مقام كسبكم في الحل. وأما كونه يضرني فلكونه يوقف دعائكم لي عن الإجابة، انتهى. ومما وقع لي أن محمد بن بغداد أعطاني عود تمر حناء فشممته، فقسا قلبي وصار في حجاب عن دخول حضرة ربه حتى في الصلاة. فعلمت أن شم ريحان الولاة كالأكل من طعامهم على حد سواء. فاعلموا ذلك أيها الإخوان الأمراء واحفظوا مقام كل من صحبتموه من الفقراء الصادقين الذين لا يأكلون لكم طعاماً ولا يقبلون لكم هدية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الشيخ[٩٣] أيضاً أن لا يطالب الشيخ بقضاء حاجته، وأنه يعوده إذا مرض أو عزل مثلاً، إلا إن كانت سريرته مع الشيخ مثل علانيته في الاعتقاد، وأن لا يكون مرتكباً ذنباً من الذنوب. ومتى طالب الشيخ بقضاء حاجته وحمله حملته مع مخالفة سريرته لعلانيته فيما ذكر، فقد كلف الشيخ شططاً وأساء الأدب معه.

وسمعت سيدي علياً المرصفي يقول: كل من ادعى صحة اعتقاده في شيخ ثم أصابه شيء من الآفات، (١٦١ب) فهو غير صادق، لأن مقام الشيخ دائماً الجلوس في حضرة الله تعالى وأهل الحضرة لا ينزل عليهم بلاء ما داموا فيها، فكذلك من تعلق بهم من المعتقدين. وإن قدر أن أحداً من أهل الحضرة نزل عليه بلاء فإنما ذلك بعد خروجه من الحضرة وإسدال الحجاب بينه وبينها فافهم. وسمعته يقول: مراقبة الله تعالى مع الأنفاس، ودوام شهود العبد أنه بين يدي الله تعالى، وأنه يراه تعالى لا يتحلل ذلك حجاب ليس من مقدور البشر غالباً، وإنما ذلك من شأن الملائكة، انتهى.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله تعالى يقول: لا ينزل بلاء على من كان من جماعة أحد من الأولياء إلا بعد انقطاع الوصلة بينه وبين شيخه، كأن يتردد في اعتقاده فيه ويقول: يا ترى هل هذا من أولياء الله تعالى الذين يجيب دعائهم أم لا؟ فليفتش الأمير نفسه في صحة اعتقاده في الشيخ، ثم يطالبه بعد ذلك بأن يأخذ بيده في الشدائد، وإلا فلا يقدر الشيخ يأخذ بيده، ولو كان هو القطب الغوث لعدم استحقاق الأمير ذلك. وسمعته يقول: ليس كل أمير إلا وحوله جماعة ينكرون على شيخه وينفونه من الولاية، فليحذر الأمير الناصح لنفسه من مثل ذلك، ويطرد كل من أنكر على شيخه بقلبه وقالبه. وإلا أتلف حاله فلا هو يقدر على تحمل (١٦٢أ) حملة الأمير، ولا هو أبقى عليه اعتقاده فيمن يحمل حملته، فلا جزاه الله من صاحب خيراً. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الشيخ أن لا يطالبه بدوامه في ولايته إلا بعد تحرير نيته على أن يأخذ بيد المظلومين ويخفف عنهم المظالم حسب طاقته إكراماً لمن هم من أمته ﷺ. ومتى نوى بولايته التبسط في الدنيا من مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومركب ونحو ذلك، ثم طالب الشيخ بدوام تلك الولاية عليه، فقد أخطأ. بل من

[٩٣] ر: الأمير.

شأن الشيخ أن يكون من أول المتوجهين إلى الله تعالى في عزله، أو في حيلولته[٩٤] بينه وبين تلك الوظيفة إن كان يطلب أن يتولى فيها، كما مرت الإشارة إليه في أخلاق الفقير مع الأمير.

و كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يأمر من طلب منه المساعدة في توليته وظيفة من الوظائف التي فيها حكم على الرعية بأن ينوي نية جازمة، إنما إذا تولى يخفف المظالم عن رعيته حسب طاقته ويحفظ دمائهم وأموالهم وحريمهم ممن يتعرض لهم بغير طريق شرعي، وأن لا يأخذ رشوة على الأحكام إن كان قاضياً ولا جعالة على قضاء حوائج الناس إن كان أميراً. قال: ومن علامة صدق نيته في ذلك أن يمشي الله تعالى له ما نواه ويجعل (١٦٢ب) الولاة الذين هم فوقه طوعاً له. وسمعته يقول: من طلب من الأمراء مساعدة الفقراء له في توليه وظيفة، فليخلص النية فيها لمصالح العباد. ومتى نوى بها تحصيل المال وتنفيد الغضب في الأعداء وأخذ الثأر، فليس لفقير أن يساعده بوجه من الوجوه، كما هو الغالب من حال الكشاف ومشايخ العرب.

وفي وصية الخضر عليه السلام لعمر بن عبد العزيز لما سأله أن يوصيه بوصية: إياك يا عمر أن تمد يدك إلى ما في أيدي رعيتك بغير حق أو تكون لك سريرة تفتضح بها. فإن من كان كذلك نزع الله هيبته من قلوب الرعية وبغى بعضهم على بعض. فقال: يا نبي الله زدني، فقال: إياك أن تنفد[٩٥] غضبك فيمن قدرك الله عليه ممن هو دونك من أعدائك، فيقيض الله لك من ينفد[٩٦] غضبه فيك من أعدائك الذين هم فوقك، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه واصحبوا الفقير لله تعالى لا للدنيا. فإن الفقير لا يختار لأصحابه إلا ما اختاره لنفسه من التقلل من الدنيا إلى الغاية. وإن كان ولا بد لكم من طلب الدنيا، فاجعلوا صحبته للآخرة أصلاً وصحبته للدنيا فرعاً. فإن من طلب من الشيخ الدنيا فاتته الدنيا والآخرة، ومن طلب منه الآخرة والنصح أتته الدنيا والآخرة، كما جرب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الشيخ أيضاً (١٦٣أ) أن يرى اجتماعه عليه كافياً له عن كل شيخ في بلده أو إقليمه، لا التفات له إلى الاجتماع بغيره من الأشياخ، ولو كان هو القطب الغوث. فما كل قطب يكون عنده تلك الحاجة التي يطلبها ذلك الأمير، كما هو مشهود في دولة أهل الظاهر من الولاة.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من أراد من الأمراء أن يصحب فقيراً، فلينسخ عقله ولا يخرج عن إشارة شيخه، حتى لو قال له: اجتمع بفلان فإنه أعلى مقاماً مني، صار يرى ذلك الفلان أرجح من شيخه في الحال من غير تفكر. وكان يقول: متى طاحت نفس الأمير إلى الاجتماع بغير شيخه، عدم النفع به ووجب عليه تجديد الصحبة، كما يفعل المريدون مع أشياخهم. وسمعته يقول: من أراد من فقير أن يأخذ بيده في الشدائد ولا يتخلف عنه في شيء منها، فليقبل على الاعتقاد فيه بأنه أرجح من غيره من أقرانه الأحياء والأموات، ثم بعد ذلك يطالبه بالوفاء بحق صحبته والأخذ بيده. قال: وذلك أن الفقراء على الأخلاق الإلهية درجوا، فكما

[٩٤] ر: حيلوته.
[٩٥] ر: تنفذ.
[٩٦] ر: ينفذ.

أن الحق تعالى لا يغفر أن يشرك، فكذلك الشيخ لا يسامح مريده في استناده إلى غيره لضعف توجهه حينئذ إليه وتبدد اعتقاده بين شيخه وغيره، فلا تُقضى له حاجة على يد واحد منهما. وإيضاح ذلك أن الشيخين، إن كانا صادقين رفضه قلب كل واحد منهما، وإن (١٦٣ب) كانا كاذبين فلا يقدران على قضاء حاجته لانقطاع الوصلة بينهما وبين حضرة الحق جل وعلا، وإن كان أحدهما صادقاً فهو لا يرضى من الأمير أن يجعله في المقام كالكاذب، فعدم النفع به أي بالصادق لضعف اعتقاده فيه. فإذن لا فائدة فيما زاد على شيخ واحد، عكس حال أهل الأمر الظاهر غالباً. فإن كثرة المساعدة من الناس لصاحب الحاجة قد تكون أسرع في قضاء حاجته، بشرط حصول الصفاء بينهم. وإلا فربما عارض بعضهم بعضاً في قضائها، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم الأمير الذي استند إليكم يزور أحداً من المشايخ الأحياء والأموات، فانفضوا أيديكم منه، لاسيما والمشايخ الذين ماتوا قد صارت وجوههم إلى الآخرة، واشتغلوا بأنفسهم وعملوا ظهورهم لأهل الدنيا، فما عليهم منهم إن ماتوا أو عاشوا وتولوا أو عزلوا، انتهى.

وكان رحمه الله تعالى إذا صحبه أمير يتردد إلى غيره يقول له: يا أخي اختر لنفسك في الصحبة أنا أو فلان. فقلت له يوماً: إنه ربما يفهم منكم الغيرة على مزاحمة غيركم عليه، فيسيء الظن بكم. فقال: أنا أقول له الحق، فإن شاء فليسمع، وإن شاء لا يسمع. قال: وفي كلام أهل الطريق كما أن العالم لا يصح أن يكون بين إلهين، ولا المرأة بين زوجين، ولا للرجل قلبان، كذلك المريد لا يكون بين (١٦٤أ) شيخين، انتهى. وقد بسطت الكلام على ذلك في الباب الثاني من كتاب إرشاد العلماء والفقراء إلى صحبة الأمراء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يتكدر من الفقير إذا تنكر عليه، وصار يخرج له الكسرة اليابسة والملح بعد أن كان يخرج له إذا زاره أطايب الطعام، لأن الفقير ربما فعل ذلك اختباراً وامتحاناً للأمير لينظر أدبه معه. وقد فعلت بحمد الله تعالى بهذا الخلق مرات مع بني بغداد وغيرهم، حتى أني وضعت لمحمد بن بغداد عسلاً على بلاط القاعة وقلت له: كل كما يأكل الفقراء والمساكين. فأكل منه برغيف وهو في غاية الانشراح رحمه الله تعالى. ويكون على علم الإخوان أن الأمراء في غناء عن طعام الفقراء، وإنما يأكلون منه على سبيل التبرك. فمن تكلف لهم فقد أخطأ طريق القوم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أن يكون صادقاً في محبته لا يصرفه عنه صارف[٩٧] ولا ترده عنه السيوف والمتالف لشدة ارتباطه به. ومتى وجد إبليس أو غيره من الأعداء محلاً يدخل عليه شبهة في عدم اعتقاده فيه، فهو غير صادق في محبة الفقير، لأن إبليس أو غيره لا يوسوس للأمير بقلة الاعتقاد في الشيخ، إلا إذا رأى قلة ارتباطه به. فإنه يعلم أنه متى قرب من الأمير حال ارتباطه (١٦٤ب) بالشيخ احترق من نور حضرة الشيخ، كما هو معروف بين الفقراء الصادقين.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: متى دخل على الأمير من يغير اعتقاده في شيخه، فهو غير صادق في الاعتقاد فيه، إذ لو كان صادقاً في ذلك، لدفع عن نفسه كل عدو لشيخه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء

٩٧ ر: صادق.

واعرضوا ما قلناه على أنفسكم تعرفوا صدقكم أو كذبكم في محبة شيخكم. فقد أجمع القوم على أن من علامة كمال اعتقاد الأمير في الفقير أن يصل إلى كل ولاية طلبها مما تصلح له بغير برطيل، فيقوم أهل إقليمه مثلاً كلهم على ساق ويقولون لولي الأمير: ما نرضى إلا بولاية فلان، فلا يحتاج مع ذلك إلى كبير برطيل. وإن وقع أنه غرم مالاً في طريق ولايته مع صحة اعتقاده، فإنما ذلك لكون رعيته لا يستحقونه، فيكون وزن المال كالمنفر له عن تلك الولاية لعدم استحقاق رعيته له. وسمعته رضي الله عنه يقول لفقير: إن أردت أن تعرف كثرة اعتقاد أميرك فيك أو قلة اعتقاده، فانظر إلى المال الذي يبرطل الولاة به في الوصول إلى ولايته. فإن رأيته شيئاً قليلاً فهو كثير الاعتقاد، وإن رأيته شيئاً كثيراً فهو قليل الاعتقاد، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أن لا يقول له بلسانه: يا سيدي ساعدوني في هذه الولاية، (١٦٥أ) فإني والله ثم والله ثم والله ليس قصدي بها التوسع في الدنيا وإنما قصدي بها الأخذ بيد المظلومين، وتخفيف المظالم التي أحدثها غيري عليهم، وأقنع باللقمة والخلقة ونحو ذلك، وهو في الباطن بخلاف ذلك. فإن الفقير ربما مقته لنفاقه معه لأنه لا يأخذ من الناس إلا قلوبهم بشرط موافقة لسانهم لما في قلوبهم. وهذا يقع فيه الأمراء كثيراً،[98] فيحلفون للفقير الساذج أن مقصودهم بالولاية الخير والمعروف دون محبة الدنيا ليميلوا خاطره إلى مساعدتهم في تلك الولاية. ولو أنه كان حاذقاً لقاس كلامه يعني الأمير على مقامه، فعرف أنه كاذب أو ملبس عليه لأن طلب الولاية لدار الآخرة مثلاً دون الدنيا لا تكون إلا لمن فطم عن الدنيا وشهواتها بجذب إلهي أو بسلوك في زمن طويل. بل ربما لم يصل أحدهم بالسلوك إلى مقام الزهد في الدنيا كما رأيته بعيني، فادعى فقيه على شيخ يلقن الذكر ويأخذ العهد في مصر عند قاضي العسكر أنه كان بينهم نظر وقف أثلاثاً وكل من توفي يكون النظر فيه لمن بقي، ومعلوم النظر على هذا الوقف في كل شهر ثلاثة عثامنة. فمات أحدهم، فسبق هذا الشيخ وأخذ العثماني كله لنفسه دون شرط الواقف. فقال له رفيقه: إنما لك شرط الواقف ثلاثة نقرة فقط. (١٦٥ب) فتخاصما إلى قاضي العسكر لأجل ثلاثة نقرة كل شهر. هذا الأمر رأيته، فكيف ينبغي لفقير أن يصدق أميراً يحب الدنيا، ولم يحصل له جذب إلهي[99] ولا سلوك على يد شيخ، في أنه يطلب الولاية للآخرة دون الدنيا. هذا أبعد من البعيد. فاعلموا ذلك أيها الإخوان من الأمراء وحرروا نيتكم الصالحة في الولاية التي تطلبونها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الشيخ أن لا يدعوه قط إلى حضور وليمته التي يجتمع عنده فيها أكابر الناس من العملاء والأمراء الذين لا يتورعون عن الأكل من تلك الوليمة أدباً[100] مع الشيخ، لأنه إن امتنع من الأكل بحضرة الملأ العام، حصل له التميز بالورع وتحركت نفوس الأقران، وحملوه على الرياء، وحصل لأميره غاية الخجل بين الناس بجعل طعامه حراماً أو شبهة. وإن أكل من ذلك أطفأ نور ورعه، وضر نفسه وأميره بعدم إجابة دعائه في حقه، وفتح باب غيبة الناس له.

[98] ر: الفقراء.
[99] ر: الإلهي
[100] «أدباً» ساقط من ر.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من الواجب على الأمير أن لا يدعوا شيخه إلى وليمته. وإن قدر أنه حضر ولم يأكل أجاب عنه وقال: سيدي على نية. وإن دخل وقت الإفطار ولم يأكل قال: سيدي لا يأكل طعام الولائم لا عندي ولا عند غيري، ومدحه على تركه الأكل من طعامه. وليحذر من قوله للشيخ في ذلك (١٦٦أ) المحفل العظيم: يا سيدي اجبروا بخاطري وكلوا ولو لقمة، فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: إياكم والأكل من طعام الأمراء، فإنه معجون من دماء الفقراء. وإذا كان طعام الأمراء معجوناً بذلك، فطعام الملوك معجون بماذا؟ فقال له سيدي علي الخواص رحمه لله يوماً: ما العلة في ذلك؟ فقال: إن الشبهة في طعام الولاة تعظم بعظم الهيبة والسلطان، فيصير[١٠١] جماعته يسخرون الناس في الحرث والحصاد والدراس[١٠٢] وغير ذلك، فلا يستطيع أحد أن يمتنع من ذلك خوفاً على نفسه من الضرب والقتل، كما هو مشاهد في بلاد الكشاف ومشايخ العرب. فكل فقير أكل من مثل ذلك الخبز، فسد قلبه وبطل عمله، كما يبطل عمل الطاحون ودورانها إذا فسد قلبها.

وكان سيدي محمد بن عنان إذا دعاه أحد من الأمراء إلى وليمة يأخذ معه في كده رغيفاً، فإذا أكل الناس من طعام الوليمة أكل هو من رغيفه. ويحكى أن سفيان الثوري كان يفعل[١٠٣] كذلك. فإذا لامه صاحب الطعام، قال له: أنت تعرف من أين طعامك، وأنا أعرف من أين طعامي، فكل واحد يأكل مما يعلم بحسب مقامه في الورع، انتهى. فإن قيل: إن بعض الأولياء الأكابر كان يأكل من طعام الأمراء أكلاً ذريعاً، بحيث أنه أكل سماط الأمير كله، فكيف الحال؟ (١٦٦ب) فقال: ربما يكون هذا من أرباب الأحوال، فيتناول كل الطعام إلى الأسرى الذين في بلاد الفرنج، والناس يظنون أنه يأكل ذلك، كما وقع لسيدي محمد الحنفي الشاذلي والشيخ محمد دمرداش.[١٠٤] فاعلموا ذلك وإياكم والمبادرة إلي الإنكار. فإنه ما ثم ولي حق له قدم الولاية المحمدية إلا وهو محفوظ من أكل الشبهات فضلاً عن الحرام، لعلمه باجتماع القوم على أن نور المعرفة لا يطفئ نور الورع لأن الله تعالى وإن كان خلق ما في السموات وما في الأرض لعباده، فقد حجر عليهم أكل الحرام والشبهات. وكل من أطفأ نور معرفته بما قلناه نور ورعه، فهو جاهل بالشرع.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كل أمير سأل فقيراً في الأكل من طعامه وأكل، فقد أساء في حق الفقير أولاً وفي حق نفسه ثانياً وفي حق الشرع ثالثاً وفي حق من تبعه على الأكل من ذلك رابعاً. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واحموا شيخكم من أكل طعام الولائم وكل طعام المشرع عليه اعتراض، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يحذر من تغير خاطره عليه، ولا يصاحبه إلا بالأدب والطهارة من سائر الفواحش الظاهرة والباطنة، وإلا فربما عطبه بإذن الله تعالى بمرض شديد لا ينفع فيه طبيب. وفي كلام سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى: من قدر على مضاجعة الثعبان في وكره، فهو الذي يقدر على (١٦٧أ)

[١٠١] ر: فيصيرون.
[١٠٢] أ: دياس.
[١٠٣] أ ر: يفل.
[١٠٤] أ ر: دمراش.

صحبة الفقراء، فإن الفقير الصادق كالثعبان كل من لسعه ذوب جسمه. وكان يقول كثيراً: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم، فاحذروه ولا تجالسوه إلا بالأدب. فإن الفقراء كالملوك يسامحون بأكثر من الكثير ويؤاخذون بأقل من القليل لأن قلوبهم بيد الله عز وجل. وفي رواية أخرى عنه: الفقراء لا يحبون من أصحابهم إلا الاستقامة في الأعمال والأحوال، وحكم من يخالطهم حكم من يشرب الماء من الوعاء الذي يشرب منه الثعابين أيام الصيف. فكما أن الغالب على من يشرب مع الثعبان الهلاك، فكذلك الذي خالط الفقراء على غير استقامة.

وكان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول: الناجي من صحبة الفقراء قليل، وأكثر الناس هلك لأنهم يبينون للناس طريق الهدى، ثم يخالفون ذلك إلى طريق الضلال بعد بيان.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالى يقول: قل أمير يصحب فقيراً ويخالف إشاراته، إلا ويغضب الله تعالى عليه، وينزل عليه البلايا والآفات في دينه وبدنه وماله وأولاده، فالعاقل من بعد عن الفقراء جهده، انتهى، فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يكون دائم الاعتقاد فيه، لا يصغى إلى قول عدو ولا حاسد (١٦٧ب) فيه. وإذا قدر أنه صغي إلى قولها أو تغير اعتقاده، فمن الواجب عليه أن يخبر الشيخ بذلك ليبني على ذلك مقتضاه من طرده عن صحبته أو تجديد العهد عليه. ومن سكت على ذلك، فقد غش نفسه وغش شيخه، وصارت صحبته للشيخ نفاقاً، فهي إلى الضرر أقرب.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: إذا تغير اعتقاد الأمير فيكم وأردتم طرده عنكم، فاطردوه بسياسة[١٠٥] ولطف، كأن تحسنوا اعتقاده في شخص من أقرانكم كل التحسين، وترشدوه إلى صحبته وفاء بحق الصحبة. وإن ذهبتم مع الأمير إلى ذلك الشيخ وقبلتم رجله بحضرة الأمير كان أفضل، لأن الفقير الصادق دار مع مصالح الناس لا مع حظ نفسه، انتهى. وقد فعلت أنا بذلك مع الأمير محي الدين بن أبي إصبع، وكان من أشد المعتقدين في، فجمعته على بعض الأقران فاشتغل به ونسيني كأنه لم يعرفني. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، ولا تستحوا من قولكم للشيخ: إن اعتقادنا فيك قد تغير، فإن ذلك غش لكم وله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أن يرفع مقامه على مقام غيره من النصابين الذين ليس فيهم مدد ولا يتورعون عن أكل طعام الظلمة والمكاسين، وإن راج أمرهم عند المحجوبين من جملة الأمراء والمباشرين. فإن الصادق إذا رأى الأمير قد (١٦٨أ) سوى بينه وبين ذلك النصاب، نفض يده منه وما بقي بينه وبينه رابطة. فإن قلت: فمن أين يعرف الصادق من النصاب؟ قلنا: تعرف الصادق بشدة تورعه وتعففه عن أموال الأمراء، فلا يأكل لهم طعاماً ولا يقبل لهم هدية طول عمره. ومع ذلك فهو حمال لهمومهم وغمومهم ويحزن لحزنهم ويهتم لهمهم، لا يريد منهم على ذلك جزاء[١٠٦] ولا شكوراً في الدنيا والآخرة. وبتقدير أن الأمير يرسل إليه هدية بلا سؤال

١٠٥ أ ر: سايسة.
١٠٦ أ: إجزاء.

يردها عليه. لو قال له: أنا خاطري بها طيب، يقول للأمير: أنا خاطري بها ما هو طيب، عكس حال النصاب الذي يأكل طعام الأمير ويأكل هداياه، وإذا أصاب أميره هم أو غم أو عزل أو حبس أو ضرب، صار يضحك ويأكل ويشرب ويتفرج في البحر والبساتين، وقلبه فارغ من أميره كأنه لم يعرفه. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعرفوا صفات الصادقين والنصابين وأعطوا كل ذي حق حقه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يكتمه شيئاً من مال الولاية الذي اكتسبه منها على حسن جاه الولاية، بل يخبره بكل ما اكتسبه من الحلال والبلص والجرائم وغير ذلك، ليدعو له فيه بالبركة إن كان حلالاً أو يأمره بالتوبة ورده إلى أهله وإباته إن كان حراماً، وإن لم يعرف أعيانهم رده إلى خزانة السلطان كالمال (١٦٨ب) الضائع، وعليه تبعته يوم القيامة. وهذا الخلق قد صار عزيزاً في الأمراء فلا يكاد أحدهم يسمح بذكر ما زاد من ماله بسبب ولايته لفقير أبداً، وذلك دليل على عدم صدقه مع الفقير. وقد قلت مرة لمحمد بن بغداد: إذ ما قدر مالك اليوم؟ فقال: أنا رجل فقير ليس عندي شيء من الدنيا. فقلت له: حقت الكلمة من الفقراء أن كل مال اكتسبه العامل بحسن جاه الولاية لا بد أن يأخذه جماعة السلطان إما طوعاً وإما كرهاً. فإن كان الأمر كذلك، فأخذوا منه بعد موته خمساً وعشرين جرة ملآنة ذهباً. ولكن كان في ضمن كتمانه عن مصلحة لي، وذلك أنه أودع ماله عند جماعات من أصحابه، ولم يودع عندي شيئاً خوفاً أن يكذب نفسه عندي حين كان قال: أنا رجل فقير فحصل لكل من كان أودع عنده شيئاً غاية الأذى حتى اعترف بما عنده من المال إلا أنا، فلم يحصل لي رائحة ضرر.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: يعرف ركون الفقير إلى الأمير بحصول الضرر له أو عدمه إذا عزل الأمير ونزلت به الآفات. فإن أصاب الفقير ضرر وادعى أنه يركن إليه، فلا تصدقوه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تكتموا عن شيخكم شيئاً من أمراضكم، فإنه كالطبيب. ومن كتم مرضه عن طبيبه، فاته التداوي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً[١٠٧] (١٦٩أ) أن لا يرى له فضلًا على الفقير إذا أكثر من التردد إلى زاويته، أو أرسل له هدية من عمائم أو ثياب أو نقود أو طعام ونحو ذلك، إذا كان من مذهب ذلك الفقير قبول هدايا الأمراء. بل يرى الفضل عليه للفقير الذي أجابه للصحبة، ودخل في تحمل تبعاته في الدنيا والآخرة، وتحمل همومه وغمومه، بل دخول النار مكانه إذا استوجب النار، كما مر في أخلاق الفقير مع الأمير. فكيف يليق بالأمير أن يرى له فضلاً على الفقير بإرساله شيئاً من البسلة[١٠٨] أو العدس إلى الزاوية مثلًا؟ بل لو قدر أن الأمير ملك الدنيا بحذافيرها، ثم أعطاها للفقير في نظير تحمله بلاياه وتبعاته، كانت كمقابلة الجواهر الثمينة بحصاة من التراب.

[١٠٧] «أيضاً» ساقط من ر.
[١٠٨] أ: لابسلة.

وكان[١٠٩] سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول للأمراء: اشكروا فضل الفقير الذي أجابكم إلى الصحبة وأعطاكم وقتاً من أوقاته التي كان يجلس فيها مع ربه عز وجل، فإن مقام الفقير مجالسة الله تعالى على الدوام، إلا ما تفضل الله تعالى به عليه من حجابه حال البراز والجماع مثلاً، انتهى.

وسمعت سيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لأمير أن يخطر بباله أن له فضلاً على الفقير بإرساله شيئاً من الهدايا إلى زاويته. إنما الواجب عليه أن يرى نفسه من جملة عيال الفقير، وأن (١٦٩ ب) جميع ما هو فيه إنما هو من صدقات شيخه عليه بواسطة نظره عليه وإمداده له، وذلك لأن الفقير بايعه بالروح، وأنه يفدي الأمير بروحه ويهلك نفسه لأجله. ومن يفعل مثل ذلك مع الأمير لا يقدر الأمير على مكافأته أبداً. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واشكروا فضل شيخكم عليكم، واشهدوا نفوسكم من جملة عياله. وإياكم من العكس، فإنه عكس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يخبره بتغير نيته الصالحة التي كان دخل ولايته بها من أنه لا يطلب الولاية للدنيا، وإنما يطلبها للدار الآخرة، من الأخذ بيد المظلومين وحماية أموال الناس وحريمهم ودمائهم وغير ذلك. ومتى تغيرت نيته ولم يخبر الشيخ بذلك، فقد نقض عهد الصحبة وغش نفسه وغش الشيخ وكانت ولايته زادا له إلى النار. ولو أنه كان صادقاً مع الفقير، لكان هو السائل للشيخ أن يدعو له بعزله من تلك الولاية، لما يرى لنفسه في عزله من الحظ والمصلحة.

وسمعت سيدي محمد المنير رحمه الله تعالى يقول: يجب على الأمير أن يصحب الفقير لأجل نصحه له، لا ليساعده على شيء من أغراضه الفاسدة، كتوليته شيء من الوظائف التي لا خلاص له فيها، بل يجب عليه أن يسأل الشيخ بالله عز وجل أنه يتوجه إلى الله تعالى في عزله، (١٧٠ أ) إذا عرف أنه لا يقدر يكف نفسه عن الظلم والجور، ويقول له: يا سيدي إن لم تتوجه إلى الله تعالى في عزله إذا ظلمت رعيتي، خاصمتك بين يدي الله عز وجل، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامة صحة اعتقاد الأمير للفقير أن يقول له: يا سيدي أسألك بالله عز وجل أن لا تساعدني في شيء من أغراضي إلا إن رأيت لي المصلحة فيه. وإذا سألتك أن تدعو على عدوي فادع[١١٠] له. وما صحبتك يا سيدي إلا لتنصحني في ديني لا غير. ومتى تأثر الأمير من الشيخ إذا سمعه يدعو لعدوه بالنصر عليه والتأييد له ودوام ولايته، فهو كاذب في دعواه الصدق في الصحبة. وسمعته يقول: لا ينبغي لأمير أن يسأل الفقير في مساعدته في شيء من الولايات التي لا خلاص له فيها، فإن الفقير لا يمكنه أن يجيبه إلى ما سأل، لكونه يرى القيامة وأهوالها وشدة محاسباتها وموازناتها، ويرى ما يقع لمن يتولى تلك الوظيفة في الدنيا إذا عزل منها، من ضربه بالمقارع والكسارات ودق البوص في أظافيره ووضع الخوذة المحماة على رأسه حتى يسيل دهن دماغه، والأمير أعمى عن رؤية ذلك كله، فكيف يجيبه إلى ما فيه

[١٠٩] ر: وسمعت.
[١١٠] أ: ادعوا.

هذا الضرر العظيم؟ انتهى. ولكن إن نوى الأمير خيراً في ولايته كان يترك جميع المظالم الهوائية التي أحدثها (١٧٠ب) غيره في تلك الوظيفة قبله، أو ينوي أن يقنع في ولايته باللقمة والخلقة التي لا يرضى بها غيره، وأنه لا يقابل أعوان الأمير الذي قبله بسوء ونحو ذلك، وجب على الفقير مساعدته، ولكن قل من ينوي ذلك. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تسألوا شيخكم أن يساعدكم في شيء من ولايات الظلم لا صريحاً ولا تعريضاً، بل اسألوه أن يعارضكم في ذلك، والحمد له رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يتكدر منه إذا سمعه يضحك في وجه عدو ذلك الأمير ويقول له: أنا معك بالمساعدة والنصرة، لأنا نقول أولاً إن الشيخ لا يدخل تحت حكم الأمير، وثانياً أن الشيخ ربما رأى في ذلك القول مصلحة لأميره ليصير يشفع فيه عند عدوه إذا سعى في أخذ منصبه وصار حاكماً عليه، ويكون مراده بقوله: أنا معك أي بالمساعدة على الحيلولة بينك وبين هذه الوظيفة التي تطلبها من ولايات الظلم من باب انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. لكن قل أمير في هذا الزمان يثبت في مثل هذا القول ويحمل الشيخ على الأغراض الصحيحة، بل غالبهم يحمل الشيخ على أحوال نفسه من العصبية والأغراض الفاسدة، لاسيما إن كان ذلك الأمير كثير التردد إليه دون أميره هو، وغاب عنه أن ميزان الفقراء الصادقين يطيش على الدر، فلو تردد إليهم أمير كذا كذا سنة، وهم يعلمون منه محبة (١٧١أ) الظلم والجور، لم يساعدوه في ذلك مقدار ذرة، بل هم مع عدوه الذي هو أصلح منه، كما مرت الإشارة إليه مراراً في الكتاب. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعرفوا مقام الأشياخ بأنهم قد ارتفعوا عن مقامكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن ينظر إلى أخلاقه الحسنة، فيتخلق بها من زهد وورع وعدم تنفيد غضبه في عدوه إذا قدر عليه ونحو ذلك. فكما أن الشيخ لا يفرح بهلاك عدوه، فكذلك ينبغي للأمير، وكما أن الشيخ يحزن على عزل عدوه وحبسه وضربه، فكذلك ينبغي للأمير، وكما يحتمل الشيخ الأذى ممن عرفه وممن لا يعرفه، فكذلك الأمير، وكما أن الشيخ لا يحب الدنيا ولا جمعها عنده من غير إنفاق في وجوه الخير، فكذلك ينبغي للأمير، وكما أن الشيخ يعفو ويصفح ويسامح أعدائه إذا قدر عليهم، فكذلك ينبغي للأمير. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، وإلا فاتتكم فوائد الصحبة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يسأله عن شيء من الحوادث المستقبلة كتولية أحد أو عزله أو موته ونحو ذلك، فإن سؤاله عن مثل ذلك سوء أدب معه لما فيه من طلب إفشائه أسرار الله تعالى، وربما مقت الله الأمير وعزله عن ولايته. قال الله تعالى ﴿يَا أَيهَا الذِينَ آمِنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء إِنْ (١٧١ب) تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.[111]

وقد كان سيدي علي الخواص يقول: لا ينبغي لجماعة الفقير أن يشيعوا عنه في البلد ما سبق به لسانه من الكشف كموت أحد أو عزله طلباً لتقديمه بذلك على الأقران، فإن في ذلك ضرراً شديداً عليه. بل يجب عليهم كتمان ذلك حتى يقع ما أخبر به ويظهر للخاص والعام، انتهى.

[111] المائدة، ١٠١.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله إذا سئل عن ولاية أحد أو موته يقول: الله أعلم بذلك. فإنه لا يحل لفقير أن يفشي أسرار الله تعالى التي أطلعه عليها أو أن يقول شيئاً بالحدس والظن. وسألوه مرة لما مات السلطان قايتباي عن من يتولى بعده. فقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الملكَ تُؤتي الملكَ مَن تَشاءُ﴾ إلى أخرها.[١١٢] وكان أقبردي الدوادار وغيره قد وعدوا كل من بشرهم من الفقراء بالسلطنة بألف دينار وألف إردب من القمح. فاعلموا ذلك أيها الأمراء والزموا الأدب مع الفقير، وإلا طردوكم عن صحبتهم وفاتكم مددهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يوطن نفسه على نزول البلايا والمحن به طول صحبته. فإن الفقراء بيت البلاء، وإذا تمكن الولي في مقام الولاية، صار قطباً للبلاء يدور عليه رحاه.

وممن رأيته ينفر الأمير عن صحبته الشيخ نور الدين الشوني وسيدي علي الخواص. فكان إذا بلغهما أن أميراً يريد أن يتردد إليهما يقولان له: (١٧٢أ) رأينا عليك البعد عنا، فإننا لسنا من الصالحين، وليس لنا دعاء يقبل، ولا فينا شعرة تحب ما تطلب منا المساعدة عليه من وظائف الدنيا والتوسع في شهواتها. بل نحن من أول من يعارضك في ذلك بالقلب والقالب. فإن سلمت من نزول البلايا حال صحبتنا، فيا خسارة ترددك إلينا من غير فائدة، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إذا اعتنى الحق تعالى بفقير جعل كل من استند إليه تلحقه الآفات ليخبر الناس بعضهم بعضاً بذلك، فلا يصير أحد منهم يحب القرب منه غيرة عليه أن يشغلوه عن عبادة ربه. وإن وقعت الحماية من الآفات لمن استند إليه، فإنما ذلك ببركة اعتقاده فيه لا بتوجه الفقير ودعائه. ورأيت مرة أميراً جاء إليه يطلب الصحبة فقال: أنا أنصحك لله تعالى وأسألك في البعد عني، فإنه ما استند أحد إلي بصدق إلا وخربت دياره ولحقه سائر الآفات. وكان يقول للأمير: لحوق الآفات والمصائب لك على قدر صدقك في محبتي والاعتقاد في، فإن شئت فاصدق وإن شئت لا تصدق. قال: ودليلي في ذلك قوله صلى الله عليه سلم لكعب بن ...[١١٣] رضي الله عنه: إن كنت تحبني فاعد الفقر تجفافاً فانتقى به، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء (١٧٢ب) ولا تصدقوا في صحبته فقيراً إلا إن وطنتم نفوسكم على الصبر على البلايا والمحن. وقد نصحتكم، فإن شئتم فاصدقوا في الصحبة وإن شئتم فاكذبوا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يقدمه في المحبة على نفسه وولده وزوجه وماله وجميع أصدقائه. وذلك لأن الفقير يحميه بصحبته له من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إن شاء الله تعالى، بخلاف من ذكرناهم. فإنهم يزيدونه غفلة عن ربه عز وجل، فتحل به الآفات من سائر الجهات إذ الآفات لا تنزل على العبد إلا حال غفلته عن ذكر ربه، وما دام مستحضراً أنه بين يديه لا ينزل عليه بلاء، ولو مكث في الحضرة ألف عام.

[١١٢] آل عمران، ٢٦.
[١١٣] بياض في أ ر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا يقدر أمير يجازي الفقير على صحبته له ولو أنفق عليه الدنيا بأسرها، لأن أمور الآخرة لا تقابل بالأغراض الدنيوية. وكيف يقدر على مكافأة من يرشده إلى كل شيء فيه نجاته، ويلاحظه بنظره من حيث يصحبه حتى يدخله الجنة؟ وكان يقول: كل أمير لم يرجح أغراض الفقير على جميع أغراضه هو ويرى رأي الفقير أحسن من رأيه، فليس له أن يصحب الفقير. وإن وقع أنه صحبه، فيا طول تعبه وكثرة تردده إليه من غير فائدة، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى (١٧٣أ) يقول: كل أمير لا يستحلي زجر الفقير له وتقريعه بين الناس إذا ظلم أو جار، فبعده عن الفقير أولى ليلا[١١٤] يهلكه، فإنه لا يقره على شيء من أحواله السيئة ويبين له فسادها. وربما منعت الأمير شهامة نفسه أن يدخل تحت طاعته فيخالفه فيهلك، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يبرح عن بابه وخدمته إذا طرده الفقير ولا يجتمع بغيره من أقرانه، فإن ذلك يؤكد المقت من شيخه في حقه. ومن ليس له خير في قديمه فما له خير في جديده، لأن الفقير قد خرج عن رعونات النفوس، فلا يتكدر من الأمير إلا بذنب يوجب الطرد عند الفقير، كتسخير الأمير للفقراء والمساكين من رعيته في حفر بئر أو نزحها أو حرث أو حصاد أو دراس. ويمنع الفقير أن يحرث أرض نفسه أو يحصد زرعه مثلاً حتى تيبس الأرض أو يذوب الزرع، ثم بعد ذلك يحبسه على نقص الخراج أو ينسى أن عجز الفلاح عن شيء من الخراج إنما هو بسبب تسخيره له مما ذكرناه. وهذا أمر قد صار عادة عن الكشاف والعمال، لا يعدونه الآن ذنباً حتى يستغفروا ربهم منه أبداً، مع أنه من أفعال الجبابرة. وقد هجرت[١١٥] مرة شخصاً من بني بغداد لأجل تسخيره الناس وظلمه،[١١٦] فصار يتردد إلى زيارة الإمام الشافعي ويقول: (١٧٣ب) يكفيني في الاستناد إلى من يحميني من الولاة الإمام الشافعي. فقلت له: لو كان الإمام الشافعي حياً وعرضوا عليه حالك، لأفتى بوجوب عزلك وخراب ديارك أو جواز قتلك. فلم يصغ إلى قولي، فكتبت سؤالاً وأرسلته إلى قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقلت له: ما قول مولانا رضي الله عنه في شيخ عرب يسخر الرعية من الفقراء والمساكين، ويسخر أولادهم وبهائمهم في حرث أرضه وحفر آباره وحصاد زرعه ودراس قمحه وغير ذلك، ويمنع أحد منهم أن يمسك زرعه أو يذهب لحفظه حتى يذوب ويحملهم خراج جميع زراعاته، ولا يزن من ذلك الخراج درهماً ويأخذ منهم الخراج من الأرض التي لم يطلع لها النيل، ويمسك الجار عن جاره والصهر عن صهره وآحاد الفلاحين من أهل البلاد عن من تسحب من بلده وخرج هارباً بأولاده من كثرة الظلم ونهب القاطنين، ولم يدع لهم بهائم ولا قمحاً ولا غير ذلك؟ فهل يجوز لولي الأمر ولاية مثل هذا على المسلمين؟ وهل إذا عزله الولاة وصادروه وأدخلوه الحبس وضربوه تعزيراً وقتلوه في الأنفس التي أكره بعض المفسدين على قتلها، هل عليهم بذلك إثم أم لا؟ فرأيته في تلك الليلة وقد أفتى بقتله، فشنقوه بعد أيام على باب زويلة، انتهى.

ر: لثلا.
أر: هجرة.
١١٦ أر: وظلمهم.

وكذلك القول في كل من استند إلى رسول الله (١٧٤أ) ﷺ من الظلمة والمكاسين، وعملوا له ورداً في الصلاة عليه ﷺ لا يفيدهم ذلك شيئاً لأن العلماء لا يحكمون فيه إلا بحكم الشريعة المطهرة تبعاً لصاحبها ﷺ، فإنه لا يحكم كذلك في البرزخ إلا بشريعته. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واثبتوا تحت نصح شيخكم، وإلا كانت ولايتكم زاداً لكم إلى النار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يوفي بما كان وعده به قبل ولايته من الوصية بأصحاب الشيخ وتخفيف المظالم عنهم حسب الطاقة، لاسيما الأمور الهوائية التي ترجع إلى كيس الأمير دون جهة السلطان. ثم أقل مراتب الشيخ في الاحترام إذا شفع عنده شفاعة أن يكون كمرتبة مولانا الباشاة[١١٧]، فلا ترد شفاعته إلا فيما ترد به شفاعة الباشاة لو شفع عنده في مظلوم كأن يكون عاجزاً عن قبول شفاعته العجز الشرعي. ويحتاج الأمير إلى علم وافر بالشريعة وبمراتب العلماء حتى يقدم مراتبهم على مراتب أركان الدولة. وذلك قد صار أعز من الكبريت الأحمر في هذا الزمان.

وقد عجزت أنا في النقباء الذين عندي في الزاوية أن يعظموا الفقير من الشرفاء أو من العميان على أحد من جبابرة أبناء الدنيا، فلم أظفر بذلك. وقلت لهم: إذا جاءني شريف أو فقير للزيارة أو غيرها فدقوا (١٧٤ب) على بابي لأخرج إليه، وإذا جاءني أحد من جماعة الولاة فشاوروني عليه. وإياكم أن تدقوا علي بابي[١١٨] لأجله لأنه لا يأتيني إلا لأمور دنيوية تورث الغم والهم، فلم يصغوا إلى قولي وعكسوا الأمر. فإذا رأوا أحداً من جماعة الباشاة أو الدفتر أو قاضي العسكر يصير كل واحد يجري أمامه ليأخذ له الإذن، وإذا جاء شريف أو أعمى أو مسترشد لا يقوم أحد منهم معه. هذا مع سماعهم الأحاديث والمواعظ طول عامهم، ومع ذلك فلا يغلب عليهم إلا تعظيم أهل الدنيا، فالأمير أولى أن يعذر في ذلك. فليكن الأمير حاذقاً ليقبل إرشاد الفقير إلى معرفة مراتب أهل الله تعالى وتقديمهم على أهل الدنيا، كما أن الشيخ كذلك ينبغي له أن يكون حاذقاً فلا يقول للأمير: احمل الغرامات التي جاءت على جماعتي واعتقهم من المغارم التي جعلها نواب السلطان عليهم، لأن ذلك مما يضر الأمير. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الفقير لا يشفع عنده قط شفاعة إلا ليجازيه الله تعالى بها في الدنيا والآخرة لحديث: من نفس عن وصي كربة من كرب الدنيا نفس الله عليه سبعين كربة من كرب يوم القيامة، الحديث.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول لأمير: اعلم أن جميع ما (١٧٥أ) تدخله على رعيتك من خير أو شر يجازيك الله تعالى به إما في الدنيا وإما في الآخرة، فيدخل الله تعالى عليك من الهم والغم أو الفرح والسرور بقدر ما أدخلت على رعيتك، إما في حال حياتك وإما بعد مماتك، انتهى. وكذلك قلت أنا لمحمد بن بغداد فكأنه توقف في مثل ذلك. فقلت له: بيني وبينك في معرفة ما قلته لك أن تعزل أو حين تدخل القبر، فإني

[١١٧] أ ر: الباشا.
[١١٨] ر: بابي علي.

سألت الله تعالى في أوقات الإجابة أن يطهر جميع أصحابي من الولاة في هذه الدار قبل الموت، إما بالأمراض التي لا ينفع فيها حكيم، إما بالعزل والضرب والحبس ودق البوص في أظفاره ولف المشاق بالزيت الحار على أصابعه وظهره وإشعاله بالنار ونحو ذلك، محبة في تطهير أصحابي بشهادة الله تعالى لا بغضاً فيهم متشفياً للنفس. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه، واسمعوا النصح من شيخكم فإنه رحمة بكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يحوجه إلى الاعتذار في عدم توجهه إلى الله تعالى في قضاء حاجته مثلاً، بل يجب عليه أن يكون هو السائل في ذلك الشيخ فيقول له: يا سيدي إني لم أصحبك لأستعملك في أغراض نفسي الدنيوية من حصول ولاية أو غيرها، وإنما صحبتك لتنصحني في ديني، وترشدني إلى ما فيه صلاحي. وذلك ليريح (١٧٥ب) قلب الشيخ من التعب.

وسمعت سيدي محمد المنير رحمه الله تعالى يقول: يجب على الأمير إجلال مقام الشيخ عن أن يستعمله في شيء من أغراضه الدنيوية، بل يجب عليه أن يقول له: إذا سألتكم في حاجة من حوائج الدنيا فقولوا: اللهم، أو كان لفلان مصلحة فيها في دينه ودنياه فيسرها عليه، وإلا فحل بينه وبينها أبداً ما عاش، إنك على كل شيء قدير، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كما أن الفقير يوفي بحق الأمير، كذلك يجب على الأمير أن يوفي بحق الفقير بعدم تكليفه أن يطلب له ما ليس له فيه خيرة في تولية ولاية أو نحوها. فإن مقام الفقير أن يعارض الأمير في كل شيء طلبه مما يحصل له به ضرر في دنياه أو آخرته، ويعلم أن الأمير إن تكدر منه في الدنيا، فسوف يشكره على ذلك في الآخرة، حين يرى شدة الحساب وما هناك من الأهوال، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تلزموا الشيخ بأن يكون تحت دائرة عقلكم، فإنكم عنده كالمجانين المقيمين في البيمارستان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يهجر كل من رآه ينكر على الشيخ ويمنعه من دخول داره، فإن ذلك من أكبر أسباب عدم انتفاع الأمير بالشيخ، لأن العدو لا ينفك عن الوقوع في عرض الشيخ وحمله على المحامل (١٧٦أ) الفاسدة، كما هو صورة حاله هو. فربما تشكلت تلك النقائص التي حكاها العدو للأمير[١١٩] في ذهنه أي الأمير، ثم أراد أن يرفع شهودها من باله، فلا يقدر. وإذا وصل الأمير إلى مثل ذلك، بطل نفع الشيخ للأمير، لأنه لا يقدر يقابله إلا بشاكلة اعتقاده. وقد ابتليت بشخص من الأعداء يدخل بيب بني بغداد ويظهر لهم الزهد والورع، فلا ينفك عن ذكري بالتنقيص عند أحد منهم. وما سلم من فتنته إلا الأخ الصالح الأمير حسن بن حماد، فإنه أخذ حذره منه، فلا يكاد يصغي لكلمة واحدة في حقي. فأسأل الله من فضله أن يديم ذلك عليه حتى يحصل لي وله الخير أو يجمعه على شخص ليس بعدو لذلك الشخص، ويرزقه الاعتقاد فيه حتى يحصل له قضاء حوائجه على يديه آمين. فإن مقصود الصادقين لأصحابهم حصول الخير لهم على أي

[١١٩] ر: الأمير للعدو.

وجه كان سواء أكان[١٢٠] ذلك على يديهم أو غيرهم، كما يعرف ذلك من خالطهم بالصدق. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واحذروا ممن يحط على شيخكم، واختاروا لأنفسكم إما الشيخ وإما ذلك العدو، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يحمل الفقير حملته في الشدائد التي تصيبه إلا بعد أن يتوب من كل ذنب يعلمه الله تعالى منه ليلا يتعب شيخه في التوجه إلى الله تعالى بغير طريق (١٧٦ب) شرعي، إذ المصر على المعاصي من شرب خمر وزنا ولواط وظلم العباد والبلاد لا يصح لعاقل أن يحمل له حملة، إنما يستحق مثله الخسف به والمسخ لصورته. وكل أمير كلف الشيخ حاجة من الحوائج وهو مصر على معصية، فقد أساء في حق شيخه وكلفه شططاً. وكان الواجب على الأمير أن يقول للشيخ: يا سيدي اسأل الله تعالى لي أن يتوب علي من الذنوب التي أنا مصر عليها ليصح لك أن تحمل حملتي.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: يجب على الأمير إذا نزلت به مصيبة أن يكون تائباً عن جميع الزلات، مواظباً على حضور جميع المواكب الإلهية لا يغيب عن موكب واحد منها في ليل ونهار، ليساعد شيخه في الحملة إذ هي بالأصالة حملته هو. فلا ينبغي له أن يكون غافلاً يلهو[١٢١] ويلعب ويأكل ويشرب ويجامع ويتفرج في البساتين أيام كربه وهمه ويقول: إن الشيخ يحمل حملتي. فإن ذلك جهل عظيم، ولا يخفى ما فيه من سوء الأدب مع الشيخ الموجب لزوال النعم وتحويلها وعدم عودها، لاسيما في هذه الأيام التي صارت النعم فيها معرضة للزوال من جهة عدم قيام أصحابها بشكرها.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تدخلوا في حملة أمير لا يعرف لكم جميلاً أو يعتمد عليكم في الحملة ولا يساعدكم (١٧٧أ) فيها، فيصير عدوكم لا يتهنأ بأكل ولا شرب ولا نوم، ولا يضع جنبه إلى الأرض في ليل أو نهار، أو يحس بجسمه كأنه محشو ناراً، وصاحب الحملة كان الكلب لم يأكل له عجيناً. وكان كثيراً ما ينشد هذين البيتين:

أُحَمِّلُ قَلْبِي كُل يوم وَلَيْلَـــــــةٍ هُموماً عَلى مَنْ لا أفوزُ بِخَيْرِهِ
كَما سَوَّدَ القَصار في الشمْسِ وَجْهَهُ لِيَجْهَدَ في تَبْيِيضِ أَثْوابِ غَيْرِهِ

انتهى. فاعلموا ذلك [أيها][١٢٢] الأمراء وكونوا رجالًا يحمل أحدكم حملة نفسه ويعتق نفسه من جميلة الناس. فإن كان من لا يقدر على تحمله حملة نفسه، فهو معدود من النساء، ليس له في مقام الرجولية قدم. وإياكم أن يكون أحدكم مرتكباً شيئاً من الذنوب كالزنا واللواط وشرب الخمر ويطلب من الشيخ أن يحمل حملته، فإن ذلك جهل وغرور. بل الشيخ من أول من يتبرأ منكم تقديماً لمرضاة الله عز وجل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا ينسى فضله وجميله إذا حمل حملته. فإن غالب الناس اليوم لهم مع الفقراء كلام أيام عزلهم وضروراتهم وكلام أيام ولايتهم ورخائهم. فيأتي أحدهم ذليلاً خاضعاً للفقير يرفع

[١٢٠] ر: كان.
[١٢١] ر: يلهوا.
[١٢٢] «أيها» زيادة من هامش أ.

ذيله على رأسه ويقول: يا سيدي احمل حملتي لله تعالى، فإني معدود من جملة عيالكم وخدامكم. فيدخل رأس الفقير (١٧٧ب) الساذج الجراب ويتوجه إلى الله تعالى في قضاء حاجة ذلك الأمير. ثم إذا قضيت وزال كربه وهمه، نسي فضل الفقير كأنه لم يعرفه. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تنسوا جميلة من حمل حملتكم من الفقراء، وكونوا من الشاكرين لا من الكافرين للنعم. فإن الله تعالى قد وبخ من نسي نعمه وسماه كفوراً بقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسكُمُ الضُّرُ فِي الْبَحْرِ ضَل مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكم إِلَى البَرِّ أَعرضتُم وكَانَ الإنسَانُ كَفُوراً﴾[١٢٣] إلى آخر الآية. وأنشد سيدي بن عروس المجذوب ببلاد المغرب قوله:

كَمْ مِنْ جَمِيلٍ زَرَعْناهُ   غَدا في بُحورِ المهاوي
وَالْمُبْتَلى حِيْنَ يَبــْرَأُ   يَنْسى جَميلَ المــداوي

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يتزلزل اعتقاده فيه إذا وعده بولاية ثم أبطأ وقتها عن الوقت الذي عينها، لأن الشيخ قد يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة وستين لوحاً دون اللوح المحفوظ، أعني عن المحو. فما رأى في ألواح المحو حين وعد أميره بالولاية إلا صدقاً. ثم أن الله تعالى لما محا ذلك بعد إخباره الأمير، لم يسأله الأمير عن ذلك الأمر: هل هو تغير أو باق؟ ولو أن الأمير كان سأل الشيخ عنه، لأخبره بتغيره لكنه لم يسأله، فظن أن الشيخ نصاب والحال أنه صادق في (١٧٨أ) الحالين، في حال الإثبات[١٢٤] وفي حال النفي. فإن قال قائل: ما صورة رؤية الفقير للوح المحفوظ هل يخرق ببصره إليه فيراه أو يراه من قلبه؟ قلنا له: يراه من قلبه لأن القلب إذا انجلى صار مرآة يرتسم فيه كلما قابله من العلويات والسفليات، فيصير يعرف ما كتب في الألواح السماوية وغير ذلك من أحوال الجهات الست وصفات أهلها كما هو معروف بين العارفين. فاعلموا ذلك أيها الأمراء والزموا الأدب مع شيخكم وإلا ابعدوا عنه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يطلب منه أن يلبسه شيئاً من ملبوسه أدباً معه، اللهم إلا أن يقصد بذلك التبرك والحفظ من الآفات ما دام ذلك الملبوس عليه. فمثل هذا لا بأس به، بخلاف ما إذا قصد الأمير بذلك البشارة بالولاية مثلاً، فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ وتكليف له. فقد لا تكون تلك الولاية قسمت له أو يكون فيها تبعة عليه، فيصير الأمير يطالب الشيخ ولو بالقلب بما لا يلزم الشيخ الوفاء به، بل ربما يحرم عليه الوفاء بذلك.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي للأمير أن يلبس شيئاً من ثياب الفقير إلا إن كان على قدمه في الطهارة من الذنوب وكثرة الأعمال الصالحة. فإن كان متلطخاً بشيء من (١٧٨ب) الذنوب أو أقل عملاً من الفقير، فمن الأدب مع ذلك الملبوس أن لا يضعه على جسمه لتضرره أي الملبوس بذلك، كما مرت الإشارة إليه مراراً في الكتاب. وقد كسا فقير أميراً ثوباً من ثيابه، فجاء الثوب إلى الفقير وقال: لا جزاك الله عني خيراً، كسوتني لشخص يسكر ويزني ويلوط أو يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا يكاد أحد يراه واقفاً

[١٢٣] الإسراء، ٦٧.
[١٢٤] ر: الثبات.

في موكب من المواكب بين يدي ربه بعد أن كنت مصاحباً لك كذا كذا شهر، انتهى. فعلم أنه لا ينبغي للأمير طلب شيء من ملبوس الشيخ بوجه من الوجوه إلا أن يبدأه الشيخ بذلك. ثم إن وقع المقدر وكسا الأمير شيئاً يفهم منه البشارة بولايته ثم طلبه منه ثانياً، فمن الأدب رده له ولا يكون عائداً في هبته، لأنه لم يملكه للأمير، إنما ذلك بشارة بالولاية مثلاً، ثم يرجع إليه نظير الخلعة التي تخلع على المزين إذا ختن طفلاً أو على المادح، ثم يسترجعونها منه بشيء من الدنيا. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يخاف من تغير خاطره عليه كما يخاف من تغير خاطر الوالد الصالح عليه، لأن حق شيخ الإنسان في طريق النصح والإرشاد آكد من حق الوالد من حيث الطين كما صرح به الأشياخ، وقالوا: إن دعائه أقرب إلى الإجابة من دعاء والد الطين. (١٧٩أ) فليحذر الأمير من الإصغاء إلى قول عدو لو حسد لشيخه، فإنه شيطان في صورة إنسان يريد أن يتلف عقيدتك في شيخك حتى لا يصير له دعاء يقبل في مصالحك. فلا ذلك العدو يقدر يقوم مقام شيخك في نصحك وإرشادك ويحمل حملاتك، ولا هو أبقى عليك اعتقادك في شيخك، ثم بتقدير مفارقة شيخك واستبدالك شيخاً غيره فيه نفع لك. فلا يؤمن[١٢٥] من دخول ذلك الشيطان أيضاً عليك بالحط والتنقيص له حتى يتلف عقيدتك فيه وهكذا. فاثبت على شيخك الأول، ولا تنقض عهد صحبتك معه، فإن الحكم للداعي الأول. وربما دعا عليك بزوال النعم التي كانت جاءتك على يديه، فاستجاب الله تعالى منه، فكما كان سبباً لمجيئها إليك فكذلك يكون سبباً لرواحها من عندك.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تدخلوا في صحبة أمير إلا بعد أن تشترطوا عليه أنه لا يسمع فيكم قول عدو ولا حاسد، وإلا صحبتكم لا نفع فيها، لأنه إذا سمع قول أعداء الفقير فيه فسدت عقيدته، وإذا فسدت عقيدته بطل نفع كل واحد منكما من صاحبه. قال: ولم يزل الناس في كل عصر يتزاحمون على مصاحبة الأمراء والأكابر، ومن لازم ذلك تجريح بعضهم لبعض عند الأمير ليقبل عليهم دون أقرانهم، (١٧٩ب) فينحل الأمر بتجريح كل واحد أخاه إلى قلة حرمة الفريقين وازدرائهم في عين الأمير. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه تفلحوا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يكتم عنه ذنباً من الذنوب التي يقع فيها، وذلك إما ليفتح له باب التوبة أو ليسأل الله تعالى له المغفرة أو عدم تعجيل العقوبة ونحو ذلك. وربما كان زوال تلك النعمة التي فيها الأمير معلقاً على عدم التوبة من ذلك الذنب، ودوام تلك النعمة معلقاً على وجود التوبة أو شفاعة الشيخ فيه أو دعائه له بالمغفرة وعدم المعاجلة بالعقوبة، فإعلامه الشيخ بذنبه نافع له على كل حال. ولا يستحي من ذكر مثل ذلك للشيخ إلا كل جاهل غاش لنفسه. فإن الأشياخ من شأنهم إقامة المعاذير باطناً للخلق، فلا يزدرون أحداً بذنب، وإنما يسألون الله تعالى له التوبة والمغفرة، ومن يقدر من العباد يرد القضاء المبرم. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تكتموا عن شيخكم ذنباً من الذنوب واعرضوا صحبتكم عليه كل يوم وليلة، فربما قبل الله

[١٢٥] أ: فلا يؤمن عليك، والتصويب من هامش ر.

شفاعته فيكم في هذه الدار فأراحكم من الوقوف للحساب يوم القيامة ومن فضيحتكم على رؤوس الأشهاد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً دوام الصدق والعمل بما كان عاهد الله تعالى (١٨٠أ) عليه قبل ولايته من تخفيف المظالم الهوائية، وعدم البلص للرعية، وعدم نهب أموالهم في الجرائم والتهم. ومحك الصدق في ذلك أن يدخل الولاية ذا مال، فيصير أيام الولاية قليل المال بالنسبة إلى ما كان قبل ولايته. فمتى زاد ماله وكثرت بهائمه وجماله وخيله، فهو كاذب ناقض العهد. وكذا القول في أكسابه المعتادة كزراعاته ودواليبه، فمتى زادت فهو كاذب إلا أن يقصد بذلك إعطاءها للولاة على حكم عوائدهم السابقة معهم، ويعتق الرعية من وزنهم شيئاً منها. فمثل هذا لا يمنع منه ولا يقدح في صدقه، بل لو صارت أمواله التي [اكتسبها بدواليبه أيام ولايته أضعاف أمواله التي][١٢٦] كانت قبل ولايته ليدفعها للولاة عن رعيته، فلا حرج عليه في ذلك.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: من علامة الأمير العادل أن يفتقر أيام ولايته ويصير حاله أضيق مما كان قبلها قياساً على ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه في القاضي. فإنه قال: من ولي القضاء ولم يفتقر، فهو لص، انتهى. أي لأنه لا يتفرغ يحترف حرفة مع القضاء يقوم بمعيشته، فيحتاج إلى أن يأخذ الدنيا على الأحكام. فإذا افتقر عما كان عليه قبل القضاء، دل على عفته وعدم أخذه الرشوة، انتهى.

وسمعته رحمه الله تعالى يقول: إذا سلم الأمير أو القاضي (١٨٠ب) من البلص وأخذ الرشوة، فلا يكاد يسلم من أخذ الهدايا التي يهديها الناس له لأجل قضاء حوائجهم. ولا يخفى ما ورد في ذلك من قوله ﷺ: هدايا العمال غلول. وأما قول عائشة رضي الله عنها: مفتاح قضاء الحاجة الهدية بين يديها، فمحمول على العوائد العرفية لا الشرعية، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ليس لشيخ العرب أو الكاشف أو العامل في مال السلطان من المال الذي يجمعه من الفلاحين وغيرهم إلا مقدار جعالته فقط بحكم العرف الذي كان في الزمان الأول. وأما ما زاد على الجعالة المذكورة، فهو حرام شديد التحريم. هذا إن لم يعين له السلطان أو نائبه شيئاً، فإن كان عين له في ذلك شيئاً فهو ظاهر. قال: ولا يجوز للأمير الذي يجمع الخراج وغيره من الأموال السلطانية الحلال أن يعطي منها سائلاً ولا شاعراً، ولا أن يتبسط بها في بيته لعياله ولضيوفه حتى يسموه كريماً، فإن نفس السلطان أو نائبه قد لا تسمح بمثل ذلك لو سمع به. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وليفتش أحدكم نفسه ما انطوت عليه ولايته من المظالم وأخذ أموال الرعية بالباطل ودفعها إلى من لا يستحقها، وليحذر من الاغترار بمدح الشعراء له من الضيوف وغيرهم إذا اشتهر بالكرم. فإن الكرم لا يحمد إلا إذا كان من حلال. وفي المثل السائر:

(١٨١أ) وَمُطْعَمَةُ الْأَيْتامِ مِنْ كَد فَرْجِها   فَلَيْتَكِ لا تَزْني وَلا تَتَصَدقي

ولما مسكوا الأمير عامر بن بغداد للقتل، وكان مشهوراً بالكرم، كان من جملة ما عاتبه به الباشاة محمد قبل قتله: أتذكر يا عامر تبسطك في مال السلطان، ووقوفك على عصاك من المغرب إلى أن يمضي تلك الليل الأول،

---

[١٢٦] ما بين المعقوفتين ساقط من ر.

وأنت تقول: عشوا العرب الفلانية عشوا الفلاحين عشوا عرب العطايا عشوا محارب؟ أما تعلم أن ذلك من مال السلطان؟ هكذا أخبرني به رحمه الله قبل موته.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يحرم على الأمير التبسط إلى المآكل والمشارب والمراكب والمناكح وغيرها. فإن مال السلطان تحت يده كمال اليتيم، لا يجوز له التصرف فيه إلا بالمعروف. ولأن ينسب إلى البخل أيام ولايته أولى من أن ينسب إلى الكرم عند كل متقيد بالشرع. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وتعففوا عن مال ولايتكم جهدكم وارضوا باللقمة والخلقة، فإن بذلك يدوم ولايتكم ويموت أحدكم على أحسن حال، عكس من تبسط وتكرم بمال السلطان، فإن بذلك تسرع الولاة بعزله وربما مات مشنوقاً أو مشنكلاً ونهبوا جميع حطامه، كما هو مشاهد في بني بغداد وأولاد بن عمر وغيرهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يعرض له بمساعدته في (١٨١ب) وظيفة يطلبها، كما مرت الإشارة إليه مراراً في هذا الكتاب، بل يصرح للشيخ ويقول له: يا سيدي أسألك بالله تعالى أن لا تتعب قلبك في التوجه إلى الله تعالى في توليتي في الوظيفة الفلانية دون خصمي لأجل كثرة ترددي إليك. وإنما أسألك أن تقول: اللهم ول خير الرجلين لعبادك وبلادك على حسب ما سبق به علمك، فإنك تعلم سرائر عبادك. فإن الفقير إذا سمع مثل ذلك ازداد محبة في الأمير، فقضى الله حاجته غيرة على قلب وليه أن يشتغل بغيره تعالى. وهذا دأبي دائماً بحمد لله تعالى، وهو خلق غريب لا يعرفه إلا قليل. وغالب الناس يعتقد أن الفقير إذا تردد إليه أمير يصير من صفه دون خصمه، وذلك سوء ظن بالفقير، إنما هو شأن النصابين الذين يأكلون طعام الأمير ويقبلون هداياه. وأما من كان متعففاً عن ذلك، فإنما هو دائر مع رضا الله لا مع رضا ذلك الأمير. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واصحبوا الشيخ لله [تعالى لينظر لكم بنور الله تعالى]،[١٢٧] والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يطلب من الفقير حاجة إلا بذل نفس[١٢٨] وانكسار قلب وإظهار فاقة إلى الفقير في قضاء تلك الحاجة، عكس حال غالب الأمراء في هذا الزمان. فربما يستعمل أحدهم الفقير في قضاء حاجته وهو بالضد (١٨٢أ) مما ذكرناه، فيتعسر قضاؤها على يديه لعدم استحقاق الأمير لذلك.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: إذا طلبتم من فقير حاجة فأظهروا الحاجة إليه في ذلك والذل والمسكنة بين يديه ليقضي حاجتكم، فإن الفقراء إنما نصبوا أنفسكم لقضاء حوائج اللهفان إذا استغاث بهم وأظهر الاضطرار وقبلوا ذلك منه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه لله تعالى يقول: من أدب الأمير إذا سأل الفقراء في حاجة ووقف الفقراء يدعون له أن يقف بينهم كأحدهم. وكذلك إذا دخل وهم يذكرون الله تعالى أن يذكر معهم سواء أكانوا[١٢٩] جالسين أم واقفين ولا يتعلل بالحياء. فإن ذلك طبيعي لا ثواب فيه، بل هو إلى الإثم أقرب لكونه مخلوطاً

١٢٧ مابين المعقوفتين ساقط من ر.
١٢٨ ر: النفس.
١٢٩ ر: كانوا.

بالكبر، وإذا كان هذا تكبره وهو محتاج إلى الفقراء فكيف تكبره إذا لم يكن محتاجاً إليهم؟ وما رأيت في جميع الأمراء الذين صحبوني أكثر تواضعاً مع الفقراء خالصاً من الأمير منصور بن عمر بالوجه القبلي. ما دخل علينا قط ونحن نذكر الله تعالى إلا ذكر الله تعالى معنا قائماً أو قاعداً. فأسأل الله تعالى أن يرفع درجته في الدنيا والآخرة آمين آمين آمين.[١٣٠]

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إياكم أيها الأمراء أن تطلبوا من الفقير قضاء حاجته وأنتم (١٨٢ب) متصفون بالكبر والجبروتية، فإن الفقير لا يقدر يقضي حاجتكم عند الله تعالى إلا في حال ذلكم وانكساركم. قال: وتأملوا[١٣١] إلى حذق فرعون مع دعواه الربوبية على قومه لما سألوه أن يطلع لهم النيل حين توقف عن الوفاء في ميعاده، كيف خلع الثياب[١٣٢] والتاج وكشف رأسه ولبس المسموح، ثم دخل خربة ليس فيها أحد إلا الله ورفع التراب والرماد على رأسه وقال: يا رب استرني بين قومي. فأجاب الله تعالى دعائه مع كفره، وأطلع له النيل في تلك الليلة [و][١٣٣]حصل الوفاء المعتاد. ولو أن فرعون كان وقف مع صفة كبريائه وجبروته وطغيانه ورؤية علو شأنه، لما كان الحق تعالى أجاب دعائه، مع أن إجابة الحق تعالى دعاء الكفار ليس هو لكرامتهم عليه، وإنما ذلك استدراج لهم. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يحمل غالب مهماته وشدائده عن الشيخ بعدم ذكرها له، فكما أن الشيخ مشفق عليه أكثر من نفسه، فكذلك ينبغي للأمير أن يشفق على الشيخ أكثر من نفسه وفاء بحقه. وقبيح على الأمير أن يحمل الفقير حملته فيصير الفقير لا يأكل ولا يشرب ولا يضع جنبه إلى الأرض في ليل ولا نهار ولا يقرب من حليلته، والأمير يأكل ويشرب ويجامع ويضحك ويلعب. فإن ذلك من أكبر الدلائل (١٨٣أ) على أن هذا الأمير ما شم للرجولية رائحة ولا ذاق لها طعاماً فهو بالنساء أشبه[١٣٤] منه بالرجال. بل رأيت بعضهم يحمل شيخه حملته ويصير يزني ويلوط ويشرب الخمر ويقول: شيخي يحمل عني، وذلك من أعلى مراتب الجهل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا يجوز للأمير أن يحمل شيخه حملته ويتناول شيئاً من شهوات الدنيا لاسيما الجماع، بل ذكروا أن التفكر في الجماع يعسر على الشيخ الحملة وعلى المريد الفتح فضلاً عن الوقوع في الفعل، انتهى. وقد حملت حملة خلق كثير من الولاة، فما رأيت أثقل حملة من حملة بني بغداد، إذا عزل أحدهم وحبس في البرج وذلك لكثرة ظلمهم لرعيتهم. ولو أن أحدهم كان يشفق على رعيته، لم يقدر أحد على عزله ولساعده الجن والأنس في دوام ولايته وإن كان متولياً، وعلى حصول ولايته إن كان طالباً لها، وسعت الولاية إليه أكثر مما يسعى هو لها. وقد حملت مرة حملة للأمير كيكلدي لما عزل، وكان ليلة جمعة، فكدت

[١٣٠] ر: آمين آمين.
[١٣١] ر: تأموا.
[١٣٢] أ: ثياب.
[١٣٣] زيادة من المحقق.
[١٣٤] ر: أقرب.

أن أهلك لنقل التجلي ليلة الجمعة زيادة[١٣٥] على ثقل تلك الحملة. وكان الباعث لي على الدخول في حملته حلفه لي بالله العظيم أنه إن تولى يخفف المظالم الهوائية التي في إقليمه حسب طاقته، ويقنع باللقمة والخلقة مدة ولايته. ولعله كان في نيته شيء من محبة الدنيا ولذلك ثقلت حملته. ولو أنه كان صادقاً لخفف الله حملته علي، (١٨٣ب) اللهم إلا أن يكون رعيته لا يستحقون التخفيف عنهم لسوء أفعالهم، فلا يلزم من ذلك فساد نيته. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وكونوا رجالاً لا يحتاج أحدكم إلى أحد يحمل حملته لما هو عليه من الصدق ومحبة العدل في رعيته، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يسمح باجتماع الشيخ بعياله وجلوسه معهن ولا يتهمه بأنه ينظر إلى إحداهن بشهوة ولو كان شاباً، فإن الغالب في أولياء الله تعالى الحفظ عن الوقوع في شيء من الفواحش ومقدماتها. فعلم أن الأمير متى لم يأمن الشيخ على عياله فليس له أن يتخذه شيخاً له، لأن حرمة الشيخ كحرمة الوالد. ولذلك كره بعض العلماء للمريد أن يتزوج امرأة شيخه التي فارقها بطلاق أو موت أو فسخ، وإن كانت الشريعة أباحت ذلك، لكن ما كل مباح يكون فعله أدباً وأرضى عند الله تعالى. وقد من الله تعالى علي بصحبة جماعة من بني بغداد، فجمعوني على عيالهم بطلب منهم لا مني مع كونهم من أعظم المخدرات. ولكن بحمد الله لم أر سوى أشخاصهن في الأزر والمقانع أدباً معهن ومع أزواجهن، وعملاً بقوله تعالى في حق الصحابة مع أزواج النبي ﷺ ﴿وإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُن مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[١٣٦] إلى آخر النسق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليس لفقير ولو ارتفعت (١٨٤أ) درجته وكثرت كراماته أن يتزوج امرأة شيخ ولا أمير فضلاً عن زوجة شيخه أو السلطان، وإن كان حلالاً. أما الشيخ فربما كان صاحب حال، فجاءه في منامه بحربة فطعنه بها فمات، كما وقع لسيدي محمد الشويمي أخذ أصحاب سيدي مدين بخط المقسم، وكما وقع الشيخ شهاب الدين المجذوب، وكما وقع لسيدي محمد بن عنان. فأفتى العلماء من تزوج نساءهم بالجواز، فأتوهم في المنام وقتلوهم وبعضهم قتل الزوجة مع زوجها. وأما السلطان فربما أخذ الحق تعالى له حقه ممن وطئ فراشه بعده، لكونه كان سلطاناً وملكاً على العالم. فقد علمت حصول الضرر للمتزوج لنساء الأولياء أو الأمراء والملوك بكل حال. ولما تزوج الشيخ محمد المغربي الجاولي امرأة السلطان طومان باي بعد موته، كبر ذلك على سيدي علي الخواص، وقال: هذا من أعلى طبقات سوء الأدب، وكيف يليق بمن يدعي السلوك أن يطأ فراش الملوك؟ انتهى. وقد قدمنا في الكتاب عن سيدي محمد المغربي شيخ الشيخ جلال الدين السيوطي رحمهم الله تعالى أنه كان يأمر أصحابه بتزوج نسائه من بعده ويقول: هذه خصيصة لرسول الله ﷺ، فلا يجب مشاركته فيها، انتهى. فلكل رجال مشهد. فاعلموا ذلك أيها الأمراء والزموا الأدب مع شيخكم، ولا تمنعوا نساءكم من الاجتماع به بطريقه (١٨٤ب) الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

[١٣٥] أ: زياة.
[١٣٦] الأحزاب، ٥٣.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يكلفه بأن يكلم له ولاة بلده في رد وظيفته إليه إذا عزلوه لأنه[١٣٧] قد لا يفيد. فإن الشيخ يعلم أن كل ولاية خرجت من حضرة السلطان، فلا بد من أن تكون بواسطة أصحاب النوبة ببلد السلطان. فليصبر الأمير على الشيخ حتى يحل العقدة من باب السلطان، فإذا انحلت من هناك انحلت من هنا، فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً لزوم الأدب، فلا يطالبه بمساعدته في تولية شيء من وظائف هذا الزمان الذي لا يسلم من الظلم والجور. فإن الشيخ يعلم أن في ذلك إعانة للأمير على فعل ما نهى عنه الشارع بقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها. ولا ينبغي لعاقل فضلاً عن سيدي الشيخ أن يعين أحداً على فعل ما نهي عنه، ثم يصير شريكاً له في الإثم الحاصل في تلك الولاية من أخذ أموال الناس بغير حق، وإن كانت التزاماً لتحصيل الخراج وغيره من جهة السلطان، فلا يقدر يصبر على الفلاح الذي لا يملك عشاء ليلة حتى يتسع حاله.

وقد أرسل عبد الله بن زياد زيادة في خراج مصر (١٨٥أ) إلى عمر بن الخطاب لما ولاه إمارة مصر بعد عمرو بن العاص، يطلب بذلك الحظوة عند عمر وزيادة المحبة. فأرسل إليه عمر رضي الله عنه: ما وليناك لمثل هذا، وإنما وليناك لتكون أشفق على رعيتك من والديهم. وأما زيادة المال الذي أرسلته فنحن نعلم أنك ما وصلت إلى ذلك إلا بعد أن أهزلت سمينهم وأجعت فصيلهم وسلكت في ذلك مسلك الجبارين. وقد استخرت الله تعالى في عزلك فعزله وأعاد الإمارة إلى عمرو بن العاص، انتهى. فيكون على علم الأمير أن الشيخ لا يمكنه أن يقول لك: خذ هذه الولاية واظلم العباد والبلاد وزد في مال السلطان، فإن قانون جماعته قبول الزيادة في الأموال. ثم يستدلون بحصولها على عدم ظلم العمال للرعية ويقولون: لو كان هناك ظلم للرعية لنقصت الخزانة، ويكذبون الشيخ وكل من قال لهم: إن الرعية قد هلكت من كثرة الظلم. فاصبر أيها الأمير على شيخك حتى ينقص مال الخزانة ويسأل الوزراء عن سبب ذلك، ويرجعون عن حب الدنيا ويصير أحدهم زاهداً فيها كما زهد فيها إبراهيم بن أدهم، ثم طالب شيخك حينئذ بمساعدتك في الولاية. أما ما دامت الخزانة تقبل إلى جهة السلطان كاملة وحاشية السلطان لم يزهدوا في الدنيا، فلا يمكن توليتك إلا إن وطنت نفسك (١٨٥ب) أنت وشيخك على ظلم العباد والبلاد ثم دخول النار.

وسمعت بعض قضاة العساكر يقول: إن الوزراء لا يلتفتون إلى عمارة المادة التي يأتي منها مال السلطان، فلو أن إنساناً زاد في خراج البلاد وزيادة لا يقضي العقل بالقدرة على أخذها من الرعية أعطوه، ثم إذا عجز حبسوه وعاقبوه. وقلت مرة لقاضي الخانقاة: إن البلاد قد خربت من الظلم. فقال: لا ينظر جماعة السلطان إلا لعمارة بيوت مصر وأهلها، وأما الفلاحون فلا ينظرون إلى ضيقهم ولا خرابهم. ثم قال لي: من يقول إذا مشى من باب زويلة[١٣٨] إلى باب الشعرية ورأى هؤلاء الخلائق وما الشوارع فيه من الزحمة أن مصر قد خربت، انتهى. فاعلموا

[١٣٧] أ: لأن.
[١٣٨] ر: الزويلة.

ذلك أيها الأمراء واعرفوا زمانكم وما يستحق أهله. وإن طلبتم عدم جور الحكام، فاسألوا الله تعالى قبل ذلك أن يخلق لكم سموات وأرضاً وخلقاً جديداً، أو يعود آخر الدنيا إلى أولها، ثم اسألوه رفع الظلم من الأرض.

فقد سمعت[١٣٩] سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تلحوا على فقير في حصول ما وعدكم من الولاية لوظيفة مثلاً. فإن الشيخ لم يبطئ بها وإنما أبطأ بها وقتها الذي جعلها الحق تعالى فيه، فهي كالمولود الذي يتربى في بطن أمه طوراً بعد طور حتى يكمل خلقه، فإذا كمل خلقه كان هو الطالب (١٨٦أ) للخروج قهراً على أمه. فكما أن من طلب إخراج المولود من بطن أمه قبل تمام خلقه لا ينتج إذا خرج، بل ربما مات فكذلك القول في الوظيفة إذا حصلت قبل وقتها فمعصار توجه الفقير لا ينتج صاحبها ولا يحصل بها نفع له. فإن حضرة علم الحق تعالى التي يتربى فيها الوظيفة كالبطن للولد، فمن كلف فقيراً إنجاز ما وعد به قبل وقته فقد كلفه شططاً.

وقد سمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: الوظيفة طالبة لصاحبها لتكون عنده أكثر مما هو طالبها، وسكون أحدهما بتحرك الآخر. وإيضاح ذلك أن الله تعالى جعل وصول الوظائف والأرزاق على قسمين: قسم يأتي صاحبه بلا سؤال، وقسم أوقف الله تعالى الوصول إليه على السعي له، فلا يقال السكوت أفضل مطلقاً ولا التحرك أفضل مطلقاً، انتهى. وسمعته رحمه الله تعالى يقول: قد يكون الشيخ هو الذي يتوجه إلى الله تعالى في إبطاء تولية تلك الوظيفة على أميره لما رأى في ألواح المحو والإثبات ما على أميره فيها من الضر إذا تولاها، من أخذه أموال الناس بالباطل وقتله[١٤٠] النفس بغير حق، ثم حبسه بعد ذلك وعقوبته ثم شنقه. فطلب إبطاء تولية أميره لتلك الوظيفة رحمة به رجاء أن يمحو الله تعالى ما رآه في تلك الألواح، فحكم الشيخ (١٨٦ب) كالبصير وحكم الأمير كالأعمى، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يقبل فيه قول حاسد ولا عدو ليلا يتزلزل اعتقاده في الشيخ، فلا هو ينتفع به بعد ذلك ولا ذلك العدو قام مقام الشيخ في إرشاده ونصحه وتحمل همومه في الدنيا والآخرة، فليحذر الأمير من مثل ذلك أشد الحذر. وتقدم أني لم أزل مبتلى بمن ينقصني عند كل من يعتقدني من الأمراء ومشايخ العرب والدفاتر وقضاة العساكر، ولكن يغلب عسكر الحق على عسكر الشيطان، فلا يلتفتون إلى كلام ذلك العدو، لاسيما بني بغداد. فلم يزل يقيض الله تعالى عندهم من ينقصني كلما مات واحد خلفه عدو أخر إلى وقتي هذا. فالله يدبرني بحسن التدبير مع كل أمير يصحبني ويغفر لكل عدو ينقصني، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يتمثل أمره إذا صحبه وأمره بالاستقامة في أحواله كلها، فإن لم يتمثل أمره وتمادى في العوج فمن الواجب عليه أن يتمثل أمره إذا أمره بإعطاء أرباب الأحوال ما طلبوه منه في الدنيا، ليحملوا حملته مع الولاة الذين يريدون عزله، أو ليسألوا الله تعالى له[١٤١] المغفرة وإرضاء الخصوم في الدنيا والآخرة. فيختر الأمير لنفسه إما الاستقامة وإما إعطاء أرباب الأحوال ما (١٨٧أ) طلبوا وذلك

[١٣٩] «سمعت» ساقط من ر وهناك بياض.
[١٤٠] أ: قتله.
[١٤١] «له» ساقط من ر.

ليحموه من الآفات. فإنهم لا يطلبون من أحد شيئاً إلا إن كان أعوج، فإن كان مستقيماً لم يسألوه شيئاً لحمايته من الآفات باستقامته، ولو قدر أنهم سألوه شيئاً فلم يعطه لهم لم يعطوه، بل لو أرادوا ذلك له لم يقدروا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يكلفه أن يكلم له الباشاة أو الدفتردار مثلاً ويوصيه عليه إذا توقع العزل وإعطاء وظيفته لأحد من أقرانه. وإنما الواجب عليه أن يكون هو المنزه للشيخ عن مثل ذلك، ويكتفي منه بسؤال الحق تعالى له في ذلك إن كان فيه مصلحة له. وربما كان الباشاة والدفتردار في تدبير أمر متعلق بمصالح المملكة وظهر لهم أن عزل هذا الأمير أصلح لما يترتب على تولية غيره من المصالح كأن يطيعه العصاة دون غيره، ولا يسمعان الشيخ في عدم عزله صاحبه. وربما كان أصحاب النوبة من الأولياء في صف عدو هذا الأمير ويريدون توليته، فلا يقدر أحد من الولاة على إجابة الشيخ لما سأل من ولاية أميره. وربما كان في علم الله تولية عدو ذلك الأمير وتولية عدوه، فيطلع الولاة ذلك المتولي على مكاتبة الشيخ لهم بأنهم يولوا أميره دون عدوه فيصير الشيخ عدواً للأمير الجديد، فلا يقبل له شفاعة بعد ذلك مدة ولايته. فما ربحه هذا الشيخ من جهة صداقة أميره خسره من جهة عداوة (١٨٧ب) للأمير الآخر. فليكن الشيخ المغفل على حذر من إجابة سؤال الأمير له أن يكاتب له الولاة في دوام ولايته أو في عزل عدوه وتوليته. ثم إن وقع أن الشيخ كاتب الولاة في ذلك، فهو فرع محبته للدنيا وعلامة على أن صحبته لذلك الأمير لغير الله، ولذلك لم يقدر على مخالفة الأمير فيما سأله من مكاتبة الولاة في توليته. ولو أنه كان زاهداً فيما في يد الأمير، لما كان يراعي خاطره ويضر نفسه بوجه من الوجوه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من علامة صدق الأمير في صحبة الشيخ أن يقي عرض الشيخ بعرضه هو، حتى لو أراد الشيخ أن يكاتب الولاة في توليته يمنعه من ذلك ويقول: يا سيدي أخاف أن يردوا قولك فيحصل من ذلك الإخلال بمقامك ونحن لا نرى ذلك. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وتأدبوا مع شيخكم واكتفوا بسؤاله الله تعالى لكم أن يفعل لكم ما فيه الخيرة لكم في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يلح عليه في إنجاز ما سبق به الوعد منه في توليته مثلاً بل يصبر ويلزم الأدب، فإن قضاء الحوائج مرهون بأوقاتها. وإن كان الفقير صادقاً فلابد أن ينفذ الله وعده، لو بعد مائة سنة أو في المنام حتى لا يكذب وليه بين العباد.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: ربما ورى الفقير لأميره (١٨٨أ) في قوله لما ألح عليه في سؤال الله أن يوليه وظيفته وقال له: لا بد من توليتك. وقصد بذلك توليته بظهره إذا قام من مجلس شيخه مثلاً ليسكن روع الأمير بذلك حين ضج وعدم الصبر على عدم توليته، وهذا من حسن سياسة الفقير. فإن الفقير ينزه مقامهم عن الكذب والنصب.

وقد وقع لأخي أفضل الدين أنه قال لأميره: لا بد من توليتك في هذه الجمعة، فمضت الجمعة ولم يتول. فقال له الأمير: أين وعدكم؟ فقال: إنما قصدت توليتك بظهرك عنا إذا قمت من مجلسنا، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يطلب من الفقير مساعدته في ولايته التي يطلب توليته فيها. بل لو قدر أن الفقير سأل الله تعالى في توليته، فمن الواجب على الأمير أن يشفق على شيخه ويقول له: سألتك بالله: لا تسأل لي في هذه الولاية، فإنه لا خلاص لي فيها ولا ينبغي أن مثلك يكون شريكي في تبعات الخلائق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من الواجب على الفقير أن يعلم الأمير أول ما يريد صحبته بأنه ليس فيه شعرة واحدة تحب تلك الولاية، وإنما توجهه كله إلى الله تعالى في عدم وصوله إليها. لكن هذا لا يصح وقوعه إلا من الفقير الذي يزهد في الدنيا، وإلا فالراغب لا يقدر على التلفظ بمثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٨ب) ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يتمثل أمره إذا أمره بالإحسان إلى أعدائه وغيرهم ممن لا تطاوعه نفسه أن يحسن إليه، لأن الفقير لا يأمره إلا بما فيه الخير له [دنيا وأخرة]،[١٤٢] لاسيما أقارب الأمير الذين يعرفون دسائس ولايته وما يدخل له فيها من البلص. فإنه إن لم يحسن إليه فربما ذهب إلى باب السلطان وأنهى فيه أنه ظلم العباد والبلاد وأخذ مال السلطان لنفسه واستحق القتل، وقبل جماعة السلطان منه ذلك وعزلوا ذلك الأمير. ولو أنه كان أحسن إليه لكان من أول الناس شكراً فيه وستر عورته وكتم ما رآه منه وانقاد لطاعته أشد الانقياد.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي للأمير أن يحسن إلى أهله وأعدائه بما فوق كفايتهم. فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: لا تنفق على ولدك وزوجتك وغلامك وأصحابك فوق كفايتهم فيخرجون عن طاعتك، فإن طاعتهم لك تكون بقدر حاجتهم إليك، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يسأل الفقير في الدعاء له بحصول أمر دنيوي أو أخروي إلا بعد طهارة ظاهرة وباطنة من كل ذنب يعلمه الله تعالى منه، فلا ينبغي له أن يطلب من الشيخ الدعاء وهو مرتكب ذنباً واحداً من الذنوب لأن الشيخ قد لا يجاب دعاؤه في حق العصاة (١٨٩أ) عقوبة لهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل من لم تكن سريرته مثل علانيته فهو من المنافقين والمنافقون في الدرك الأسفل من النار والله تعالى غضبان عليهم، ومن كان الحق غضبان عليه كيف يجاب الشيخ في الدعاء له. وسمعته يقول: كيف ينبغي للأمير أن يكلف شيخه إلى أن يسأل الله تعالى له في حصول ولاية لا خلاص له فيها كولاية القضاء والحسبة والكشف ومشيخة العرب ونحو ذلك؟ فإن أصحاب هذه الولايات الغالب عليهم طلب التوسع في الدنيا أو التمتع بشهواتها، وجباية المظالم والمغارم وأخذ أموال الناس بالباطل وصرف ذلك في شهوات بطنه وفرجه ولو حراماً كشرب الخمر والزنا ونحو ذلك. ومثل هذا الأمير ربما كان يستحل أموال الناس بالباطل ويستحق العزل وضربه مقارع وكسارات، فليتنبه الأمير لنفسه ولا يطالب الفقير بإجابة الدعاء بدوام ولايته وعدم عقوبته إلا إن لم يكن عليه ذنب من الذنوب. وأما إذا كان بهذه الصفات التي ذكرناها فإنما يستحق الخسف به، والحمد لله رب العالمين.

[١٤٢] أ: دنيا والأخرة.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يبخل عليه بشيء يطلبه منه من أمور الدنيا لنفسه أو لغيره إذا كان مذهبه جواز قبول هدايا الأمراء بطريقه الشرعي، فإنه لا يطلب ذلك (١٨٩ب) من الأمير إلا لمصلحة ترجع على الأمراء لكمال زهد الفقير في الدنيا في بدايته فضلاً عن نهايته. وأيضاً فإن الفقير ما دخل في صحبة الأمير حتى بايعه على ذهاب روحه في تحصيل مصالحه وحمايته من الآفات في الدنيا والآخرة، فجميع ما يعطيه الأمير من الدنيا لا يساوي ذرة واحدة مما يتحمله من المصائب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: مذهبنا عدم قبول شيء من هدايا الأمير الذي نصحبه مطلقاً، بل نتوجه إلى الله تعالى في أن ذلك الأمير لا يخطر بباله إرسال هدية لنا مدة صحبتنا له فضلاً عن إرسالها وقبولنا لها، وفي ذلك تخفيف الحملة عنا. فإن في المثل السائر: من أخذ الغفارة يرد الغارة، هذا إذا كان الخفارة من حلال فكيف إذا كانت من حرام أو شبهات، انتهى. وتقدم أول الكتاب أن من شرط الفقير الصادق في الصحبة للأمير أن لا يصحبه إلا بعد تحكيمه في ماله الحلال يتصرف فيه كيف شاء من صدقة وعتق ووقف وغير ذلك. وإلا فإذا كان يشح على الفقير بإطلاق التصرف له في ماله فصحبته له قليلة النفع. وتقدم أيضاً أنه يجب على الأمير أن يعتقد في شيخه[١٤٣] الصلاح والعفة وعدم نسبته إلى محبة الدنيا وأن كل أمير صحب فقيراً على هذه الشروط فقد خان نفسه وشيخه.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله يشترط على الأمير (١٩٠أ) الذي يصحبه أن لا يهدي إليه هدية مدة صحبته له ويقول له: إن [أهديت][١٤٤] لي هدية قطعت الصحبة بيني وبينك ودعوت عليك بالعزل وخراب الديار، خوفاً أن يلمح الأمير منه أنه صحبه لدنيا يصيبها منه قياساً على نفسه هو. فإن الأمير متى لمح من الفقير ذلك، ذهبت هيبته من قلبه وصار كآحاد الناس عنده لا يقبل له شفاعة ولا يسمع له نصحاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً شدة حذره من أن يصحب شيخاً آخر من أقران شيخه إذا طرده شيخه عن حضرته، لأن ذلك يزيد الأمير مقتاً وربما طرده الشيخ الثاني إذا كان حاذقاً وقال: لا يبعد أن يفعل بي مثل ما فعل بالشيخ الأول ولا يثبت له قدم في صحبة أحد من الأولياء ويخسر في الدارين. وإنما الواجب عليه إذا طرده شيخه من حضرته أن يثبت على صحبته ويلزم أعتابه حتى يطيب خاطره عليه، ويحمله على أنه ما طرده عن بابه إلا تربية وتأديباً، فإن الأمير مع الفقير كالمريد مع شيخه في النصح والتربية.

وقد كان سيدي يوسف العجمي يضرب الأمير شيخون ويهد[١٤٥] عمامته بحضرة مماليكه ووضع البردعة على ظهر الأمير مرة وركبه وشيخون راض بذلك لم يتغير.

[١٤٣] ر: فيه.
[١٤٤] أ: اهدية.
[١٤٥] لعل المقصود: يهز.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لا ينبغي لأمير أن يدخل في صحبة فقير إلا بعد أن (١٩٠ب) يحكمه في ماله ونفسه ويحبه أشد المحبة بحيث لا يصرفه صارف ولا يرده عنه السيوف والمتالف. وكل أمير أوهم الفقير ذلك من غير تحقيق ازداد بذلك نفاقاً ومقتاً، ولا بد للفقير من طرده [عن][١٤٦] بابه، إذ الفقراء كالملوك ربما يؤاخذون العبد بأقل من القليل فلا ينضبطون على مقام المسامحة. بل كان الجنيد يقول لمن يريد صحبته: تعلم يا أخي أدب الملوك ثم تعالى، فإن بداية الأدب معنا يبتدئ من بعد نهاية أدب الملوك، انتهى. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعملوا عليه إذا صحبتم فقيراً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يرد له شفاعة في مظلوم كما لا يرد شفاعة السلطان إذا شفع في أحد عنده، بل هو أولى لأن الفقراء لا يشفعون عند الأمير إلا فيما تعدى فيه حدود الشريعة كنهبه مال من اتهم بتهمة مثلاً، فمن رد شفاعة فقير فقد تعرض لمحاربة صاحب الشريعة المطهرة. وقد قال تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[١٤٧]

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي للأمير أن يرد شفاعة الفقير إلا فيما غطى على الفقير فيه كإن خالف بشفاعته قواعد الشريعة أو العرف، كما يقع فيه بعض الساذجين (١٩١أ) من الفقراء. ولذلك كنت أذكر في مكاتبة الأمير: إنكم تفعلون كذا وكذا، إن لم يكن في طريقه مانع شرعي أطلقوا فلاناً من السجن إن كان التأديب فيه بلغ حده، وإن لم يكن الأمر كذلك فنحن معكم عليه حتى يتأدب. كل ذلك خوفاً من أن[١٤٨] يسفه الأمير عقلي، فلا يعود بعد ذلك يقبل لي شفاعة ويقول إني ساذج أو بهلول. فاعلموا ذلك أيها الأمراء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً دوام الصدق معه والوفاء بما كان عاهده عليه قبل ولايته من تخفيف المظالم عن الرعية جهده والرضا من تلك الولاية[١٤٩] باللقمة والخلقة وقبول شفاعته في المظلومين ونحو ذلك، فإن لم يوف بما عاهد الله عليه فإنما يستحق الهلاك.

ومن هنا كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: الناجي من الأمراء بعد دخوله في عهد الفقراء أندر من النادر إذ الغالب فيهم عدم الوفاء بما عاهدوا عليه الشيخ، فهلاكهم أسرع من السيل إلى منتهاه. وسمعته يقول: ليكن الفقير الذي يصحب الأمير حاذقاً فلا يصغي إلى قوله إنه عازم على إبطال المظالم إن تولى أبداً لأن الزمان ما هو قابل لذلك. وسمعته يقول: ينبغي للفقير أن يقطع صحبة الأمير الذي دخل في عهده وحلف له أنه لا يظلم أحداً إن تولى ثم رآه قد زادت مطاعمه وملابسه ومراكبه، فإنها ما زادت (١٩١ب) إلا من ظلمه. وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص، فكيف بمن يزداد مالاً بولايته؟ انتهى. وسمعته يقول: كل فقير ساعد أميراً في ولايته فهو شريك له في الإثم وسائر التبعات. وربما ساعده الشيخ في

[١٤٦] «عن» زيادة من هامش أ.
[١٤٧] النور، ٦٣.
[١٤٨] «أن» ساقط من ر.
[١٤٩] أ ر: الولاة.

تلك الولاية بالتوجه إلى الله تعالى وسؤاله الولاة، فلما تولى نسي جميلة الفقير وقال: ما ولاني إلا فلوسي، كما وقع لنا ذلك مع بعضهم. فقطع الفقير صحبته مثل هذا واجب، اللهم إلا أن يكون الفقير يترجى إصلاحه بالنصح شيئاً فشيئاً فلا بأس بدوام صحبته، لكن هذا قد صار أعز من الكبريت الأحمر يتحدث به ولا يرى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: إياكم وصحبة الأمراء في هذا الزمان بنية قبولهم شفاعاتكم في المظلومين، فإن ذلك لا يصح لكم بتقدير صلاح الأمير وحسن نيته في ولايته. فالرعية لا تستحق مثله من حيث ملاطفته لهم وحمله عليهم، إنما يستحقون من يقابلهم بأفعالهم السيئة وينفد غضب الله تعالى وأقداره فيهم.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من علامة فساد نية الأمير أن يكثر اللصوص وقطاع الطرق في أيامه، ويذهب الله تعالى حرمته من قلوب الرعية حتى ربما نهب اللصوص بهائمه من داره فضلاً عن بهائم رعيته، كما وقع ذلك لبعض مشايخ العرب. فاعلموا ذلك أيها الأمراء وأوفوا بما كنتم عاهدتم الله تعالى عليه قبل ولايتكم من (١٩٢أ) المعروف، وإلا دارت عليكم الدوائر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يعتقد أن عقل الفقير أتم من عقله هو وذلك حتى لا يخرج عن العمل بإشارته، فإن كل أمير اعتقد أنه أتم عقلاً من شيخه فقد تعس وانتكس وأتته الآفات من سائر الجوانب ومن شك فليجرب. وأين مقام عقل من أطلعه الله تعالى على أحوال أهل الدارين على التفصيل ممن هو محجوب عن معرفتها ما انطوت عليه نفسه من الصفات؟

وقد نصح سيدي علي الخواص رحمه الله بعض الأمراء بشيء فقال الأمير: إن الشيخ ساذج لا يعرف أمور الدنيا. فقال الشيخ: وعزة ربي قد أطلعني الله على كل ما يقع في الكونين ولم يحجب عني منهما شيئاً، انتهى.

وكان سيدي محمد المنير رحمه الله تعالى إذا صحبه أمير وصار يخالف إشارته يطرده عنه بحسن سياسة. وذلك أن يحسن اعتقاده في غيره من الفقراء ويصير يبث في محاسنه بحضرته كثيراً، ثم إذا مال ذلك الأمير إلى ذلك الفقير يقول له: مقصودنا[١٥٠] نزور سيدي الشيخ نحن وإياكم. ثم يذهب بالأمير إليه فإذا دخل عليه قبل رجله وقال له: أسأل الله أن يفسح في أجلكم لنا وللمسلمين، ويسأله الدعاء له والأمير، فينقطع ذلك الأمير عنه ولا يعود يزوره، انتهى. وقد فعلت أنا بذلك مع بعض الأمراء فكان هلاكه على يد (١٩٢ب) غيري. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واحذروا مكر الأشياخ بكم إذا خالفتم إشارتهم ونقضتم عهدهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم أيضاً مع الفقير أن لا يغير ما كان عاهده عليه من عدم تنفيد غضبه في أحد من أعدائه إذا تولى ولا يصادر أحداً منهم ولا يخرجه من وطنه ونحو ذلك، ثم يطلب من الفقير بعد ذلك الحماية من الآفات. فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ وربما قيض الله تعالى لذلك الأمير بحكم العدل من ينفد[١٥١] غضبه فيه وفي جماعته ويخرب ديارهم ويخرجهم من أوطانهم، كما وقع ذلك لبعض الأمراء. فمن خفة عقل الأمير

[١٥٠] ر: هذا مقصودنا.
[١٥١] ر: ينفذ.

أن ينفد غضبه في أعدائه ولا يعفو عنهم ولا يصفح، ثم يطلب من الله تعالى عدم تنفيد غضب عدوه فيه وفي جماعته. فاعلموا ذلك أيها الأمراء واعفوا واصفحوا عن عدوكم وعن جماعته ليجازيكم الله تعالى بمثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يكون جازماً فيه بالصلاح من غير تردد وذلك ليجري الله تعالى له على يد الشيخ الخيرات وبلوغ المآرب، فليحذر الأمير من تقريب أحد من أعداء شيخه. فإنه ربما ذكر له شيخه بشيء من النقائص فيتشكل شهودها في ذهنه ويريد أن يجعله سليم العرض كما كان قبل أن يسمع من ذلك العدو وتنقيصه، فلا يقدر (١٩٣أ) فيعدم النفع به بالكلية. وقد قالوا: العمل في سرعة قضاء الحوائج على صدق توجه صاحبها للفقير لا على الفقير، حتى لو كان الفقير في مقام القطبية والمتوجه إليه لا يعتقده كل ذلك الاعتقاد، فلا تقضى له حاجة. فليحذر الأمير من سؤاله للفقير عن شيء من الأمور الخاصة بأهل الكشف مما يقع له في المستقبل، فإن من شرط الفقير أن لا يتكلم بذلك ولو لأعز أصدقائه لما في ذلك من المفاسد التي لا تحصى. أقل ما في ذلك إحداق الولاة أعينهم إلى الفقير واعتقادهم الصلاح والولاية فيه إذا وقعت الأمور على وفق ما تكلم به من طريق كشفه. ولا يخفى ما في ذلك من السوء فإنه بمثابة من يكشف عورة شيخه ليراها الناس.

وسمعت سيدي علياً الخواص يقول: أقبح شيء عند الفقير الصادق ظهور كرامة أو خارقة على يديه. وقد نهى الشرع عن كشف عورات الناس والعورة تختلف باختلاف المشاهد، فمنهم من يرى كشف السوءة [بذكر نقائصه المشهورة ومنهم من يرى كشف السوءة][١٥٢] بذكر الكرامات والكمالات. فكما يتكدر قوم بذكر نقائصهم بين الناس كذلك يتكدر الصادقون بذكر كراماتهم بين الناس، ولو كان شهد أحدهم أنها من فعل الله ليس فيها شركة. فالله يرزق جميع من صحبناه من الولاة ستر عورتنا ولا يذكر (١٩٣ب) لأحد شيئاً من كمالاتنا التي شهدها منا آمين آمين آمين. فاعلموا بذلك أيها الأمراء واجزموا باعتقاد الصلاح في شيخكم[١٥٣] مدة صحبتكم له، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يزداد في الفقير محبة كلما تقادمت صحبته له، لاسيما إذا صار الفقير لا يقبل عليه كل ذلك الإقبال الذي كان يفعله معه أوائل صحبته ولا يقدم له نعلاً ولا أكلاً ولا شرباً. ويجب عليه حمل الفقير على المحامل الحسنة، وأن مثل هذه الفعائل من علامة وثوق الشيخ به وثبات محبته ووده، وأنه إنما كان يقبل عليه أوائل الصحبة ويقدم له الطعام ونحو ذلك لما كان يراه عنده من ضعف الاعتقاد، فكان يقصد بذلك التأليف ليميل إليه بالمحبة ويقبل نصحه. فليحذر الأمير من سوء الأدب مع الشيخ كل الحذر، ويرى نفسه كالخادم للفقير أو كالتلميذ للشيخ لا يقع منه اعتراض عليه لا بلسانه ولا بقلبه. وإن قدر أنه وقع منه ذلك وجب عليه إعلام الشيخ به ليجدد عليه الصحبة ويبني له بناء جديداً وإلا فلا فائدة في الصحبة، فاعلموا ذلك أيها الأمراء وافرحوا كلما قل إقبال شيخكم عليكم، واحملوا ذلك على قوة معرفته بثبات ودكم

[١٥٢] ما بين المعقوفتين ساقط من ر.
[١٥٣] أ ر: أميركم.

له أو على عدم استحقاقكم إقباله عليكم لما أنتم عليه من خبث الطوية، واصبروا معه على طول هجره لكم وحكمه فيكم، وإلا فارقوه بحسن عبارة وأدب، والحمد لله رب (١٩٤أ) العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يخونه في الصحبة كأن يظهر له الاستناد إليه دون غيره من الأشياخ، ثم يصحب شيخاً آخر من غير علمه ويصير يتردد إليه سراً ويقول له: لا أعرف لي شيخاً غيركم وقد أجمع القوم على أنه لا ينبغي للأمير أن يصحب أكثر من فقير واحد كما قالوا ذلك في المريد، وذلك ليقرب عليه الطريق إلى الوصول إلى مقصوده. فإن كل من صحب شيخين فأكثر قل أن يسلم من التردد في أي الشيخين أعلى مقاماً، وإذا حصل ذلك[١٥٤] بطل نفعه بكل منهما، ومن شك فليجرب. وتأملوا الرحى لا تدور دورة واحدة إذا جعلوا لها قلبين، فإن في ذلك عبرة لكل عاقل. وأما ما نقل عن السلف الصالح من أن أحدهم كان يصحب السبعين شيخاً في وقت واحد فمحمول على أن كل واحد منهم كان بصيراً بأمور الدنيا والآخرة لما هم عليه من أكل الحلال وكثرة الطاعات عكس حال الناس في الزمن الذي بعدهم، فصار الواحد منهم كالأعمى لا يقدر يمشي وحده خطوة في الطريق. فلذلك ألزم الأشياخ[١٥٥] هؤلاء المريدين بالتزام شيخ واحد كما ألزموهم بالتزام مذهب واحد من مذاهب المجتهدين رحمة بهم، كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب الميزان وغيره. فاعلموا ذلك أيها الأمراء ولا تصحبوا من (١٩٤ب) الأشياخ إلا من ترونه يكفيكم عن كل شيخ في بلادك، وإن شككتم في أي الأشياخ أعلى مقاماً فصلوا ركعتين واسألوا الله تعالى في السجود أن يرجح في قلبكم أحداً منهم، فإذا ترجح عند أحد منكم واحد فليصحبه ويعطيه حقه من الأدب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يكتم عنه شيئاً مما هو مرتكبه من الكبائر والصغائر والمكروهات، وذلك ليدله على أسباب التوبة، وكل أمير استحى من ذكر ذلك للشيخ فقد خانه في الصحبة. وهذا خلق غريب في هذا الزمان قل أمير يسمح للشيخ بذكر شيء من نقائصه التي يفعلها بينه وبين ربه. ولو أنه كان[١٥٦] ذكرها للشيخ لسأل الله له التوبة أو المغفرة أو يشفع فيه عند الله تعالى في هذه الدار وأراحه من طول الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: يجب على الأمير أن لا يكتم عن شيخه ذنباً واحداً وقع فيه ثم يتعلل بالحياء، وغاب عن هذا الأمير أنه مع الشيخ كالمريض مع الطبيب فكل داء كتمه عن الطبيب دام ألمه عليه، انتهى.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن يرى للفقير الفضل عليه دون العكس، فلا يكاد أبداً يرى له فضلاً على الشيخ بشيء من الهدايا التي يرسلها إلى زاويته مثلاً، بل يرى أنه وعياله إنما يأكلون ويلبسون من بعض صدقات الشيخ عليهم والله تعالى ما سهل عليهم أسباب (١٩٥أ) رزقهم إلا ببركة دعائه. وقد قلت مرة لمحمد

[١٥٤] ر: بذلك.
[١٥٥] ر: المشايخ.
[١٥٦] ر: كان كان.

بن بغداد: إن سيدي شرف الدين ابن الأمير وإخوته يحبونه كثيراً، فقال على الفور: كلنا من جملة عيالك. فأعجبني أدبه ولم أسمع مثل ذلك من غيره. فالله تعالى يرحمه ويسامحه آمين اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أن يخبر الشيخ بما حدث عنده من محبة ظلم العباد والبلاد وعدم خوفه من الله تعالى يوم الحساب ليسأل الله تعالى له بالإصلاح أو العزل وهذا عزيز في الأمراء الآن. فربما غير عهد الشيخ وصار يظلم العباد ولا يقول للفقير: ادع الله لي بالتوبة والإصلاح أو العزل من هذه الولاية. وتقدم في هذه الخاتمة أنه ينبغي للشيخ إذا رأى أنه لا يطهر أميره من الذنوب إلا عزله وضربه وحبسه أو قتله أن يسأل الله تعالى له ذلك محبة فيه وإيماناً بيوم الحساب ووفاء بحق صحبته لا بغضاً فيه. فليكن الأمير على حذر من صحبة الفقراء الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يجر إلى الفقير ضرراً في دينه أو دنياه بل يشفق عليه أكثر من شفقته على نفسه كما تقدم ذكره مراراً، وذلك كأن يعاهد الفقير الساذج أو النصاب قبل ولايته على أنه يتعفف عن مال رعيته حسب طاقته ويحفظ حريمهم وأموالهم ولا يبلص (١٩٥ب) أحداً منهم من درهم مثلاً، ثم يغير ذلك العهد ويصير يظلم ويقتل وينهب أموال الرعية ويرمي بينهم بالعداوة ويشير إليهم بقتل بعضهم بعضاً، فإذا قتلوا نهب الفريقين كما وقع لبعض الأمراء. وكان إثم ذلك في عنق كل من ساعده على تلك الولاية كما أن الإثم الحاصل لذلك الشيخ في عنق الأمير أيضاً، فكل واحد منهما قد أضر بصاحبه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول لأمير:[١٥٧] إياك أن تحمل شيخك الإثم من جهة مصاحبته لك، بل كما كان مانعاً لك بنصحه لك من دخول النار فذلك يجب عليك أن توفي بعهده ولا تكن سبباً لدخوله النار لأجلك، انتهى. فاعلموا ذلك أيها لأمراء وأشفقوا على دين شيخكم كما يشفق على دينكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاق أحدهم مع الفقير أيضاً أن لا يظهر له أن صحبته لله تعالى وفي باطنه غير ذلك، كأن يطلب منه في الباطن أن يكاشفه بما يقع في الوجود، فإن ذلك يضر[١٥٨] شيخه قبله كما مر ذكره في هذه الخاتمة. فإن مثل ذلك معدود من أسرار الملوك. فكما أن بعض الملوك يرى قتل من أفشى سره بين الرعية، فكذلك الحق جل وعلا ربما مقت الشيخ الذي يفشي أسراره بين العوام وحجب عنه الكشف بعد ذلك إلى أن يموت عقوبة له.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من كلف شيخه أن يكشف له[١٥٩] على شيء (١٩٦أ) من الأمور المستقبلة فقد كلفه شططاً سواء أكان[١٦٠] من أهل الكشف أم محجوباً عن ذلك. وقد قال المحققون: يجب على من أعطاه الله تعالى الكشف أن يكون على حذر من الإطلاع على عورات الناس[١٦١] وما يفعلونه في قعور بيوتهم

١٥٧ أ ر: لا أمير.
١٥٨ «يضر» ساقط من ر.
١٥٩ «له» ساقط من ر.
١٦٠ ر: كان.
١٦١ ر: النساء.

لأنه كشف شيطاني. وإن كان الفقير يرى بقاء الكشف عليه فليسأل الله تعالى أن يجعل ذلك خاصاً بالإطلاع على محاسن الناس دون مساوئهم أو بمن سبق في علم الله تعالى هدايته إذا أخبره الشيخ بذنبه، فيتوب ويندم ويشكر فضل ربه على ذلك دون أن يعاديه أو يكذبه ولو بالباطن، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك[١٦٢] آخر ما أراد الله تعالى لنا رقمه في هذه الطروس من الأدب والأخلاق، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وأنا أوصي جميع الإخوان ومن بعدهم إذا طالعوا في هذه الأخلاق ورأوا غالب طلبة العلم غير متخلقين بها أن لا يزدروهم، بل يعذرونهم بعدم القسمة الإلهية باطناً ويأمرونهم بالأخذ في أسباب التخلق بها ظاهراً، كما درج عليه العلماء العاملون عكس ما عليه الممقوتون من بعض أصحاب الفقراء ممن صحبهم بغير صدق ولا إخلاص. فقد قال (١٩٦ب) الأشياخ: من علامة من انتفع بصحبة شيخه من الفقراء أن يخرج من صحبته ناظراً لنفسه ليس له نظر في عورة أحد من المسلمين، ويرى الناس كلهم خيراً منه عكس من لم ينتفع بصحبته شيخه، فإنه يخرج من صحبته ناظراً إلى عيوب الناس لا يكاد يعجبه أحد من العلماء والصالحين. فإياكم ثم إياكم من مثل ذلك. وأنا أسأل بالله تعالى كل من نظر في كتابي هذا وانتفع بشيء منه أن يدعو لي بأن الله تعالى يأخذ بيدي في شدائد الدنيا والآخرة حتى أجاوز الصراط من غير عذاب يسبق، فلعل الله يستجيب ذلك منه ويجازيه بمثله. قال ذلك وكتبه مؤلفه عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني عفا الله عنه حامداً مصلياً مسلماً محتسباً محوقلاً[١٦٣] مستغفراً. وكان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين خامس عشر رمضان المعظم قدره سنة تسع وستين وتسعمائة بمصر المحروسة. وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة ليلة الأربعاء الرابعة والعشرين من شهر جماد الثاني من شهور سنة أحد عشر ومائة وألف بقلم الفقير إلى ربه الكافي فتح الله بن الحاج أبو بكر صافي الحلبي الشافعي القادري غفر الله له ولولديه ولمشايخه.[١٦٤]

«ذلك» ساقط من ر.

[١٦٣] أ ر: محقولًا.

ر: وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة اللطيفة ليلة الأحد لستة أيام مضت من شهر محرم سنة ١٢٣٠ ألف ومائتين وثلاثين من بعد الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بقلم الفقير المحتاج إلى رحمة ربه القدير السيد محمد بن السيد عبد الله غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولمن نظر فيه ولصاحبه الفاتحة آمين.